من الشرق والغرب

قضايا دولية

بقلم: ه. مونتجومري هايد
بالاشتراك مع: چون ه. كيش

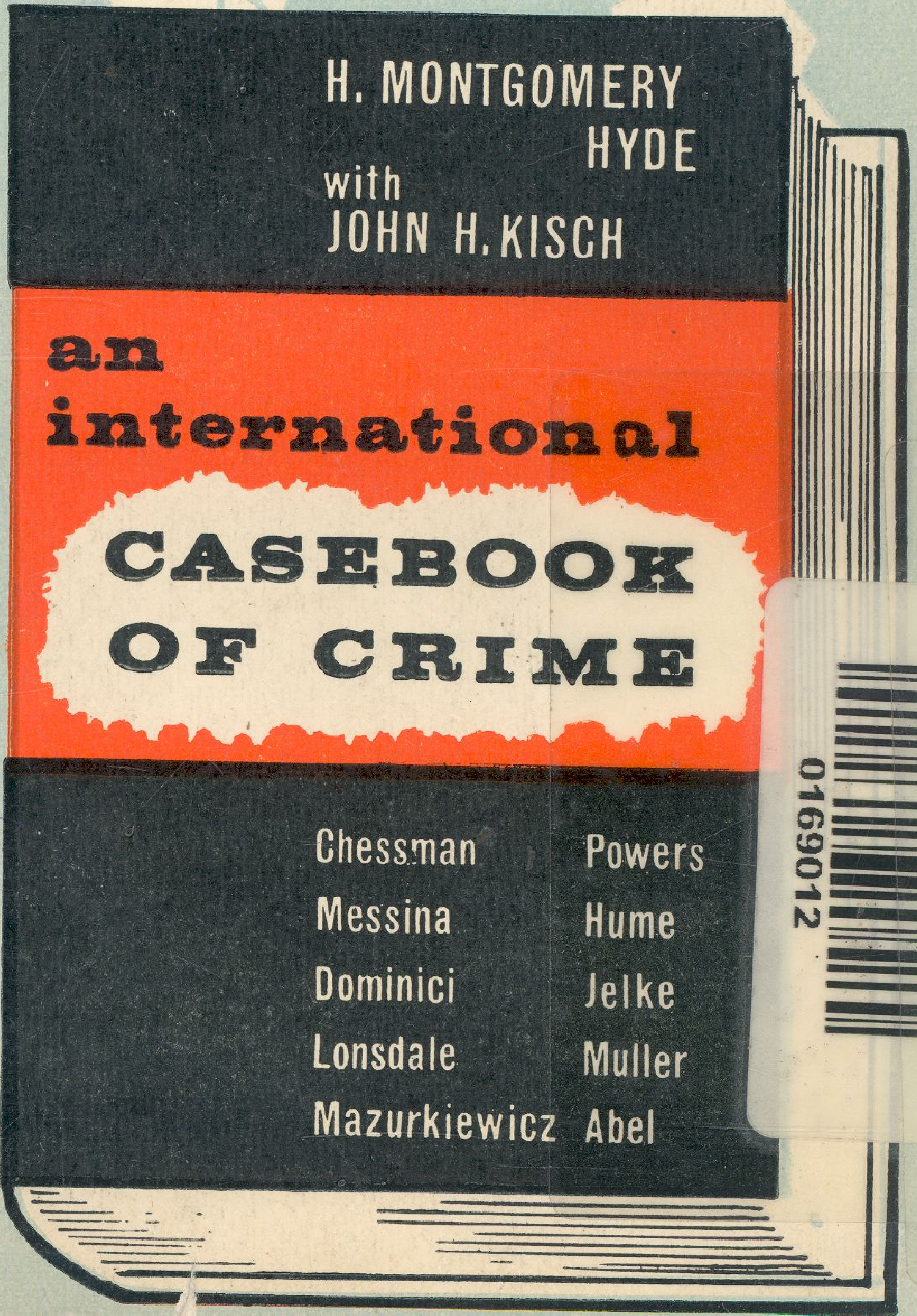

ترجمة
مصطفى حسني

مراجعة وتقديم
حمدي حافظ

Bibliotheca Alexandrina
0169012

من الشرق والغرب

قضايا دولية

بقلم
هـ . مونتجومري هـايد
بالإشتراك مع
چون هـ . كيتس

ترجمة
مصطفى حسني
مراجعة وتقديم
حمدي حافظ

تقديم

يتضمن هذا الكتاب ، الذى أصدرته دار « بارى وروكليف » للنشر فى لندن ، عشر قضايا جنائية هامة ، اكتسبت صفة دولية واستحوذت على اهتمام الرأى العام العالمى لأسباب ودوافع متباينة ، تختلف باختلاف نوع الجريمة ومسرحها ..

وقد اختار الكاتب الجنائى البريطانى الشهير ـ مونتجومرى هايد ـ القضايا العشر من بين أهم المحاكمات التى أحدثت ضجة عالمية فى السنوات الاخيرة ، وحرص فى اختيارها على أن تمثل هذه القضايا ـ حسب تعبير المؤلف ـ .. قطاعا شاملا لجميع أنواع الجرائم الدولية المعاصرة .. ولذلك ، شمل هذا الاختيار ثلاث قضايا خاصة بالتجسس ، وأربع جرائم قتل ، وجريمتين من جرائم الاتجار بالعرض أو « التجارة بالرقيق الأبيض » حسب قول البعض ، وقضية اختطاف مصحوب بالسرقة ومحاولة الاعتداء .. وكما اهتم المؤلف باختيار نوع الجرائم أو القضايا التى ضمنها كتابه ، عنى أيضا باختيار مسرح الجريمة ومكان المحاكمة ، فتمكن بذلك من أن يعكس صورة متكاملة لجانبى القضايا ـ الجريمة والعقاب ـ فى سبع دول مختلفة ، هى : الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وسويسرا وفرنسا وألمانيا، من البلاد الغربية ، وكذلك الاتحاد السوفييتى وبولندا، من بلاد المعسكر الشرقى .

وتختلف جريمة التجسس عن غيرها من الجرائم ، بأن العمل الذى تعتبره الدولة التى يتم التجسس لحسابها عملا وطنيا جليلا ، يعتبر فى الوقت نفسه جريمة من جرائم الخيانة التى يؤخذ فيها المتهم بأشد العقوبات وأقساها فى الدول التى يرتكب العمل ضدها .. وعلى الرغم من أن جميع الدول تصرف مصروفات باهظة على أجهزة مخابراتها السرية ، وأجهزة مكافحة الجاسوسية ، فقد جرى العرف الدولى على اعدام الجواسيس - عموما - فى زمن الحرب ، فى حين تجيز قوانين بعض الدول - ومن بينها الولايات المتحدة الأمريكية ودول المعسكر الشرقى - توقيع عقوبة الاعدام على الجواسيس حتى فى زمن السلم . ومن الأمثلة المشهورة على ذلك حكم الاعدام الذى أصدره القاضى الأمريكى ايرفنج كوفمان ضد الجاسوسين جوليوس وايثيل روزنبرج فى عام ١٩٥١ بعد ادانتهما فى قضية بيع أسرار القنبلة الذرية الى الاتحاد السوفييتى ، وقال القاضى كوفمان فى حيثيات الحكم : « ان أعمال الجاسوسية التى تكشفت عنها هذه القضية تتصف بطابع الخسة والقذارة ، مهما حاول مرتكبوها تبريرها بدوافع عقائدية ، وذلك لأنها تنطوى على حقيقة هامة تحجب كل ما عداها ... وهى خيانة الوطن » .

وبالرغم من أن قانون الأسرار الرسمية فى بريطانيا يحدد أقصى عقوبة لجرائم التجسس فى زمن السلم بالسجن لمدة لا تزيد على ١٤ عاما الا أن هذه العقوبة تزيد زيادة كبيرة بالنسبة للمتهمين بأكثر من عمل واحد من أعمال التجسس .. ومثال ذلك الحكم الذى أصدره كبير القضاة فى انجلترا عام ١٩٦١ على الجاسوس البريطانى جورج بلاك الذى وجهت اليه عدة اتهامات بشأن افشاء معلومات سرية هامة الى الاتحاد السوفييتى ، وقد أدانه كبير القضاة فى ثلاث من التهم الموجهة اليه وحكم عليه فى كل تهمة منها بالسجن لمدد متفاوتة ، بلغ مجموعها اثنين وأربعين عاما (ويعتبر هذا الحكم أقسى حكم نطق به القضاء البريطانى فى هذا

القرن ، خاصة اذا علمنا أن المحكوم عليهم بالسجن المؤبد فى بريطانيا قلما يقضون أكثر من اثنى عشر عاما فى السجن) ..

وقد أصبحت جرائم التجسس فى يومنا هذا أكثر تعقيدا مما كانت عليه فى العهود الماضية .. اذ كان الجاسوس يعمل فى الماضى بدافع لاأخلاقى ... هو المال . أما اليوم فاننا نجد أن المواطن الشيوعى فى الدول الغربية ـ مثلا ـ لا يتردد فى خيانة بلاده وافشاء أسرارها دون أن يحقق أى كسب مادى لنفسه .. وقد تبين هذا فى كثير من قضايا الجاسوسية الهامة ، مثل قضية آل روزنبرج فى أمريكا ، وقضية جاى بيرجيس ورونالد ماكلين من رجال وزارة الخارجية البريطانية اللذين فرا الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٥١ عندما شعرا بأن أجهزة مكافحة الجاسوسية فى بريطانيا بدأت تتعقبهما .

ومع هذا ، فان العالم لا يعلم كثيرا عن عمليات المخابرات السرية التى تقوم بها الدول الغربية ، حيث تحاط هذه العمليات بستار كثيف من الكتمان .. ويرتفع هذا الستار قليلا بين الحين والحين عندما يختل تنفيذ احدى تلك العمليات وتتعرض للفشل مثلما حدث فى قضية «الرجل الضفدع» ـ كوماندر ليونيل كراب ـ الذى كلف بالغوص سرا تحت الماء فى ميناء بورتسموث للكشف عن طبيعة السفن الروسية التى حملت المارشال بولجانين ونيكيتا خروشوف فى زيارتهما الرسمية الى بريطانيا عام ١٩٥٦ .. وقد عزت السلطات البريطانية اختفاء « الرجل الضفدع » فى ذلك الحين الى احتمال مصرعه وغرقه أثناء تأدية مهمته ، خاصة بعد العثور على جثة لرجل بدون رأس ، ترتدى ملابس الرجل الضفدع فى خليج بورتسموث .. ولكن ، تبين فيما بعد ، أن الرجل الضفدع ، قد وقع أسيرا فى أيدى الروس الذين دبروا القاء الجثة التى تم العثور عليها فى البحر ، وأبحرت السفن الروسية عائدة الى الاتحاد السوفييتى وعلى ظهرها الكوماندر كراب الذى بدأ يعمل فى خدمة الحكومة السوفييتية منذ ذلك الحين .

وكان حادث اسقاط طائرة التجسس الأمريكية « ى ـ ٢ » بقيادة الكابتن فرانسيس جراى باوزر فوق الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٠ من أخطر حوادث التجسس التى أثارت ضجة عالمية كبرى فى الآونة الاخيرة . وقد استغل الاتحاد السوفييتى محاكمة باورز العلنية استغلالا بارعا « حسب قول المؤلف الذى حضر هذه المحاكمة فى موسكو وبعث بأنبائها الى صحيفة الصنداى تايمز اللندنية » .

واختار المؤلف من قضايا التجسس السوفييتية قضية جوردون الونزديل المتهم ببيع أسرار القاعدة البحرية البريطانية فى بورتسماوث وقضية الكولونيل رودولف آيل فى الولايات المتحدة الذى تم تبادله مع الكابتن فرانسيس باورز بالاتفاق بين الحكومتين الأمريكية والسوفييتية فى فبراير عام ١٩٦٢ .

وقد وقع اختيار المؤلف على هاتين القضيتين بالذات لما تلقيانه من ضوء على الاساليب التى تتبعها المخابرات السرية السوفييتية فى ممارسة نشاطها فى أكبر دولتين فى الغرب ، وكذلك لوجود رابطة خفية كشف عنها التحقيق بين القضيتين ، اذ وجدت فى حوزة أحد المتهمين فى قضية أسرار البحرية البريطانية صورة فوتوغرافية للكولونيل آيل له عند القاء القبض عليه ..

وتختلف قضايا التجسس السوفييتية اختلافا جوهريا عن قضايا التجسس الغربية وذلك فى أن الحكومة الأمريكية ـ مثلا ـ بعد محاولات التنصل التى عمدت اليها فى بداية الأمر ، عادت واعترفت بمسئوليتها الكاملة عن حادث الطائرة « ى ـ ٢ » ، وكذلك الحال بالنسبة لقضية الرجل الضفدع التى أثيرت فى مجلس العموم البريطانى وسببت حرجا شديدا لحكومة أنطونى ايدن فى ذلك الحين ، أما الحكومة السوفييتية فقد أصرت دائما ـ وبدون أى استثناء ـ على انكار أية صلة لها بالجواسيس السوفييت الذين شاء حظهم العاثر أن يقعوا فى قبضة « الأعداء » ..

أما فيما يتعلق بأنواع الجرائم الأخرى التى تضمنها

الكتاب فقد كان لجرائم « القتل » نصيب الأسد ، اذ اورد المؤلف منها أربع جرائم ، اختارها لأنها تمثل أكثر الدوافع شيوعا لجرائم القتل ، وهى : الغيرة ، والخوف ، والطمع • واقدام المجرم على ارتكاب جريمة القتل بدون تدبير سابق أثناء ارتكابه لجريمة أخرى •• ومن بين هذه القضايا ، قضية المجرم البريطانى دونالد هيوم الذى حوكم أمام محكمة زيوريخ الجنائية لاقدامه على قتل سائق تاكسى أثناء فراره ، بعد قيامه بالسطو على أحد البنوك فى سويسرا وهى قضية فريدة فى نوعها لأن القاتل سبق أن حوكم بتهمة القتل أمام المحاكم البريطانية التى برأت ساحته لعدم كفاية الأدلة ، ولكن هيوم اعترف بعد ذلك على صفحات الجرائد بارتكابه الجريمة التى برأته المحكمة منها مطمئنا الى بعده عن طائلة القانون البريطانى الذى لا يجيز محاكمة المتهم مرتين على جريمة واحدة •• وهنا تتضح بعض نقاط الاختلاف الجوهرية فى التشريعات الجنائية المعمول بها فى بريطانيا وفى بقية الدول الأوربية ، فالقانون السويسرى يعتبر اعتراف المجرم بارتكاب الجريمة بعد تبرئته منها مبررا لقيام الدولة باستئناف الحكم واعادة محاكمته •• كما قرر القاضى السويسرى فى هذه القضية مبدأ قانونيا جديدا من نوعه فى مثل هذه الجرائم ، وهو مبدأ « التعويض » ، اذ حكم بأن تدفع جميع الأموال التى حصل عليها المتهم فى السجن ، ـ نظير نشر مقالاته فى الصحف ونظير عمله فى السجن ـ لزوجة القتيل وأولاده •

أما القضيتان الالمانية والفرنسية اللتان اختارهما المؤلف ، فكلاهما يتميز بالغموض الشديد الذى احاط بظروفهما ، فبالرغم من ادانة المتهمين فى كل منهما ، الا أن المتتبع لظروف القضيتين لايسعه فى النهاية سوى أن يتساءل فى قرارة نفسه : هل حكم المحكمة كان عادلا فى الحالتين ؟ • وتختلف قضية القتل الرابعة عن هاتين القضيتين فى أنه لا توجد أية ذرة من الشك فى ادانة المجرم البولندى فلاديسلاف مازوركيفتش فى ارتكابه ست جرائم قتل ••• وشروعه فى جريمتين

آخرين • ووجه الغرابة فى هذه القضية هو أن اختفاء ضحايا المجرم الستة ، واحدا تلو الآخر ، لم يثر أية غرابة أو تساؤل بين معارفهم الى أن أذيع أمرهم أثناء المحاكمة ••

وتتبقى بعد ذلك ، من القضايا العشر ، قضيتا التعيش من أعراض الفتيات ، واحدة منها وقعت فى أمريكا ، والأخرى فى بريطانيا وكلاهما من القضايا الذائعة التى كشفت عن مدى خطورة شبكات الاتجار بالرقيق الأبيض فى هذين البلدين •• أما القضية الأخيرة ـ قضية كاريل تشيسمان ـ فقد أثارت اهتمام العالم أجمع حيث ظل المتهم تشيسمان ينتظر تنفيذ الحكم عليه بالاعدام فى أحد سجون كاليفورنيا أثنا عشر عاما ، قام خلالها بمجهودات لم يسبق لها مثيل لالغاء الحكم عليه « وأوقف اعدامه تسع مرات بأمر المحاكم الأمريكية المختلفة الى أن واجه الموت فى حجرة الغاز بالسجن بعد أن تمكن من كتابة ثلاثة كتب ونشر عدة مقالات فى الصحف عن الحياة فى السجن ، وضعته فى قمة المؤلفين الامريكيين •• بل ان اكتابه بعنوان « الزنزانة رقم ٢٤٥٥ بعنبر الموت » ترجم الى أكثر من عشر لغات وأخرجت عنه هوليوود فيلما سينمائيا بالعنوان » وبلغت أرباح تشيسمان منه ما يربو على المائة ألف دولار •

ولعل حياة هذا المجرم التعس بالذات ، وطفولته النكداء التىكانت سببا فى توجيه ذكائهالخارق ومواهبه الفذة الى النزعات الاجرامية التى قادته الى حجرة الموت بالغاز ، توضح لنا مدى أهمية القراءات التى يتيحها لنا هذا الكاتب فى توضيح الحقيقة الكبرى التى يجب أن يستوعبها المجتمع الانسانى وهى أن المجرمين ـ مهما اختلفت ظروف المجتمع الذى يعيشون فيه ـ غالبا ما يكونون هم أنفسهم ضحية المجتمع فى سنيهم المبكرة ، وأن على المجتمع أن يعمد الى علاجهم وهم فى سن الطفولة، فهذا السن ـكما يقول تشيسمان فى أحد كتبه التى كتبها فى السجن ـ هو الفترة الوحيدة التى يمكن أن يصل فيها المجتمع الى جذور المشكلة الكامنة فى كيان الطفل ، ويسعى الى تقويمه •

حمدى حافظ

الفصل الأول

تشيسمان ـ كيف عاش ١٢ عاما بعد ادانته ؟!!

– ١ –

هنـــــاك تقليد قديم ، لم يفسر رسميا حتي الآن وهو يقضى بأن تنفذ أحكام الاعدام بغرفة الغاز فى سجن سان كونتين بكاليفورنيا صباح يوم الجمعة فقط، ولذلك تعتبر عملية الاعدام بالغاز التى تمت بعد الساعة العاشرة صباحا بقليل يوم الاثنين ٢٨ من مايو سنة ١٩٦٠ حالة استثنائية . كما أنها كانت حالة الاعدام الوحيدة التى أحيطت بضجة دعائية كبرى فى ولاية كاليفورنيا . أما بالنســـبة للضحية ، كاريل تشيسمان ، فيمكن اعتباره أفظع مجرم فى العصر الحديث ، فقد حكم عليه بالاعدام فى يونية سنة ١٩٤٨ ولكنه استطاع البقاء على قيد الحياة اثنى عشر عاما ظل يناضل خلالها فى معركته الباسلة ، ولكنها كانت الخاسرة من أجل البقاء ، وهو قابع بزنزانته فى « عنبر الموت » بسجن سان كونتينى .

فى عام ١٩٥٧ زرت هـذا السجن حيث رأيت غرفة الغـاز ، وهى غرفة ذات نوافذ من الزجاج ، يجلس فيهـا المحكوم عليـه بالاعدام فوق مقعد يقيد اليه باحزمة . وقد ثبتت بدعامات المقعد أوعية للخلط ، وأقماع وقفازات من المطاط ، وصابون ، وملقط ، ومقص ، ومنشفة ، بالاضـافة الى حبوب « سيانيد الصوديوم وحامض الكبريتيك » وتبلغ نفقات تشغيل هذه الأدوات البشعة نحو ١٥٠ دولارا ، أى أكثر من خمسين جنيها كلما استخدم هـذا الجهاز . و « عنبر » الاعدام الذى توجد فيـه غرفة الغاز يتسع لنحو ستين شخصا يشاهدون عملية التنفيذ بدعوة يرسلها اليهم مدير السجن ليكونوا شهودا . ولقد رأيت لافتة على أحد الأبواب مكتوبا عليها بحروف كبيرة : « ممنوع التدخين » .

وانتهى بى المطـــاف فى السجن الى « عنبر الموت » حيث سمح لى

بمقابلة تشيسمان والتحدث اليه ، وكان هذا بالنسبة لشخص أجنبي امتيازا استثنائيا لا يملك حق منحه حتى مدير السجن ، ولذلك حصلت على الترخيص للقيام بهذه الزيارة غير العادية من مدير عام السجون بسكارامنتو . ويتكون «صف الموت» من «دهليز» طويل تفتح عليه أبواب خمس وعشرين زنزانة في الطابق الاول ويشكل جناحا فرضت عليه حراسة مشددة وهو منفصل عن بقية السجن ، كما انه يقع فوق غرفة الغاز مباشرة ويتصل بها بسلم خاص . ولقد قال تشيسمان لي : انه منذ أدخل « صف الموت » رأى ستة وسبعين رجلا يمرون من أمام زنزانته في اتجاه السلم المؤدي الى غرفة الاعدام التي يطلق عليها اسم « الغرفة الخضراء » ولكن أحدا منهم لم يعد حتى الآن .

وكان تشيسمان رجلا نحيفا أسمر الوجه ، له شفتان غليظتان ، وعينان نفاذتان ، وتبين لي أنه حاد الذكاء واسع الادراك . وقد حدثني عن الكتب الثلاثة التي وضعها في أثناء وجوده بالسجن عن نفسه وعن حياته المنحرفة ، أولها كتاب « الزنزانة ٢٤٥٥ بعنبر الموت » وكان أكثر كتبه بيعا ، وقد ترجم الى تسع لغات أجنبية من بينها اللغة اليابانية ، وقد در عليه أكثر من مائة ألف دولار وحقوق التمثيل السينمائي .

ومن بين الأدوات الشخصية القليلة التي يسمح للمجرم المحكوم باعدامه بالاحتفاظ بها ، صورة فوتوغرافية لغرفة الغاز ، وحينما اطلعني تشيسمان عليها قال انه يخرجها بين حين وحين ويتأملها كلما هبطت جهوده الأدبية أو شعر بحاجته الى « الالهام » !

ولم يكن تشيسمان كمجرم محكوم عليه بالاعدام مجردا من العبقرية، فبعد أن أتم كتابه الثاني « التجربة بالمحنة » ونشر ، حظرت السلطات عليه وضع أية كتب أخرى ، وانما سمحت له فقط بكتابة المذكرات المتعلقة باستئناف الحكم وطلبات وقف تنفيذه . ولذلك سمح له بالاحتفاظ بآلته الكاتبة وأوراق الكتابة عليها في زنزانته ، وكانت هذه الأوراق تفحص كل يوم بدقة بحثا عن أية مادة مكتوبة لا تتعلق بقضيته .

ومع ذلك فقد نجح في كتابة كتاب من ٢٧٠ صفحة من غير أن يضبطه المسئولون ، ولقد صارحني بالطريقة التي وضع بها كتابه ، واحترمت رغبته فلم أعلنها الا بعد اعدامه .

قال أنه كان يضع مسودة تقريبية لعمل اليوم، بالاختزال، ويضيف عبارات قانونية أحيانا الى الكتابة المطولة بغية ابعاد الريبة اذا اكتشفت المذكرات المكتوبة بالاختزال في أثناء دورات تفتيش الزنزانة . وبمجرد

نقل المذكرات على الآلة الكاتبة ، كان يتخلص منها بوضعها فى «المرحاض» الذى فى زنزانته . أما فيما يتعلق بالكتابة على الآلة الكاتبة فقد وقع على اكتشاف هام. اذ تبين له أن رفع شريط الكتابة من الآلة وعدم الضرب بقوة على الحروف يمكنه من احداث أثر لهذه الحروف على ورق الكربون . ولكن الكتابة لاتقرأ الا اذا عرضت للضوء القوى. وبهذه الطريقة استطاع اكمال مسودة كتابه ، وكان يضع هذه المسودات بين أوراق الكربون الجديدة . ومع أن الحراس كانوا يفتشون علب هذا الكربون فانهم لم يرتابوا فى أمر المكتوب منها . ولما أتم السجين مسودة كتابه هربها الى الناشرين وصدر الكتاب بعنوان « وجه العدالة » .

وفى خلال السنوات التى أقامها تشيسمان فى « عنبر الموت » أبدى مقدرة فائقة ككاتب ذى أسلوب رائع فى الوصف ، ففى كتابه « الزنزانة ٢٤٥٥ بعنبر الموت » وصف تشيسمان كيف أن أحد زملائه المحكوم عليهم بالاعدام ، وقد أطلق عليه « الأحمر الكبير » قد واجه نهايته فى غرفة الغاز ، فقال :

الساعة ١٠٫٠٢ ، خرج الحراس على عجل ، وأدار أحدهم العجلة التى تغلق باب الغرفة بأحكام شديد ، وحملق الشهود الرسميون فى «الاحمر الكبير » من خلال النوافذ السميكة الزجاج لمراقبة ما يجرى بداخل غرفة الموت .

كان وجهه قناعا خاليا من كل تعبير ، وأشار مدير السجن للجلاد ، فاسرع هذا يدير مقابضه .

وسمع « الأحمر الكبير » صوت تساقط « حبات السيانايد » المميتة فى وعاء حمض الكبريتيك الموضوع أسفل مقعده ، وفى التو حدث التفاعل، اذ تولد غاز الهيدروسيانيك ، وتصاعد الى أعلى ولفه فى ضباب غير منظور .

واستنشق « الأحمر الكبير » الغاز مجبرا، وارتعش أنفه من الرائحة الحادة الحلوة الشبيهة برائحة الكمثرى . وابتلع ملء رئتيه من الأبخرة القاتلة . وبدأت حواسه تخذله ، وتولاه دوار شبيه بالاغماء ، وأخذ شعوره ينحسر مفسحا الطريق أمام الظلام النهائى . وبذل جهدا أخيرا يائسا للتخلص من قيوده . وتحجرت عيناه ، فلم تعودا تبصران ، لأنهما لن تبصرا بعد الآن . وسقط رأسه الى الأمام ولكنه لم يشعر بذلك ، فقد سقط بدوره فى وهدة معتمة لا قرار لها ، واستمرت عملية القتل عشر

دقائق ، وتشنج جسمه، ثم انتفض مرة واثنتين وثلاثا ، وأخذ قلبه يعدو، ويضرب كالمطرقة ، ثم تباطأت حركته رويدا ... رويدا ، وأخيرا توقف .

ورفع الطبيب الواقف خارج الغرفة (السماعة) من فوق أذنيه ، وأشار الى مدير السجن :

ـ لقد مات (الأحمر الكبير) .

لعل هذه كانت نهاية تشيسمان نفسه دقيقة فدقيقة في ذلك الصباح من شهر مايو سنة ١٩٦٠ باستثناء أن موته استغرق تسع دقائق بدلا من عشر ، كذلك فانه لولا الخطأ فى طلب رقم تليفوني من مكتب أحد قضاة الاتحاد بسان فرانسسكو ، لكان من المحتمل أن يرجأ اعدام تشيسمان تسعة شهور أخرى .

فى أثناء وجود تشيسمان على قيد الحياة ، كتب كثير عن هذا المجرم الأديب العبقري وكان معظم ماكتب عنه في شكل مقالات صحفية ، وكان الاتجاه فى معظم الأحوال ينحو الى أكثر من مجرد افتراض أن تشيسمان لم يحكم عليه بالاعدام بطريقة غير قانونية فحسب ، وانما كان بريئا من الجرائم التى أرسلته أخيرا الى غرفة الغاز ، أما فى كاليفورنيا فكان هناك كثيرون يظنون أنه قاتل ، أو يعتقدون ، بأقل تقدير ، أنه دفع بفتاة فى السابعة عشرة من العمر الى وهدة الجنون .

ولقد كانت هذه الانطباعات خاطئة خطأ تاما ، فالمعروف أن تشيسمان لم يقتل أحدا ، وان كان من المرجح أنه كان مذنبا فى جميع الجرائم التى اتهم بها ، بما فى ذلك جرائم السرقة مع التهديد بالسلاح ، والخطف ، والاغتصاب ، وغيرها من الجرائم الجنسية ضد النساء التي تعتبر انحرافات طبقا لقانون كاليفورنيا الجنائى ، ومن ناحية أخرى كان من المحقق أنه حوكم بطريقة تنطوى على الافتئات على حقوقه . وأن القانون اعتصر عصرا لادانته . ولا شك فى أن بقاءه فى احدى زنزانات سان كونتين اثنى عشر عاما دليل قاطع على مدى التأثير الذى أحدثته حججه على مختلف المحاكم التي درست هذه الحجج . وليس من شك أيضا فى أن الاشخاص الذين تعودوا على الاجراءات الجنائية البريطانية السريعة ، التى تقضى بوجوب تنفيذ حكم الاعدام فى مدى ثلاثة أسابيع من صدور الحكم أو رفض الاستئناف ما لم يتدخل وزير الداخلية فى الأمر ويرجىء التنفيذ ، سيدهشون لبطء القانون الامريكى وما يبدو فيه من غرابة وقسوة . الا أنه من العدل ألا يغيب عن البال أن محاكم الولايات المتحدة أرجأت اعدام تشيسمان فى ثمانى مناسبات منفصلة لا لأنها تريد تعذيبه ولكن لتأمين

حقوقه القانونية ، والنظر فى الالتماسات التى أرسلت بالنيابة عنه أو التى أرسلها هو بدأب واصرار · ومن ثم استطاع تشيسمان أن يحدث تأثيرا كبيرا على شعوب دول كثيرة مثلما أحدث هذا التأثير ـ وهو فى العقد الثانى من عمره ـ على الشرطة والقضاة والمصلحين الاجتماعيين ·

ولقد وصف طبيب نفسانى كان قد فحصه وهو فى الثامنة عشرة ، ما يبديه من تعال وزهو بأنه « تعويض عن احساسات كامنة من انعدام الأمن وانعدام الكفاية » · وليس من شك فى أن هذه المشاعر نبعت من تنشئته غيرالمرضية· اذ أنه كان وحيد أبويه ولذلكعمداه باسم «كارول»، ولكنه كان يمقت الهجاء النسائى ، ولذلك غير اسمه فيما بعد الى « كاريل » ·

ولما شب قليلا عن الطوق انتقل أبواه من مسقط رأسه « ميسورى » الى جنوب كاليفورنيا حيث شب فى « جلنديل » احدى ضواحى لوس أنجيلوس ، وكان أبوه يحصل على ما يكفى أود الأسرة بكل عناء · وحينما بلغ « كارول » التاسعة من عمره ، أصيبت أمه اصابة بالغة فى حادث سيارة انتهى بها الى شلل فى نصفها الأسفل فلم تستطع المشى ثانية ، أما « كارول » فكان يبدو معتل الصحة ، ناقص النمو ، وقد أصيب بأمراض كثيرة منها الربو والحمى الروماتيزمية واحتقان الأنف المزمن ؛ ولكنه استطاع تعويض نقائصه البدنية بالتفوق فى الدراسة ، مع أنه لم يكن محبوبا فى المدرسة اذ كان يميلللطغيان والغطرسة والمحاباة ، ولهذا لم يكتسب أصدقاء يذكرون ، وكان أصدقاؤه من الأشرار · وكانت أول مخالفاته ، كحدث منحرف ، سرقة المتاجر واقتحام الشقق والمنازل الخالية ·

وفى العقد الثانى ، برع « تشيسمان » فى سرقة السيارات التى كان يستخدمها للتنزه وحينما بلغ السادسة عشرة من عمره سرق سيارة ، وكانت تلك أول مرة تمتد اليه فيها يد العدالة والقانون · وعلى أثرالقبض عليه أرسل لمركز حجز الاحداث توطئة لفحصه طبيا · وفى حين كان فى الحجز استطاع الهرب بالوثوب من النافذة الى سيارة نقل ، وقاد السيارة الى الجدار المحيط بالمركز ، حيث تسلق هذا الجدار من فوق سقفالسيارة ولاذ بالفرار· وقد قبض عليه ثانية فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى وهو يحاول سرقة احدى الصيدليات حيث كدس أكوابا من السيجار فى وسط المتجر وحطم زجاجات من الويسكى سكبها على السيجار ·

وأعيد الى مركز الحجز ثانية ·وسرعان ما اكتشفت الشرطة أنه

مسئول عن سرقة سيارة أخرى • وسرقة متجر آخر فنقل الى معسكر الغاب ، ولكنه ما لبث أن هرب في مدى أسابيع قليلة ، وقبض عليه وهو يرتكب سرقة أخرى فأرسل في هذه المرة الى احدى مدارس الدولة الصناعية •

وبعد ثمانية أشهر ، أطلق سراحه بكلمة شرف ، ولكنه ما لبث أن أعيد الى المدرسة الصناعية بعد أسابيع قليلة لانه أخل بكلمة الشرف • وبعد ذلك بعام أطلق سراحه للمرة الثانية ، ولكنه ما لبث أن عاد الى عاداته المنحرفة القديمة • وقدم للمحاكمة من جديد متهما بسرقة السيارات ، ولأول مرة واجه حكما قاسيا بالسجن ، لتعدد سوابقه ، ولكنه قال للقاضي مؤكدا : انني مملوء باحساس من الاشمئزاز لكل ما هو اجرامي ، بما في ذلك نفسي ، لأنني رضيت أن أقع في حبائل الاجرام في أثناء سنوات نشأتي ولقد أثر هذا النداء في نفس القاضي حتى أنه أصدر أمره بوضع تشيسمان تحت الاختبار •

ووسع تشيسمان نطاق عملياته لتشمل السرقة المسلحة ، ولقد قال انه قصر أعمال السلب التي قام بها على القوادين والمقامرين وغيرهم من العناصر المعادية للمجتمع ولكن سجله يدل على أنه كان هناك أشخاص أبرياء بين ضحاياه • وحينما ضبط للمرة الثانية عشرة ، استطاعت الشرطة الايقاع به بعد أن أطلق النار على ساق شرطي • وفي هذه المرة صدر الحكم بسجنه ستة عشر عاما في سجن سان كونتين • ولقد كان سجينا نموذجيا فنقل بعد عامين الى شينو ، وهو سجن مكشوف يقع على مسافة تبلغ نحو أربعين ميلا من لوس أنجيلوس الذي يرسل اليه المسجونون الذين يتعهدون بعدم الهرب ، ولكن صاحبنا ما لبث أن فر من شينو في أواخر سنة ١٩٤٣ ، واختفى في لوس أنجيلوس الا أن الشرطة ما لبثت أن وقعت على أثره حينما كانت تبحث عن سيارة سرقها واخفاها فأعيد الى سان كونتين. وحينما سئل عن سبب فراره ، طلع على المحقق بقصة خيالية اذ قال انه قرر الذهاب الى ألمانيا لأنه اعتزم اغتيال هتلر ! وبعد أن أمضى أربع سنوات في السجن ، منها جزء في فولسوم ، وهو سجن عتيق مقبض بالقرب من سكارامنتو ، أطلق سراح تشيسمان أخيرا بكلمة الشرف ، وكان ذلك يوم ٨ من ديسمبر عام ١٩٤٧ •

وبعد ذلك بثلاثة أيام سرقت سيارة « فورد » لها مصباح كشاف على الجانب الأيسر من بيفرلي هيل • وقد تلقت الشرطة في مناسبات كثيرة في خلال الأسابيع التالية أن هذه السيارة رؤيت في « مناطق الأحبة » بضواحي لوس أنجيلوس بين مالبيو وباسادينا • وكان قائد السيارة

يطلق ضوء مصباحه الكشاف • وهو أحمر اللون ، كالضوء الذى ينبعث من سيارات الشرطة ، ويقف بجوار احدى السيارات المنتظرة ويسرق مامع العاشقين تحت تهديد المسدس • واطلقت عليه الصحافة المحلية ، لص الضوء الاحمر « وفى مناسبتين ارغم المرأة على الانتقال الى سيارته حيث ارتكب معها عملا جنسيا منحرفا • وقد ارغم احدى ضحاياه ، وهى فتاة فى السادسة عشرة اسمها « اليس ميزا » على التجرد من جميع ثيابها ما عدا حذاءها ، وبعدئذ قلبها على بطنها واعتدى عليها بوحشية • وقد أصدر المعتدى أمره الى زميل الفتاة ، وكان اسمه فرانك هلبرت ، بالانصراف مهددا اياه بمسدسه ، فاضطر للأذعان • وفيما بعد تركت الفتاة بالقرب من منزلها وقد تولاها اضطراب شديد حتى لقد قال الاطباء النفسيون ان انشطار الشخصية الذى اصابها فيما بعد واقتضى ادخالها الى احد مستشفيات الأمراض العقلية كان نتيجة مباشرة للمحنة التى مرت بها بسبب هذا الحادث •

وفى مساء اليوم التالى تلقت جميع سيارات دورية الشرطة فى منطقة ساحل ودوندو رسالة جاء فيها أن رجلين مسلحين سرقا متجرا محليا للثياب وهربا فى سيارة « فورد » رمادية اللون ، وسرعان ما وقعت احدى سيارات الشرطة على أثر السيارة « الفورد » وطاردتها • وبعد أن استمرت المطاردة العنيفة بسرعة سبعين ميلا فى الساعة فى شارع لوس أنجيلوس ، حاولت السيارة «الفورد» تجنب عائق في الطريق ، فانقلبت • وخرج من حطامها شابان لم يصبهما أذى وحاولا الهرب فى ممر جانبى فأطلق ضابط الشرطة عيارا ناريا للارهاب ، فاضطرا للتسليم • وتبين أن كليهما مجرم سبق الحكم عليه ، أحدهما يدعى دافيد كناولز ، صانع مكاتب فى لوس أنجيلوس ، وكان الآخر كاريل تشيسمان •

والى جانب كمية من الثياب وعدد من أوراق النقد المهشمة التى سرقاها من متجر الملابس ، عثرت الشرطة على مسدس أوتوماتيكى « عيار ٤٥ » فى السيارة المهشمة ، كما عثر بالسيارة أيضا على منديل أحمر كان معدا بحيث يمكن وضعه فوق المصباح الكشاف •

- ٢ -

كانت قائمة الاتهامات التى قدم تشيسمان للمحاكمة بسببها مكونة من ثمانية عشر اتهاما منها ثلاثة اتهامات بجرائم اختطاف بغية ارتكاب السرقة ، احداها السطو على حانوت الثياب فى ودوندو بيتش ، واثنتان

تتصلان بالجرائم التى ارتكبها ، لص الضوء الاحمر وقد طلب الاتهـــام تطبيق قسم « قانون لندبرج الصغير » من قانون عقوبات كاليفورنيا على الاتهامين الاخيرين • وقد صدر هذا القانون نتيجة للسخط العـــام الذى أعقب اختطاف ابن الكولونيل شارلس لندبرج من منزله فى نيوجرسى ، فأصدر الكونجرس تشريعا يجعل هذه الجريمة من الجرائم التى يعـاقب عليها بالاعدام ، ولكن تطبيق هذا القانون على جـرائم الاختطاف يتطلب قتل المجنى عليه عبر حـــدود احـــدى الولايات • وقد أدرج فى قانون كاليفورنيا الجنائى نص بتطبيق هـــذه العقوبة على المتهم « اذا حـــدث الاختطاف مع الاضرار البدنى وبغية السرقة » • وبهذا وضع المشرع سلاحا قاتلا فى يد رجال الشرطة يستخدمونه عند التصرف مع الاشخاص الذين يرتكبون جرائم السرقة • لان الشرطة تخيرهم بين الاعتراف بالسرقة البحتة أو تطبيق القسم رقم ٢٠٩ « قانون لندبرج الصغير » عليهم • ولقد قال تشيسمان ان الشرطة تركت له الاختيار بعد أن أشبعته ضربا وتعذيبا وحرمته من النوم وظلت تســـتجوبه الى أن خارت قواه ، ولكنه « رفض أسهل الطريقين للافلات » ومن هنا طلب الاتهام اعدامه •

الا أنه من حيث أن المتهم أرغم صاحب المتجر على التراجع ــ تحت تأثير المسدس ــ الى مؤخرة المتجر•• وسرقته ، فان القسم ٢٠٩ ينطبق فنيا على الجريمة ، بيد أنه من حيث تعلق الأمر « بلص الضوء الاحمر » فان جرائمه لا ينطبق عليها نص هذا القسم • صحيح ان اللص ارتكب حوادث سرقة فى معظم هذه القضايا ، ولكنه ــ بعد السرقة ــ أرغم النسوة عـلى الصعود لسيارته واعتدى عليهن ، وهكذا لم يكن الاختطاف توطئة للسرقة ولكن توطئة لارتكاب اعتداء جنسى ، وبالتالى لا يخضع « لقانون لندبرج الصغير » وعلى أية حال ، لقد اتهم تشيسمان باعتداءات جنسية ومحاولات اغتصاب تخضع لقســـم آخر من قانون العقوبات • الا أن المحلفين الذين استمعوا للقضية فى هذه الظروف لم يســـتطيعوا اجراء هذه التفرقة القانونية • ومن ثم لم يكن هناك شك فى أن تشيسمان حكم عليه بالاعدام لأنه اقترف جرائم جنسية اقترنت بسرقات ، وأن المحلفين حكموا بادانته فى اتهامات الاختطاف وهم يعلمون ان حكم الاعدام سيعقب ذلك آليا •

ومن المحقق أن سلطات لوس أنجيلوس خرجت على جميع التقـاليد لضمان اثبات اتهام تشيسمان بما يوقعه تحت طائلة عقوبة الاعدام • وكان القاضى الذى حوكم تشيسمان أمامه فى محكمة لوس أنجيلوس العليـــا « شارس و • فريك » مشهورا بأنه أكثر القضـــاة اصدارا لحكم الاعدام فى تاريخ كاليفورنيا • وكان ممثل الاتهام « ج • ميلر ليفى » يتفانى فى

الحصول على أحكام بالادانة · ولقد قال ليفى للمحلفين : « ان هذا الشاب معدوم الفائدة تماما ، فمنذ كان فى السادسة عشرة وهو يسىء استخدام كل امتياز منحه المجتمع اياه » · ومضى الاتهام يصف المتهم بأنه « مجرم عبقرى ، وشخصية ذات جانب واحد ، ومتجرد تجردا تاما من كل شعور اجتماعى » ·

وحين بداية المحاكمة ارتكب القاضى خطأ غير معقول وغير مفهوم من قاض ـ وان عرف بالصراحة ـ الا انه اشتهر بأنه محام جنائى حصيف · ولقد وقع القاضى فى هذا الخطأ حينما رفض طلب تشسمان الحصول على نسخة يومية من اجراءات المحاكمة على أساس أن الاتهام لم ينضم اليه فى هذا الطلب ، وكانت نتيجة هذا الحكم سيئة للغاية كما سيرى ، اذكان التأثير السريع أنه على أثر سماع كاتب المحكمةالرسمى بأنالتقرير اليومى المعتاد لم يعد مطلوبا قرر أن يؤدى المهمة فى وقت فراغه فى أثناء فترة المحاكمة ·

ولقد تعرفت الشاهدتان ، اللتان اعتدى عليهما ، السيدة رجنيا جونسون ، والآنسةمارى اليس ميزا ، علىتشيسمانوقطعنا بأنه لصالضوء الاحمر ، ومن ناحية أخرى أنكر تشسمان ـ الذى كان يتولى الدفاع عن نفسه ـ أنه كان الرجل الذى اعتدى على المرأة والفتاة ، وازاء هذا الانكار طالب الاتهام باستخدام حقه فى تقديم « الاعترافات » التى ادعى السجين بأنه أدلى بها فى أثناء استجواب الشرطة له ، وان كانت المبادىء الرئيسية فى القانونين الامريكى والانجليزى تقضىبأنه لا يجوز الادلاء بشهادةتتعلق بجرائم سابقة الا بعد ثبوت ادانة المتهم فيما يحاكم من أجله ، أما فى محاكمة تشسمان فقد سمح لمحققى الشرطة فى أثناء الادلاءبشهاداتهم عن أحاديثهم مع المسجون ، أن يصفوا كيف أنهم سألوه ـ حين الادلاء باعترافاته ـ عن ماضيه الاجرامى وما فيه من سرقات ومعارك مسلحة مع الشرطة وهروبه من السجن · وهكذا خلق التأثير فى ذهن المحلفين بأنهم يحاكمون مجرما خطيرا يحسن القضاء عليه نهائيا للمصلحة العامة · ولقد حاول الاتهام أيضا ـ ووافقه المحلفون على ذلك ـ أن يعطى لجريمة تشسمان حينما سرق السيدة جونسون والآنسة ميزا وأرغمهما علىركوبسيارته والاعتداء عليهما ، شكل جريمة الاختطاف للسرقة مع الاضرار البدنى وهى الجريمة التى تدخل فى نطاق « قانون لندبرج الصغير » ·

وفى يوم ٢١ من مايو ١٩٤٨ أصدر المحلفون ، وكانوا يتكونون من أحد عشر رجلا وامرأة ، قرارهم بأن تشسمان مذنب فى سبعة عشر اتهاما منثمانية عشر ، وذلك بعد مداولة استغرقت ثلاثيندقيقة · وطبقا

لما لهم من حقوق حددوا عقوبة الاختطاف والسرقة ، التى حدثت فى المتجر ، بالسجن المؤبد ، وبالاعدام بالنسبة لاتهامى الاختطاف الآخرين • وقد صدر هذا الحكم بعد أن أرسل رئيس المحلفين طلبا للحصول على «تعليمات اضافية » • وهناك قدر من الريبة بالنسبة لما حدث فعلا ، لان محضر جلسة المحكمة لم يتسم بالوضوح من ناحية هذه النقطة الا أن تشسمان ادعى فيما بعد أن القاضى قال ان المدعى عليه من أسوأ المجرمين الذين مثلوا أمام محكمته ، وأنه أوحى الى المحلفين باصدار حكم بالاعدام •

وبعد اصدار الاحكام ، أصدر القاضى أمره بتأجيل الجلسة خمسة أسابيع للنطق بالحكم ، وقبل التاريخ الذى حدده القاضى «فريك» بيومين مات كاتب اختزال المحكمة الرسمى « ارنست ر • بيرى » فجأة على أثر نوبة قلبية • وحين وفاة بيرى ، لم يكن قد كتب أكثر من ثلث اجراءات المحاكمة باللغة المطولة • ويقضى قانون ولاية كاليفورنيا بأنه يجب استئذان محكمة الولاية العليا بالنسبة لكل جريمة صدر عنها حكم بالاعدام كما يقضى بأن يشهد الكاتب الرسمى ، الذى أخذ المذكرات المختزلة ، بأن المحضر باللغة المطولة هو صورة طبق الأصل من النسخة التى كتبت بالاختزال •

ومن ثم فحينما جىء بتشسمان أمام القاضى «فريك» لاعلانه بالحكم ، دفع المتهم بوجوب الغاء هذا الحكم واجراء المحاكمة من جديد ، ولكن القاضى حكم برفض هذا الدفع على أساس أنه يصلح فى القضايا المدنية التى يموت الكاتب فيها قبل اتمام تسجيل المحضر (لقد رؤى أن هذا الدفع غير ضرورى فى الجنايات لان المعتاد أن يسجل محضر الجلسة يوما فيوما ، ولكن هذا لم يحدث فى قضية تشسمان كما رأينا) ولذلك أمر القاضى « فريك » بأن يتولى كاتب آخر أنهاء المهمة بالاستعانة بمذكرات بيرى •

ثم قرأ القاضى الحكم •• فبالنسبة للجرائم التى شملها حكم المحلفين حكم على تشسمان بخمسة عشر حكما بالسجن تنفذ على التوالى بحيث يتم تنفيذها سنة ٢٠٠٩ ثم كرر القاضى النطق بحكم بالسجن المؤبد وحكمين بالاعدام •

واستمع السجين الى هذه التلاوة غير العادية وهو يهز كتفيه ، وقال « اننى ما زلت مدينا بمائتين وستين عاما ، لاننى لم أحافظ على كلمة الشرف » • ثم استدار ليمضى الى : « صف الموت » •

- ٣ -

يقال ان قدرة تشسمان على البقاء على قيد الحياة لفترة الاثنى عشر عاما ، التى لم يسمح بمثلها من قبل · فى ظل غرفة الغاز ، ترجــع الى المهارة التى استطاع هو ومحاموه بها استغلال الثغرات والنقاط الفنيــة الموجودة فى النظام القضائى الامريكى · ولكن هذا الرأى خاطىء خطأ تاما لانه لم تكن بالقانون ثغرات ولا نقاط فنية فى قضية تشسمان · والواقع أنه لولا سوء تصرف القاضى فيما يتعلق بمحاضر الجلسات لأعدم تشسمان منذ أمد طويل ·

فأولا ، عين القاضى « فريك » عضوا من اتحاد كتاب لوس انجيلوس اسمه ستانلى فريزر ، لاتمام محاضر الجلسات بغير أن يسأل تشسمان ان كان لديه أى اعتراض على ذلك ، وكان فريزر هذا سكيرا مدمنا ، ولهذا امتنعت بعض المحاكم عن استخدامه ، وكان متزوجا من احدى قريبات وكيل النيابة ليفى · وفيما بعد شهد القاضى بأنه لم يكن يعلم شيئا عن هذه الحقائق فى ذلك الحين ، وأضاف انه حتى ولو كان يعلم بها لما كان لذلك أى تأثير على قراراه لانه يعلم أن فريزر كاتب كفء · والواقع أن فريزر ــ الذى حصل على ١٠٫٠٠٠ دولار أكثر مما يستحقه العمل الذى أداه ــ كان يكثر من مشاورة ليفى والقاضى الذى كان يزوده بالمذكرات التى كان يدونها فى أثناء جلسات المحاكمة · ثم ان اثنين من شهود الشرطة تقدما لايضاح الشهادتين اللتين أدليا بها · واستغرق اتمام محاضر الجلسات عاما ، وحينما أعلن القاضى « فريك » أخيرا قبوله لها فى المحكمة ، لم يكن حاضرا الجلسة غير ليفى وفريزر وكاتب آخر ، أما تشسمان أو محاميه فلم يحضراها ، وعلى أساس هذه المحاضر التى أدخل عليها أكثر من ألفى تعديل رسمى فيما بعد ، حكمت المحكمة العليا بولاية كاليفورنيا فى أواخر سنة ١٩٥٠ أوتوماتيكيا برفض التماس تشسمان · ولكن الحكم لم يصدر بالاجماع اذ خالفه القاضى جيبس كارتر ·

وكان المنتظر أن تصدر المحكمة العليا بالولاية أمرها فى هذه المرحلة باعادة محاكمة المتهم ، وترى بعض الدوائر أن عدم اصدار هــذا القرار مرجعه أن القضاة (باستثناء كارتر) شعروا بأن أية محاكمة ، جـديدة ستنتهى بتبرئة المتهم ، ثم أن بعض الشهود الرئيسيين ــ ومن بينهم رفيق مسز ريجنا جونسون فى السيارة ، الذى مات ، والآنسة مارى ميزا ، التى كانت تعانى من مرض عقلى حاد ــ كانوا بعيدين عن متناول اليد ·

وكانت السيدة روزالى آشر ، وهى محامية ضليعة ، قد بدأت تهتم

بالقضية أشد الاهتمام فساعدت تشسمان فى اعداد الوثائق القانونيـــة الضرورية لتقديم التماس الى المحاكم الفيدرالية ، ومنها الى المحكمة العليا للولايات المتحدة بواشنجتون • وفى ذلك الحين تقرر أن يتم اعــــدام تشسمان يوم ٢٨ من مارس ١٩٥٢ ، الا أن القاضى جيبس كارتر أصدر حكما ــ قبل موعد تنفيذ حكم الاعدام بوقت قصير ــ أرجأ فيه تنفيذ هذا الحكم حتى تتاح لتشسمان فرصة تقديم التماس للمحكمة العليا الفيدرالية لاعادة النظر فى القضية كلها • ولقد قال القاضى كارتر الذى خرج علـى اجماع قضاة المحكمة فى رفض التماس تشسمان فى ذلك « عندى أن هذا الحكم خروج على قوانين الاتحاد وكاليفورنيا ، لانه صدر استنادا الى محاضر غير كاملة ولا دقيقة »

وفى يوم ٢٣ من يونيو ١٩٥٢ ، أى قبل الموعد الذى كان محـــددا لاعدام تشسمان بثلاثة أيام ، أصدرت محكمة الاستئناف الفيدرالية بسان فرنسسكو قرارا بارجاء تنفيذ حكم الاعدام مرة أخرى لافســـاح الوقت لنظر الالتماس الذى قدمه المتهم معترضا فيه على عدم ســــماع محكمة الولاية لدفاعه وحرمانه من الوجود فى المحكمة فى أثناء نظر هذا الالتماس • وحينما رفضت هــــذه المحــكمة التماس المتهم ، لجأ الى محكمة الولايات المتحدة العليا • ونظرا لان تقديم الالتماسات لهذه الهيئة القضائية العليا يستغرق شهورا كثيرة ، فان المحكمة العليا لم تصدر قرارها برفض منح السجين حق المثول أمامها الا فى نهاية سنة ١٩٥٣ •

وفى أثناء الثلاثة عشر شهرا التالية ، صدرت ثلاثة قرارات بارجاء تنفيذ حكم الاعدام قبل موعد هذا التنفيـــــذ بساعات ، ليمكن البت فى التماسات المتهم • وفى تلك الاثناء كان تشسمان قد أصدر كتابه الاول « الزنزانة ٢٤٥٥ بصف الموت » الذى جعله شخصية دوليـــة ، وكان من نتائج هذا النجاح أن تمكن تشسمان من الحصول على المال ، الذى يمكنه ، من الحصول على مزيد من المساعدة القضائية • وهكذا اشترك المســـتر جورج دافيز ، وهو محام كبير اشتهر بعدائه لعقوبة الاعدام ، فى الدفاع عن تشسمان فى شهر أكتوبر ١٩٥٥ بعد أن صدر حكم المحكمة العليا فى واشنجتون بتولى أحد قضاة سان فرنسسكو البت فى موضوع الخـلاف حول محاضر الجلسات • وقد أصدر القاضى « لويس جودمان » حكما فى هذا النزاع مؤيدا للمحاضر (المرفقة) على الرغم من أن فريزر عجـز عن ترجمة أجزاء من المذكرات المكتوبة بالاختزال حينما طلب دافيز منـــه أن يفعل ذلك ، وحينئذ نقل محامى تشسمان القضية مرة أخرى الى المحكمة العليا فى واشنجتون •

وفي يوم ١٠ من يونيو ١٩٥٧ أصدر القاضي « هالان » من المحكمة العليا بالولايات المتحدة أهم حكم صدر في هذه القضية المعقدة المؤسفة ، فقد ذكر أن تشسمان « حرم من التمتع بحقه في الالتجاء للقانون » لمدة تسع سنوات وربما أكثر • ولذلك تقرر أن يعاد سماع أقوال المتهم أمام احدى محاكم ولاية كاليفورنيا على أن يحضر الطرفان الجلسة وأن يمنحا حق استدعاء من يشاءان من الشهود ، والبت نهائيا في موضوع صحة محاضر الجلسات ، وهكذا أعيد موضوع محاضر الجلسات الى المحكمة العليا نفسها بلوس انجيلوس التي تولت محاكمة المتهم أصلا قبل ذلك بنحو عشرة أعوام • وفي أغسطس ١٩٥٧ وافقت المحكمة العليا بولاية كاليفورنيا على « اعادة النظر » في حكمي الاعدام بعد البت في موضوع المحاضر •

كان هذا هو الموقف حينما قابلت تشسمان في سان كونتين بعد صدور حكم المحكمة العليا بكاليفورنيا بأيام قليلة ، وكان السجين يعلم أنه فاز بفترة جديدة من الحياة قد تطول الى نحو عامين أو أكثر ، ويشعر بأنه أتيحت له فرصة نهائية عادلة للخروج من « صف الموت » على قيد الحياة • فما الذي حدث ونسف هذا الأمل ؟

أولا : حدث أن تنحى القاضي «فريك » عن نظر قضية صحة المحاضر، فحل محله القاضي « والتر ايفانز » وفي يوم ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٧ نظرت المحكمة طلبا باجراء محاكمة المتهم من جديد ، واستغرق نظر هذه القضية أكثر من ثلاثة شهور أدلى في خلالها كثيرون من خبراء الاختزال بشهاداتهم بناء على طلب الاتهام والدفاع معا • فقرر الخبير الشاهد الذي استدعاه الاتهام أن « فريزر » فشل في ترجمة مئات من الرموزالتي سجلها «بيرى» واقترح اجراء نحو ألفي تعديل في المحاضر التي قبلها القاضي « فريك » في حين قال الشاهد الذي استدعاه تشسمان أنه من المحتمل تفسير كثير من الرموز التي سجلها « بيرى » وأن هناك رموزا أخرى محيت وكتبت بيد أخرى • وفي يوم ٢٨ من فبراير ١٩٥٨ أصدر القاضي « ايفانز » حكما بأن المحاضر صحيحة من ناحية المادة ، ولكنه أشار بادخال الالفي تغيير التي اقترحها الخبير الشاهد على المحاضر ، وفي الوقت ذاته رفض القاضي طلب اعادة محاكمة المتهم من جديد •

وقدم تشسمان بمساعدة محاميه جورج دافيز ، وروزالي آشر ، سلسلة من الالتماسات ضد محاضر الجلسات المعدلة ، وبعد أن رفضت جميع محاكم الولاية التماساته ، نجح في ايصال القضية لمحكمة الولايات

المتحدة العليا فى سنة ١٩٥٩ . وفى تلك الاثناء كان موعد تنفيـــذ حكم الاعدام ، الذى حـــدد له يوم ٢٣ من اكتوبر ١٩٥٩ ، قد اقترب ، فراح « دافيز » يستحث موكله على طلب الرأفة من محافظ كاليفورنيا الجديد المستر « بات براون » الذى عرف بعداوته لعقوبة الاعدام ، ولكن تشسمان الذى عرف بالغطرسة والتعالى رفض أن يفعـــل ذلك ، لانه كان قد كتب للمحافظ يبلغه أن يريد اما التحقيق أو الموت ، وقال لمحاميه . ان أية رأفة قد يعاملنى المحافظ بها ـ كأن يستبدل بحكم الاعدام السـجن مدى الحياة مع حرمانى من كلمة الشرف ـ لا تهمنى ، وفى الوقت ذاته أوضح تشسمان لمحاميه أنه حر فى أن يتصرف على النحو الذى يراه فى مصلحة موكله . ولذلك طلب « دافيز » من المحافظ أن يمنحه فرصة لمقابلتـــه وايضاح الموقف له . وقبل هذا طلب المقابلة يوم ١٥ أكتوبر .

وحين بداية المقابلة قال المحافظ « براون » أن تشسمان لم يلجأ اليه فى طلب الرأفة ، بل انه « بالعكس » صرح بأنه يسعى الى اعادة تحقيق القضية فقط وهذا مالا أستطيع الموافقة عليه وقال المحافظ : ان الأدلة على ادانة تشسمان حاسمة فان « الحقائق الوطيدة فى هـــذه القضية : ـ السرقات العمد ، والاعتداءات الجنسية ، واستخدام مسدس محشو ، أثرت كثيرا على تفكيرى » ثم أضاف المحافظ « كذلك لم يبد تشسمان أية علامات على النـدم واتسـم موقفه بالغطرسة والغضب من المجتمع وقوانينه » .

واستطرد المحافظ قائلا : انه وان كان يعارض فى عقوبة الاعدام الا أنه اتسم بالمحافظة على قوانين ولاية كاليفورنيا . ولذلك رفض أن يتدخل فى حكم الاعدام الذى صدر ضد تشسمان .

بقيت بعد ذلك المحكمة العليا بواشنجتون . وقبل حلول موعـد اعدام تشـسمان بيومين ، أصدرت المحكمة حكما بارجاء تنفيذ الأعدام ، وكان سابع ارجاء ، وذلك لتمكين السجين من تقديم التماس جديد . وقد قدم هذا الالتماس ورفض بعد ذلك بشهرين ، وبعد أن نظرت عدة محاكم فى الولاية التماسات المتهم أرجىء موعد تنفيذ حكم الاعدام الى ١٩ من فبراير ١٩٦٠ ، وحينما قدم التماس جديد للارجاء رفضـــته المحكمة العليا فى واشنجتون .

وبذلك كانت نهاية تشســـمان قد دنت هذه المرة . ولهذا ودع أصدقاءه فى « صف الموت » ونقل الى زنزانة صغيرة مجاورة لغرفة الغاز اعتادت ادارة السجن نقل المحكوم عليهم بالاعدام اليها ليلة تنفيذ الحكم

وقبل موعد التنفيذ بساعتين ظهر مدير السجن أمام زنزانة تشسمان وقال له : ان المحافظ أوقف تنفيذ الحكم ستين يوما ، وكان ذلك بناء على نصيحة وزارة الداخلية لأن الرئيس « أيزنهاور » كان على وشك القيام بزيارة الى أمريكا الجنوبية ، وكانت هناك معلومات تشير الى تدبير مظاهرات وشغب فى اثناء هذه الزيارة اذا نفذ حكم الاعدام فى غرفة الغاز على تشسمان . ولأول مرة فى تاريخ هذه المحنة الطويلة انهار الرجل المحكوم عليه بالاعدام .

وحدد يوم ٢ من مايو ١٩٦٠ لاعدام المتهم وفى حين كان « دافيز » يبحث عن موضوع لتقديم التماس جديد ـ اذ الواقع أن سجن موكله هذه الفترة الطويلة جدا مع انه محكوم عليه بالاعدام أمر يناقض الدستور الأمريكى ـ راح المحافظ « براون » يسعى أيضا لأرضاء ضميره فأحال موضوع عقوبة الاعدام الى لجنة قانونية خاصة ، واقترح المحافظ وقف عقوبة الاعدام لمدة ثلاثة أعوام ونصف عام ، ولكن اللجنة رفضت الاقتراح بأغلبية ثمانية اصوات ضد سبعة وحينئذ قال المحافظ : « لم يعد فى استطاعتى أن أفعل شيئا فى ظل القوانين القائمة بكاليفورنيا » .

وقبل الموعد المحدد لتنفيذ حكم الاعدام بيومين اثنين قدم المحامى « دافيز » لمحكمة كاليفورنيا العليا التماسا يطلب فيه الاستماع للمتهم ووافقت المحكمة على الاستماع فى الساعة الثامنة من صباح اليوم المحدد لتنفيذ الحكم ، وكان « دافيز » يتوقع رفض المحكمة لهذا الالتماس ولذلك أرسل التماسا آخر للقاضى « جودمان » يطلب فيه ارجاء تنفيذ الحكم وقال : انه سيناقش هذا الالتماس بعد ذلك فورا أمام قاض فيدرالى .

واجتمعت المحكمة العليا بالولاية فى الساعة الثامنة صباح يوم ٢ من مايو ، وفى الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين أبلغ كاتب الجلسة المحامى « دافيز » أن المحكمة رفضت طلبه بأغلبية أربعة اصوات ضد ثلاثة .

واستقل « دافيز » سيارته ومعه « روزالى آشر » وانطلقا بسرعة بالغة الى غرفة القاضى « جودمان » بالمحكمة وقالا له « اليك الأمر القضائى الذى أتيحت لك فرصة قراءته أمس . فعليك اصدار امر بوقف تنفيذ الحكم فورا » . واشار « دافيز » الى جهاز التليفون

الموضوع على مكتب القاضى وقال له : « هل تسمح سيادتكم بالاتصال بالسجن الآن » وكانت الساعة حينذاك ٩٫٥٥ .

وأمضى القاضى خمس دقائق فى مراجعة الأوراق التى أمامه وبينما كان عقربا الساعة يشيران الى الساعةالعاشرة اذ قال القاضى«جودمان» لكاتبه « صلنى بسجن كونتين » ثم تحول الى « دافيز » وقال : « سأمنحك ثلاثين دقيقة على الأقل وربما أكثر » .

وأبلغ الكاتب تعليمات القاضى ، الى سكرتيرته فى الغرفة المجاورة. فأدارت قرص التليفون – ولكنها طلبت رقما خاطئا – فاضطرت للذهاب الى غرفة وكيل كبير الكتاب للتأكد من صحة الرقم ، ومضى نحو دقيقتين قبل أن تعود السكرتيرة الى غرفتها وتطلب الرقم الصحيح، ثم حولت المكالمة الى القاضى .

وأصغى القاضى « جودمان » لمحدثه لحظات قصيرة ، ثم تحول الى « دافيز » وقال له : لقد سبق السيف العذل .. اعدم تشسمان »

وبعد سكتة قصيرة أردف القاضى « كان ينبغى ان تحضر مبكرا » .

– ٤ –

دخل تشسمان غرفة الغاز الخضراء بعد الساعة العاشرة بدقيقتين ، وكان يمزح مع الحراس ويودعهم وهو باسم ، وبعدئذ شدوا وثاقه الى المقعد . ثم أغلق الباب باحكام ولكن الستين شاهدا الذين كانوا يراقبون هذا القتل القانونى الرهيب كانوا قادرين على رؤية الرجل المحكوم عليه بالاعدام بوضوح من خلال النوافذ الزجاجية . وحول تشسمان راسه قليلا الى اليمين « وغمز » بعينه لمندوبى الصحف ودار بينه وبين احدى الصحفيات – وكانت صديقته – حديث بالشفاة ، وكأنما قال لها « كل شيء على ما يرام . ان الرباط محكم » واستمر فى حديثه من غير أن يسمعه أحد . وقد قالت المحررة « انه يودع المحامية روزالى » .

وفى بادىء الأمر جلس تشسمان منتصب القامة ، وكان شعره ممشوطا وقد ارتدى سروالا وقميصا أبيض مفتوحا عند العنق . وقبل أن تصل الساعة الى العاشرة والدقيقة الرابعة بثوان قليلة ، جذب

الجلاد المقبض فسقطت أقراص « سيانيد البوتاسيوم » في وعاء حامض الكبريتيك الموجود أسفل المقعد .

وبدات الأبخرة القاتلة تتصاعد ببطء وتملأ الغرفة ؛ ولكن رباطة جأش تشيسمان لم تفارقه . فاستطاع أن يقهقه بما يشبه الضحك . ثم تنفس بعمق فملأ السم رئتيه ، وسقط رأسه الى الخلف ، وبدأ اللعاب يسيل من فمه المفتوح . وفي الساعة العاشرة والدقيقة التاسعة ارتعش كتفاه قليلا ، وفي الساعة العاشرة والدقيقة الثانية عشرة أعلن موته رسميا .

وهكذا . . انتهت المعركة القانونية المريرة التي استمرت اثني عشر عاما والتي اندمجت مراحلها الأخيرة في النضال الأكبر ضد عقوبة الاعدام . وبعد تنفيذ حكم الاعدام في تشيسمان مباشرة ، أفضى « فرد ديكنسون » مدير سجن سان كونتين في مؤتمر صحفي بطرف من الحديث الاخير الذي دار بينه وبين تشيسمان ، والذي طلب منه تشيسمان فيه أن يؤكد مرة أخرى انه لم يكن « لص الضوء الاحمر » . وأضاف قائلا : « لقد أدانت كاليفورنيا رجلا خاطئا ورفضت باصرار الاعتراف بامكان وقوعها في الخطأ وتصحيحه . وفي الوقت المناسب سيرى العالم الدليل على هذه الغلطة الوحشية ، ويومذاك لن تشعر كاليفورنيا بأي فخر ازاء هذه الغلطة » . وقال تشيسمان أيضا لمدير السجن . « انه يأمل في أن تساعد المساهمة التي قدمها ، في الغاء عقوبة الاعدام » .

وقبل ذلك بعدة سنوات ، حينما كان تشيسمان يشعر بأن موته وشيك ، أعد تصريحا للصحف ، وقد روجع هذا التصريح أخيرا وقدم لصحيفة محلية واسعة الانتشار فنشرته . وفي هذا التصريح يطلب تشيسمان من العالم التفكير في الفائدة التي ترتبت على اعدامه . ورد على الحجة القائلة بأن عقوبة الاعدام تطبق على الذين لا يمكن اصلاحهم بأن تشيسمان الذي أرسل الى « صف الموت » قبل اعدامه باثني عشر عاما وتشيسمان الذي أعدم في غرفة الغاز يوم ٢ من مايو ١٩٦٠ « كانا شخصين مختلفين » .

وابدى أسفه لأنه اضاع طفولته هباء ، ولكنه كان يشعر بأنه كان قادرا على التعاون ، وفي رأيه أن الطفولة هي مرحلة وقف الجريمة

والاصلاح ، واضاف « ان فى الامكان الوصول الى الصبيان وتغييرهم ؛ وتلك المهمة التى ينبغى على المجتمع ان يحققها » .

ومن بين الرسائل التى كتبها تشيسمان قبل اعدامه بساعات قليلة ، ووزعها مدير السجن بعد ذلك ، رسالة لمحرر صحفى فى سان فرنسسكو واخرى لمحاميه المخلص « جورج دافيز » وفى الرسالة الأولى صرح تشيسمان بأنه لا يعتبر نفسه بطلا ولا شهيدا ، بل بالعكس ، لقد كان « أحمق مختلط التفكير » يدرك ادراكا تاما طبيعة سنوات تمرده الاولى ونتائجها . . واضاف « كنت أريد الحياة ، وكنت أومن بأننى قادر على تقديم خدمة جليلة للأدب والمجتمع بكتاباتى ، وقررت أن أرد الجميل لشعوب الدول الكثيرة التى دافعت عنى ، وآمنت بأن كاريل تشيسمان انسان ، ولكن : كنت أشعر بالارتياح العظيم لو اننى عشت لأثبت لهذه الشعوب صدق حكمها »

وكتب للمحامى « دافيز » يقول : « لقد انتهى صراعى . أما صراعك فلم ينته بعد ، فسيستمر الاجراء الهمجى غير المفهوم « عقوبة الاعدام » وسيسير رجال آخرون فى مجتمعنا الى غرفة الاعدام — لكن الى متى ؟ الى أن يدرك شعب هذه الولاية وهذه الدولة ما فى هذه العقوبة من تفاهة . الى ان تدرك هذه الشعوب أن عدالة القصاص ليست عدالة على الاطلاق . اننى أموت وكلى أمل فى أن تسهم قضيتى وموتى فى اذكاء هذا الادراك وتحقيق هذه الغاية . اننى أعلم انك ستبذل قصارى جهدك — كمواطن ومحام — لاقناع زملائك بأن العدالة لا تخدم، ولكنها « تهوش » بالثأر والجلادين ، وانى أتمنى لك حظا سعيدا .

الفصل الثاني

جوردون لونسديل وجواسيس البحرية

- ١ -

« ان هذه القضية مليئة بالمؤامرات بطبيعتها ، ويمكنكم أن تقولوا انها تتميز بذلك الطابع المعروف عن الروايات الخيالية »

كانت هذه هى الكلمات التى قالها كبير القضاة فى انجلترا «اللورد باركر » وهو يوجز للمحلفين الأدلة فى أهم قضية جاسوسية نظرت فى « أولد بايلى » منذ محاكمة جواسيس القنبلة الذرية فى أثناء الحرب « الان فان ماى وكلاوس فوش » وقد وجه الى المتهمين فى هذه القضية، مثلما وجه للمتهمين في القضيتين السابقتين ، الاتهام بالتآمر معا لنقل معلومات سرية يمكن أن تفيد عدوا مرتقبا ، هو دولة أجنبية ، هى ـ على وجه التحديد ـ الاتحاد السوفيتى وذلك من غير ترخيص ٠

لقد وقع ضباط الأمن البريطانى على أول دليل حينما بدءوا يفحصون حياة « هنرى فردريك هوفتون » الخاصة ، هو موظف مدنى فى الخامسة والخمسين من عمره وكان من قبل من موظفى البحرية الملكية ، ثم الحق كاتبا بالوحدة الاضافية للأصلاح بميناء بورتلاند . وفى فبراير ١٩٦٠ أبلغ موظف من زملائه فى هذه القاعدة شرطة « دور ستشاير » أنه يشعر بالارتياب فيه ٠ وقال هـذا الزميل ان مرتب « هوفتون » نحو ١٤ جنيها فى الاسبوع بالاضافة الى معاشه الصغير من البحرية ومع ذلك فان « هوفتون » ينفق ، بأقل تقدير ١٥ جنيهـا كل اسبوع فيما يشترية من « ويسكى » بالأماكن العامة المحلية ، ثم انه كان بسبيل شراء سيارة جديدة وقد أجرى فى منزله وأثاثه تحسينات

كلفته مبالغ طائلة مع انه لا يملك أية موارد خاصة . فمن اين كانت تأتيه هذه الأموال الوفيرة التى تمكنه من هذه الحياة البذخة ؟

وكانت الشرطة تتلقى بلاغات كثيرة مماثلة من جيران غيورين ، وكان كثير من هـــذه البلاغات لا يســتند الى أساس . ومع ذلك فان الشرطة ــ كاجراء روتيني ــ لا تهمل هـــذه البلاغات ، وانما تفحصها . وقد تبين من التحرى أن « هوفتون » ينفق نقودا أكثر جدا مما يسمح له به مرتبه المحدود ، كما لوحظ انه يقوم برحلات منتظمة الى لندن وأبلغت شرطة «دورستشاير» هذه المعلومات لمركز شرطة «متروبوليتان» باسكتلانديارد حيث أحيل الموضوع الى القسم المخصوص . وهكذا اثيرت الريبة . وقرر القســم المخصوص الالتجاء الى منظمة مكافحة الجاسوسية التابعة للحكومة .

كانت الخطوة الأولى فحص سجل خدمة « هوفتون » وتاريخه السابق ، وتبين إنه التحق بالبحرية كفلام . وسرح سنة ١٩٤٥ بعد أن قضى ثلاثة وعشرين عاما فى الخدمة . وانه ابدى امتيازا فى الحرب الاخيرة فقد خدم فى البحر الأبيض ومع القوافل الروسية ، وانعم عليه بعدد من النياشين ، وعلى أثر خروجه من خدمة البحرية عين فى وظيفة كاتب مؤقت فى منشأة البحرية على الشاطىء فى « جوسبورت » وبعد خمسة أعوام أصبح موظفا مدنيا ثابتا فى الكادر الكتابى ، وفى سنة ١٩٥١ عين موظفا في هيئة الملحق البحرى البريطانى فى «وارسو» وعاد الى بريطانيا فى خريف سنة ١٩٥٢ حيث الحق بمنشأة الأدميرالية للأسلحة تحت الماء في بورتلاند ، وكما يوحي اسمها فان معظم العمل الذى يجرى فى هذه المنشأة سرى ، وكان « هوفتون » قد وقع التعهد المألوف الذى يتطلبه قانون الاسرار الرسمية الذى يطالب جميــــع موظفى الحكومة ، الذين يؤدون اعمالا سرية ، بتوقيعه .

وكان من بين الموظفين الذين وقعوا على هذا التعهد امرأة فى أواخر العقد الرابع من عمرها اسمها « اثيل اليزابيث جى » التى عملت أولا فى قسم المخازن ، ومنذ أوائل سنة ١٩٥٥ الحقت بمكتب الرسم التابع لقسم الســجلات ، ومع أن وظيفتها كانت صغيرة الى حد ما الا أنها كانت تستطيع الاطلاع على الوثائق السرية ، وتدوين خط سير كل وثيقة .

وقضى « هوفتون » أكثر من خمس سنوات فى منشأة أسلحة

تحت الماء . وفى أثناء هذه الفترة أصبح صديقا للآنسة « جى » واستمر على اتصال بها بعد نقله الى وحدة الاصلاح الثانوية بالميناء . وأخيرا خطبها توطئة للزواج منها .

وبوصفه الموظف الكتابى الوحيد فى وحدات الاصلاح كان مسئولا عن تلقى وتوزيع وحفظ الأوراق المتصلة بالوحدة ، ومن بين الوثائق الأخرى ، كان يمكنه الاطلاع على أوامر اسطول الأدميرالية ورسوماتها فضلا على النشرة السرية المعنونة « خصائص البوارج الحربية » .

وتقررت مراقبة حركات « هوفتون » وخطيبته . وبعد أربعة شهور حصل رجال خدمة مكافحة التجسس على نتائج ايجابية . ففى الساعة ٣ر٢٠ مساء يوم ١٩ من يوليو ١٩٦٠ رؤى « هوفتون » فى بهو فندق « كمبرلاند فى حى الويستاند بلندن ، وبعد دقائق قليلة انضمت اليه الآنسة « جى » وبعدها بقليل أيضا خرج الاثنان معا واستقلا ترام تحت الأرض الى محطة واترلو وفى واترلو بدا عليهما التردد كأنهما لايعلمان أى الطرق يسلكان ، وسمع « هوفتون » يقول لخطيبته : « دعينا نذهب لمحطة الخط الرئيسى وهناك نعلم أين نحن » .

وتبعهما رجال الشرطة ، وحينما وصلا الى محطة الخط الرئيسى سارا فى طريق واترلوا حيث سمع « هوفتون » يقول « هذا هو الطريق الذى سلكناه فى المرة الأخير »

ومضيا فى اتجاه مسرح « أولد فيك » وتوقفا عند تقاطع طريق مواجه للمسرح ، حيث لحق بهما رجل آخر يبدو أنهما كانا يعرفانه معرفة تامة . وكان هذا الرجل فى منتصف الحلقة الرابعة ، اسمر البشرة ، متوسط البنيان ، له مظهر الاجنبى . وأخذ الثلاثة يسلكون مختلف الشوارع الجانبية وأخيرا عادوا الى طريق واترلوا . وفى أثناء سيرهم رؤى الرجل الثانى وهو يعطى « هوفتون » رقعة من الورق الأبيض يبلغ حجمها نحو ٤ × ٣ بوصات وحينئذ ترك «هوفتون» الآنسة « جى » والرجل الآخر اللذين كرا عائدين الى حيث تقابلا أولا عند مسرح « اولدفيك » فجلسا فوق مقعد فى حديقة عامة .

وبعد ذلك بنحو نصف ساعة لحق « هوفتون » بهما وكان يحمل حقيبة خفيفة بها « طرد » سلمه للرجل الثانى ، وجلس الثلاثة يتحدثون معا نصف ساعة أيضا ثم انصرف الرجل فى حين عاد « هوفتون » والآنسة « جى » الى فندق «كمبر لاند» سالكين طريقا تحت الارض ، أما

الرجل الثاني فقد عاد الى حيث ترك سيارته سالكا طريقا ملتويا ، وكان لايفتأ يتلفت خلفه ليرى أن كان هناك من يتعقبه ، وأخيرا مضى الى شقة فى « هوايت هاوس » بريجنت بارك » استأجرها باسم « جوردون لونسديل ».

وكشفت التحريات التالية أن الرجل الذى يطلق على نفسه « لونسديل » كان قد وصل الى انجلترا في مارس سنة ١٩٥٥ مستخدما جواز سفر كنديا يحمل اسمه ، وفيما بعد سجل اسمه كطالب يريد تعلم اللغة الصينية بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن . وقد صرح لأحد الأصدقاء بأن سبب تعلمه اللغة الصينية هو انه يأمل فى الحصول على وظيفة بمؤسسة تتاجر مع الصين الشيوعية. ولكن هذه الوظيفة لم تظهر فى عالم الوجود ، الا أنه أصبح فيما بعد مديرا لشركة تصنيع آلات الصمغ ولكن شركة الات الصمغ ما لبثت أن واجهت مصاعب مالية وافلست حين بدأ رجال مكافحة الجاسوسية يراقبون « هوفتون » وكان معروفا أن لونسديل يقوم برحلات كثيرة للقارة ، وكانت هناك أسباب كثيرة تدعو للاعتقاد بأن اسمه الحقيقى لم يكن « لونسديل » وأنه لم يكن كنديا وانما كان مواطنا سوفيتيا (١)

وكانت القصة التى اعتاد «لونسديل» ترديدها على مسامع أصدقائه العرضيين ومعارفه فى انجلترا أنه نشأ فى كندا فى رعاية عمته ، وأنه قضى عددا من السنين كعامل قطع أخشاب ، قبل أن يعبر الأطلنطى . فى حين كان بقية العمال يذهبون الى أقرب مدينة لينفقوا كل مامعهم من نقود فى الشراب . اقتصدت جميع نقودى حتى أستطيع السفر ومشاهدة العالم ، وكان « لونسديل » جذابا فى نظر النساء ولهذا كان له عدد من الصديقات .

وقد قالت له احداهن ذات مرة : « ان لك ملامح الرجل

---

(١) تقول احدى الروايات ان اسم « لونسديل » الحقيقى هو « فاسيلى فاسيليفتش باخوموف » وأنه ولد في سمرلنك وهو ابن بلشفى قديم . أما زوجته التى قابلها في أثناء عمله في الادارة الخارجية بالمركز العام للخدمة السرية بموسكو فكانت جالينا بتروفنا شوبينا (انظر كتاب ج. بمنارد هاتون : مدرسة الجواسيس ص ١٢٢٠ وانظر ايضا كتاب برنارد نيومان « عالم الجاسوسية ص ١٧ » فقد ورد في هامش هذه الصفحة أن أحد رجال المخابرات الامريكية تعرف على « لونسديل » وقال أنه « كونوت مولودى » الذى ولد في موسكو وأقام في الولايات المتحدة لمدة سنوات وهو غلام ثم عاد الى روسيا ليؤدى خدمته العسكرية ومنها اشتغل بأعمال الجاسوسية .

السلاف » ، فأثارت هذه الملاحظة ثائرة « لونسديل » وصاح : كلا . كلا لا تقولى هذا فاننى كندى . هل فهمت ؟ كندى .

ومع أن « لونسديل » كان يسافر بجواز سفر كندى ، ويحمل شهادة ميلاد كندية باسم جوردون ارنولد لونسديل المولود فى اونتاريو سنة ١٩٤٢ ، الا أنه من المحقق أن جوردون لم يحمل الجنسية الكندية فى اى وقت . وقد دلت تحريات الشرطة فى تورنتو على ان « جوردون ارنولد لونسديل » الحقيقى رحل الى فنلندا وهو طفل مع أمه وبعض اقاربه وذلك بعد طلاق أبويه ، وهناك اختفى . وليس معروفا على وجه التحقيق كيف استطاع « لونسديل » أن يدعى دخول كندا ، الا أن المظنون انه فعل ذلك بطريق غير مشروع عن طريق ميناء « فانكوفر » فى اواخر سنة ١٩٥٤ بعد أن وصل الى هناك قادما من بولندا ، واستطاع ان يحصل على صورة من شهادة الميلاد من مكتب الاحصاءات بتورنتو ، وفيها أن « جوردون ارنولد لونسديل » ولد فى كوبالت بتورنتو ، يوم ٢٧ من أغسطس ١٩٤٢ ، وبهذا المستخرج الرسمى قدم طلبا للحصول على جواز سفر كندى وحصل عليه ، وبعد أن قضى أسابيع قليلة فى أحد المنازل المؤثثة بفانكوفر حيث قررت صاحبة هذا المنزل أنه « كان هادئا جدا ، نظيفا ، وحيدا دائما ، لا يتكلم كثيرا مع أحد » رحل الى شلالات نياجرا ، ومن هناك دخل الى الولايات المتحدة ، وبعد قليل أبحر الى انجلترا . ولما انقضت خمس سنوات جدد جواز سفره الكندى فى لندن ، وقال ان محل اقامته فى فانكوفر . وفى تلك الأثناء جاز اختبارا لقيادة السيارات فى بريطانيا .

وفى يوم ٦ من أغسطس ١٩٦٠ رؤى « لونسديل » و « هوفتون » وهما يتقابلان أمام « اولدفيك » ولم تكن معهما الآنسة « جى » فى هذه المرة . وسار الرجلان معا فى شارع لورمارش حيث دخلا مقهى صغيرا ، وجلسا حول أبعد منضدة عن الباب . فاحتل المنضدة المجاورة اثنان من رجال مكتب مكافحة الجاسوسية حيث أمكنهما أن يسمعا قدرا كبيرا من الحديث الذى دار بين « هوفتون » و « لونسديل » .

قال « لونسديل » وهو يتأمل قصاصة صحفية قدمها له « هوفتون » وكانت خاصة « بمارتن » و « وليامز » الموظفين بالحكومة الامريكية واللذين قيل انهما هربا الى الاتحاد السوفييتى .

— شد ما أعجب ! هل هذه القصة صحيحة ؟

وأجاب هوفتون : نعم . انا واثق من فرارهما .

وبعد صمت قصير قال « لونسديل » : يبدو أن معك الكثير فى الحقيبة ؟

فأجاب زميله : نعم . معى أكثر من ثوب نومى وأدوات حلاقتى .

ـ ان الجيب يبدو منتفخا . لكأنني سأعمل كثيرا !!

فأجاب هوفتون ضاحكا : كثيرا .

وتناقش الاثنان بعد ذلك فى اجتماعاتهما المستقبلة . فقال لونسديل :

ـ ستكون هذه الاجتماعات فى أول يوم سبت كل شهر ، وبالأخص السبت الأول من شهرى اكتوبر ونوفمبر ، وذلك فى ايستون ، وسيجلس قائد السيارة فى سيارة بالمنطقة ، ولو أننى لا أعرف أين . ولكن من المحقق أننى سأكون هناك ، وعليك أن تستخدم مترجما ، فابحث عنه .

فقال هوفتون : ان غرفة الفندق تكلف كثيرا .

فأجاب لونسديل مؤكدا : سينظر فى هذا الأمر .

وحينئذ قال هوفتون انه سيقابل فتاة من جنوب افريقية فى تلك الليلة ، واستعلم من لونسديل ان كانت اتصالاته تمكنه من العثور على عمل لهذه الفتاة ، فأجاب لونسديل بأن عليها أن تبدأ من البداية أولا .

وقبل أن يغادرا المقهى قال هوفتون للونسديل : لا أريد الدفع الآن.

وفى طريق عودتهما الى شارع واترلو ، توقفا عند قمرة تليفون حيث ترك لونسديل الباب مفتوحا فى حين دخل هوفتون القمرة ، ورؤى هوفتون وهو يخرج لفافة من حقيبته ويضعها فى صحيفة مطوية قدمها له لونسديل . وبعدئذ أعاد هوفتون الصحيفة بمحتوياتها الى لونسديل .

وبعد ثلاثة اسابيع رؤى لونسديل فى فرع مصرف ميلاند بشارع جريت بورتلاند وهو يحمل حقيبة سفر صغيرة بنية اللون ، اودعها المصرف ، ثم رحل الى الخارج لعدة اسابيع . وفى أثناء غيابه قامت سلطات الأمن باستصدار أمر تفتيش وفحصت الحقيبة فتبين أن بها مجموعة غريبة من الأشياء : ولاعة منضدة رومانية ، وحقيبة صغيرة بها آلة تصوير (طراز براكتينا) وعدسة مكبرة ، وفيلمان ، وبعض أشياء اخرى . ولم تكن هذه

الأشياء فى مجموعها بالتى تستحق أن يودعها العميل العادى فى مصرف قبل ذهابه الى القارة فى عطلة .

واسترد « لونسديل » الحقيبة من المصرف يوم ٢٤ من أكتوبر ، ورؤى بعد ذلك وهو يستقل الترام من بيكاديلى سيركس الى محطة رويسليب مانور ، حيث نزل وسارع فى اتجاه جرانلى درايف ، وكانت هذه أول مرة يشاهد فيها فى هذه المنطقة .

وفى يوم السبت ٥ من نوفمبر ذهب « هوفتون » الى لنـــدن من دورست بالسيارة وتتبعته الشرطة الى ديتون رود ، حيث انضم اليـــه «لو نسديل» . وركب الاثنان سيارة «هوفتون» وقد رؤيت السيارة فيما بعد وهى تقف فى جزء مظلم جدا من الطريق . وفيما بعد عاد الاثنان الى ميبول ودخلاه . وحينما غادراه فى النهاية ، كان « لونسديل » يحمل حقيبة أوراق سوداء اللون لم يكن يحملها حين دخوله .

وفى المساء نفسه ، وبعد افتراق الرجلين ، ذهب « لونســـديل » بسيارته « الاستوديوبيكر » الى رويسليب وهناك قضى الليلة فى المنزل رقم ٤٥ بشارع كرانلى . وقد رؤى وهو يغادر هذا المنزل بعد ظهر اليوم التالى .

وكان هذا المنزل مسكنا ريفيا نموذجيا توجد ألوف مثله فى ضواحى لندن ، وله جراج وحديقة صغيرة ولكن المدهش أنه لم يكن به (ايريال) بتليفزيون .

ولقد دلت تحريات الشرطة على أن سكان هذا المنزل زوجان يحملان اسم بيتر وهيلين كروجر وقيل ان الزوج تاجر كتب أثرية .

جاء الزوجان كروجر الى انجلترا أول الامر فى ديســـمبر ١٩٥٤ ، وكانا يحملان جوازى سفر نيوزيلنديين صدرا من قنصـــلية نيوزيلندا بباريس يوم ٣ من مايو ١٩٣٤ الى بيتر جون كروجر والسيدة هيلين جويس كروجر ، وقد تبين فيما بعد أن حاملى هاتين الوثيقتين حصلا عليهما باستخدام شهادات ميلاد مزورة وشهادة زواج مزورة أيضا . وفى بادىء الامر أقام الاثنان فى فندق صغير ، ثم انتقلا الى منزل مؤثث فى كاتفورد، وأخيرا ـ أى فى نحو نهاية ١٩٥٥ ـ انتقلا الى منزل ريفى أنيق له مدخلان وبه تدفئة مركزية بشارع كرانلى نورايف برويسليب ، اشترياه من موظف هندى سابق .

وكان « بيتر كروجر » ملما الى حد ما بالكتب الأثرية ، وبخاصة تلك المتعلقة بأمريكا الشمالية ، ولذلك استأجر متجرا مقابلا لكنيسة سانت كليمانت ، للتعامل فى الكتب الأثرية المستعملة • وكان يحرص على حضور المزادات ، وكثيرا ماكان يشاهد فى غرفة البيع وما لبث آن عرف فى المهنة بوصفه مشتريا • ثم انضم الى اتحاد الكتاب القومى ، وتقدم بطلب للانضمام الى اتحاد باعة الكتب الأثرية الدولى • وكان يعلن عن تجارته كل اسبوع فى صحيفة المهنة « كليك » وفى غيرها من الصحف الأوربية والأمريكية فما لبث أن اكتسب عملاء كثيرين ، وأصبح يبيع كتبه للجامعات والمكتبات العامة فضلا على العملاء وفى أواخر سنة ١٩٥٨ نقل تجارته من متجره القديم الى منزله فى رويسليب ، وبرر ذلك بأنه سبيل لاقتصاد كثير من النفقات وتجنب السفر كل يوم الى لندن والعودة منها • وهكذا انشأ قسما خاصا لتجارته فى المنزل •

وكانت عضوية اتحاد باعة الكتب الأثرية الدولى تتطلب وضع العضو الجديد تحت الاختبار فترة معينة لأن مهنة الاتجار فى الكتب النادرة تتمتع بشهرة محترمة ولذلك كان « كروجر » شديد اللهفة على الانضمام لعضوية هذا الاتحاد ليستطيع حضور المؤتمر السنوى الذى كان مقررا عقده بامستردام فى أغسطس ١٩٦٠ • والواقع أنه انتخب عضوا قبل هذا الموعد وحضر الاجتماع •

وكان التصوير الفوتوغرافى هواية المسز كروجر ، ولم تحاول اخفاء هذه الهواية ، ولذلك أنشأت غرفة مظلمة فى منزلها لتحميض صور كتيبات مباريات الكريكت التى كان زوجها يشترك فيها — اذ كان كروجر يبدى اهتماما كبيرا بالألعاب الرياضية فى الهواء الطلق ، كما كانت تحمض صور رحلاتهما بالخارج • وكان الزوجان يملكان سيارة «كونسول» سوداء كانا يستقلانها عند ذهابهما للقارة حيث كانا يقضيان هناك عدة شهور أحيانا لأمور تتعلق فى الظاهر بتجارة الكتب • وكانا يبلغان جيرانهما برحيلهما فى كل مرة ، وفى أثناء غيابهما كانا يتركان منزلهما أحيانا فى رعاية صديقهما «جوردون لونسديل» الذى كان بدوره من هواة التصوير الفوتوغرافى ، ولذلك كان من الطبيعى أن يستخدم الغرفة المظلمة •

ولقد قرر «كروجر» انه وزوجته قابلا « لونسديل » لأول مرة فى باريس سنة ١٩٥٥ حيث قال لهما انه طالب فى مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ، ولهذا كان من الطبيعى أن تدخل الكتب

فى أحاديثهما منذ بادىء الأمر • وقال الزوجان ان شخصية «لونسديل» القوية وتعليقاته الأدبية اجتذبتهما اليه ، ولذلك وجها اليـــه الدعوة لزيارتهما فى رويسليب • ففعل ، وسرعان ما نشأت بينهم صـــداقة حميمة • وكان يزورهما فى أثناء الاسبوع حتى من غير أن يبلغهما تليفونيا بزيارته • وقال كروجر ولهذا كان من الطبيعى أن نترك منزلنا فى رعايته كلما سافرنا الى الخارج • وكنا نجد المنزل نظيفا مرتبـــا كلما عدنا من رحلاتنا ، ولهذا لم يدر بخلدنا مطلقا أنه يمارس أعمالا مريبة • لقد كان يعاون زوجتى فى التصوير الفوتوغرافى • ولذلك لم نرتب مطلقـــا فى استخدامه للغرفة المظلمة •

وعهد الى احدى موظفـــات قسم مكافحة التجسس بمراقبة منزل « كرانلى درايف » بين حين وحين • وقد رؤى « لونسديل » وهو يدخل هذا المنزل فى المرة التالية يوم ١١ من ديسمبر ، وفى اليوم الســـابق تعقبه رجال الشرطة الى اولدفيك حيث تم لقاء آخر بينه وبين « هوفتون » والآنسة « جى » • وكانت هذه المقابلات تتم مرة فى الشـــهر لتبادل المعلومات • وحينئذ قررت ســـلطات الأمن أن الوقت قد حان لتضرب ضربتها •

ففى يوم ٧ من يناير ١٩٦١ رؤى « هوفتون » وهو يقود ســـيارته من منزله فى ويماوث فى اتجاه بورتلاند ، وبعد قليل شوهدت الآنسة « جى » معه فى السيارة فتبعهما رجال الشرطة الى محطة ساليسبورى ، حيث استقلا قطار الثانية عشرة والنصف الى واترلو • وسرعان ما أبلغ المراقبون نبأ مجىء الاثنين الى لندن ، الى اسكتلانديارد •

وفى الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر اليوم نفسه ، رؤى الاثنان وهما يسيران بالقرب من اولدفيك ويتبعهما « لونسديل » ، وبعد لحظات قليلة لحق « لونسديل » بهما وسار بينهما مسافة قصيرة وهو يضع يديه فوق كتفيهما ، ثم انتقل ناحية الافريز ، وأخذ من الآنسة « جى » ســـلة السوق التى كانت تحملها •

وفى تلك اللحظة مر بهم رجل فى ثياب مدنية ، ثم استدار وواجههم قائلا :

ــ اننى ضابط شرطة ، وانى ألقى القبض عليكم ••

وكان هذا الرجل كبير مفتشى الشرطة باســـكتلانديارد « جورج سميث » •

وأبدى الثلاثة دهشتهم البالغة ، وقالت الآنسة « جى » : ماذا ؟ ٠

أما هوفتون ولونسديل فقد لزما الصمت ٠

وبعد أن انتزع « سميث » السلة من يد « لونسديل » ، أخذ الثلاثة الى اسكتلانديارد حيث أبلغوا انهم سيحجزون للارتياب فى أنهم ارتكبوا أعمالا مخالفة لقانون الأسرار الرسمية ، وحذر كل منهم على حدة ، وسئلوا عن أسمائهم وعناوينهم وفى حين أجاب « هوفتون » وخطيبته اجابات صحيحة ، أجاب « لونسديل » : لن أجيب عن أى سؤال توجهونه الى ، فلا تتعبوا أنفسكم ٠

أما « هوفتون » فقال : كم كنت أحمق ! ٠

وقالت الآنسة « جى » : اننى لم اقترف اثما ٠

وحينما سئل « هوفتون » عن « لونسديل » ، قال ان اسمه جونسون وأنه امريكى وبتفتيش « لونسديل » عثر معه على ٥٩٠ جنيها استرلينيا و ٣٥٠ دولارا امريكا فى حين عثر مع « هوفتون » على ١٧ جنيها ومع الآنسة « جى » على ٢٥ جنيها كلها من أوراق النقد مع أن مرتبها الاسبوعى ١٠ جنيهات و ١٣ شلنا ٠

وأدى تفتيش مسكن « لونسديل » فى هوايت هاوس الى العثور على ١٨٠٠ دولار أخفيت بدهاء بداخل لفافتين صينيتين علقت احداهما فوق فراش « لونسديل » والأخرى فوق الدولاب ٠

وعثر بحقيبة السوق الخاصة بالآنسة « جى » على طردين ، بأحدهما أربع نشرات اختبار خاصة بالأدميرالية وبالآخر أفلام لم تحمض تشتمل على ١٣٠ صورة فوتوغرافية لأوامر الأسطول البحرى وصفحات خاصة بتفصيلات التعديلات والاضافات الخاصة بنظم أسلحة البوارج الحربية منقولة عن المطبوعات الرسمية السرية ٠

وبعد الساعة السادسة والنصف من مساء اليوم نفسه ، ذهب كبير المفتشين « سميث » وبعض الضباط الى منزل « كروجر » فى كرانلى درايف . وفتح «كروجر» الباب لكبير المفتشين الذى قال له انه يريد التحدث معه ومع زوجته ، فأدخله « كروجر » الى غرفة الجلوس ، وبعد دقيقة عاد « كروجر » ومعه زوجته ٠

وبمجرد دخولهما الى الغرفة قال كبير المفتشين « سميث » : اريد أن

أعرف منكما اسم وعنوان السيد الذى يجىء للاقامة معكما فى عطلة نهاية الاسبوع وبالأخص في يوم السبت الأول من كل شهر ٠

فتبادل الزوجان كروجر ، النظر ولم يجيبا فعاد « سميث » يقول : هلا اجبتما ؟ ٠

فقال كروجر : ان لنا اصدقاء كثيرين ٠

فطلب كبير المفتشين منهما ذكر اسماء هؤلاء الأصـــدقاء ، فذكرا عدة اسماء من غير عنوانات ، ولم يشر أحد الزوجين الى اسم « لونسديل » وحينئذ ابلغهما كبير المفتشين انهما مقبوض عليهما ، وأن المنزل محاصر ، وأنه سيأخذها الى مركز شرطة رويسليب ٠

واستأذنت السيدة كروجر فى ارتداء ثياب لائقة ، فقال لهـــا « سميث » احضرى معطفك ٠

فمضت الى غرفة النوم تتبعهـــا احدى الشرطيات ، حيث ارتدت معطفا والتقطت حقيبتها اليدوية وكانت موضوعة فوق أحد المقاعد٠ وهمت بالذهاب الى المطبخ لترى ان كانت الغلاية بحاجة الى العناية ، وهنـــا استوقفها « سميث » وطلب منها حقيبة يدها ٠ فأعطتها له ، ففتحها ، وأخرج منها غلافا أبيض وسألها عن محتوياته فأجابت : ليست لدى اية فكرة عن ذلك ٠

ومضت تقـــول انها خرجت لشراء بعض الحاجات من السوق فى ذلك الصباح وكان معها « لونسديل » وأنهما تناولا طعام الغداء معا ٠ وبينما كانا يفترقان اذ أخرج « لونسديل » الغلاف من جيب معطفه وهو يقول :

ــ هل تتكرمين بالاحتفاظ بهذه الرسائل الى أن أقابلك ؟ ٠

فاجابت بالايجاب وعادت الى منزلها حيث ألقت بحقيبتها فوق احد المقاعد بغرفة النوم ٠ وحينما طلب من المسز كروجر فيما بعد بمركز شرطة باوستريت أن توقع على قائمة بممتلكاتهـــا رفضت الاعتراف بأن الغلاف ملكها ٠

وحينما فحص الغلاف ، تبين انه يحتوى على بعض أشياء غريبة ٠ كان به رسالة كتبها « لونسديل » بالروسية بتاريخ اليوم نفسه ، وقطعة من الزجاج عليها ثلاث قطرات دقيقة يمكن تكبيرها الى حجم ثلاث صفحات

كاملة من ورق الكتابة ، وكانت هذه القطرات تحوى رسائل كانت رسالة « لونسديل » ردا عليها ، والواقع أنها كانت رسائل من زوجته الموجودة بالاتحاد السوفييتي ٠ وكان الغلاف يحوى أيضا ورقتين أخريين باحداهما ارقام مطبوعة باللون الاسود ، مما يدل على أنها رسالة كتبت بالشفرة ، اما الورقة الثانية فاشتملت على اسماء ثمانية شوارع يحتمل أنها أماكن مناسبة للمقابلات ٠

وحين ترجمة خطاب « لونسديل » وجد نصه كالآتى :

« حبيبتى جاليوشا ــ تلقيت رسالتك الأولى ، وأنا سعيد جدا لوصول ثلاث رسائل فى وقت واحد » واحتوى هذا الخطاب على الحاشية التالية : سأبلغ التاسعة والثلاثين قريبا ٠٠ فهل بقى كثير ؟ ٠

أما رسائل القطرة الأولى فمؤرخة يوم ٩ من ديسمبر ١٩٦٠ ، وترجمة بدايتها كما يلى :

« حبيبتى ٠ أهنئك بالعيد ٠٠ بعيد ثورة اكتوبر الثالث والثلاثين ٠ ترقبنا رسائل منك ولكنها قد تصل فى نهاية الشهر ٠ اما عن عملى ، فكل شىء على ما يرام » ٠

وفى غرفة النوم شارع كرانلى دريف ٠ عثرت الشرطة على مجهر يصلح لقراءة «القطرات» ومعه بعض الشرائح الزجاجية الشبيهة بتلك التى وجدت فى الغلاف الذى عثر عليه بحقيبة يد المسز كروجر ٠ وخلف انجيل على احد رفوف الكتب عثر أيضا على قطعة من السلوفان مغلفة بمادة حساسة خفيفة من طراز الافلام المصنوعة محليا والتى تستخدمها المخابرات السوفييتية للتصوير الفوتوغرافى المتناهى الصغر٠

وعثر فى المنزل نفسه على معدات أخرى للتجسس وهى كلها تدعو للدهشة ٠ فقد وجدت ولاعة رونسون للمنضدة بقاعدتها فجوة سرية بها خطط للاشارات اللاسلكية ، وكانت هذه الولاعة شبيهة بتلك التى أودعها « لونسديل » فى المصرف ٠ وكانت احدى هذه الخطط خاصة بأيام الأحد الأول والثالث من كل شهر وتحدد اشارات اتصال مثل (لينا و «يا» و «آمور» وغيرها من الاسماء الروسية ٠ وعثر أيضا على (كعبى) كتب بهما خزائن سرية ٠ وراديو «مورفى» صغير جدا مصنوع بحيث يمكن وقف عمل مكبرات الصوت واستخدام السماعة ٠ ووجدت فى الحمام علبة صفيح طراز « الزهور الثلاث » بها وعاء سرى يحتوى على تلسكوب

صغير لقراءة القطرات المصغرة • واسفر التفتيش عن العثور على باب سرى بالمطبخ يؤدى الى فراغ حجب بمهارة به جهاز ارسال يعمل على الموجة العالية للاتصال المباشر بموسكو ، وجهاز تسجيل اوتوماتيكى • وفى غرفة علوية عثر على «ايريال» طوله ٧٤ قدما وتسع بوصات متصل بجهاز الارسال • كما عثر على ٢٥٦٣ دولارا امريكيا وكمية من شيكات السياحة الامريكية وبعض من شيكات السياحة البريطانية وكانت جميع هذه الشيكات تحمل توقيع « بيتر كروجر » • كما وجدت مجموعة من جوازات السفر المزيفة منها جوازان كنديان يحملان اسم جيمس ويلسون « رجل الاعمال » وجين سميث « سكرتيرة » •

وقدم الاشخاص الخمسة المقبوض عليهم لقاضى الاحالة يوم ٩ من يناير فاحالهم الى المحاكمة متهمين بالتآمر معا لارتكاب مخالفات لقانون الاسرار الرسمية الصادر فى سنة ١٩١١ . ولم يعترف الجميع بأنهم مذنبون ورفض « لونسديل » والزوجان كروجر أخذ بصمات أصابعهم فأمر القاضى بأخذها عنوة •

وفى يوم ١٣ من مارس سنة ١٩٦١ بدأت محاكمة المتهمين ، وكان المحلفون جميعا من الذكور ، واستمرت المحاكمة ثمانية أيام . واسترعت اهتماما كبيرا فى جميع أنحاء البلاد •

وتولى المدعى العام السير ريجنالدماننجهام بولر رياسة الاتهام ، فى حين تولى فريق من المحامين الدفاع عن المتهمين .

وكان الاتهام الذى وجه للمتهمين هو التآمر معا على الكشف عن معلومات سرية يمكن أن تساعد عدوا مرتقبا لبريطانيا • ولذلك حرص الاتهام منذ البداية على ايضاح أنه ليس من الضرورى أن يكون المتهمون جميعا على صلة ليثبت اجرامهم بشرط أن يكونوا مشتركين فى الوصول الى الغاية المشتركة نفسها وأن تكون هذه الغاية هى التى وردت فى قائمة الاتهام قال : « لنفرض انكم اقتنعتم بأن خمسة أشخاص يشتغلون بأعمال التجسس وانهم جميعا يلعبون دورا فيما يطلق عليه حلقة تجسس ، فليس مما يبرىء واحدا أو أكثر من المشتركين فى هذه المؤامرة أن يقول (اننى لا أعرف جميع الذين يشتغلون فى هذا العمل) ففى مثل حلقة الجاسوسية

هذه قد يكون من المفيد اخفاء شـــخصية كل واحد منهم عن الآخرين » والواقع أنه لم تكن هناك أدلة على أن «هوفتون» أو الآنسة «جى» كانا يعلمان بوجود الزوجين كروجر » ٠

وبعد أن أوجز النائب العام الحقـــــائق ، التى أدت الى القبض على الأشخاص الخمسة ، مضى يصف الاشياء التى عثر عليها بمنازلهم بعـــد اعتقالهم فقال : « انه عثر على مبلغ ١١٥٠ جنيها بعضـــه نقد والبعض الآخر سندات لدى «هوفتون» ، مع أن مرتبه فى السنة ٧٤١ جنيها ، كما عثر بمنزله المكون من ثلاث طبقات والموجود عند اطراف ويماوث على عدد من رسومات الادميرالية ومن بينها رسم لرصيف بورتسماوث يصـلح لأعمال التخريب ٠ وعثر فى درج المكتب بغرفة الجلوس على رقعة من الورق بها كلمة « احفظ » يعقبها ثلاث مجموعات من الأرقام الثـــلاثية وكلمة « ذهب » يعقبها أربع مجموعات من الأرقام الثلاثية ، وجميع هذه الارقام توضح الأرقام المستخدمة فى نشرات اختبار منظمة أسلحة تحت الماء وفى هذا قال النائب العام « ان جميع نشرات الاختبارات تحمل أرقاما وهى النشرات التى تستطيع « جى » و « هوفتون » الاطلاع عليها فى أثنـــاء عملهما ، ومع أن الحصول على نشرة واحدة منها قد يفيد العدو الى حد ما ، فان للحصول عليها جميعا أهمية بالغة » ٠

وفى أثناء تفتيش منزل الآنسة «جى» فى همبرو رود ببورتلاند وجدت فى حقيبة يدها بغرفة نومها وثيقة ذكر بها اثنا عشر موضـــوعا مثل « الغواصات والبوارج الحربية » مطلوب الحصول على معلومات عنها ٠ وكان بعض الكلمات المستخدمة فى هذه القائمة ترجمة مباشرة من اللغة الروسية ٠ وكانت الاجابة عن كل موضوع تهم أى عدو مرتقب ، ولكن الاجابة عنها جميعا تعطى صورة كاملة « للمجهود » الذى تبذله بريطانيا ضد الغواصات ويوضح الابحاث التى تجربها للمستقبل ٠

وعثر على رقعة أخرى من الورق فى الحقيبة اليدوية تحتوى على ثمانية عشر رقما ٠ وكانت جميع هذه الارقام تدل على نشرات اختبار مجموعة معينة من الغواصات ٠ وقد ذكر أن ثلاثا منها سرية ٠

ووجدت فى ثلاث حقائب يدوية أخرى أوراق نقد قيمتها ٣١٦ جنيها ، وخمسة جنيهات ، وجنيه واحد ، ودفترا توفير ببنك الاقتراض الوطنى بهما ٧٢٦ جنيها ، فضلا على عدد من شهادات الاسهم ، مع أن مرتب « جى » الاسبوعى ١٠ جنيهات و١٣ شلنا ٠

وأخيرا أشار النائب العام الى الاقوال التى أدلى بهـــا «هوفتون» وخطيبته للشرطة بعد القبض عليهما ، فقـد قال « هوفتون » انه قرر أن يعترف بما فعل · لانقاذ الآنسة «جى» لأننى ورطتها فى هذه المشكلة · وطبقا لقصته : فان رجلا وصف نفسه بأنه مســـاعد الملحق البحرى بالسفارة الامريكية بلندن وذكر أن الكوماندر اليكس جونسون زاره فى منزله برايموث فى شهر يونيو الماضى ، وقال له ان زميلا له فى السفارة الامريكية بوارسو كان « هوفتون » يعرفه طلب اليه الاتصال بهوفتون وأنه عثر على اسمه وعنوانه فى دليل التليفونات · وقال « هوفتون » : « كان رجلا ظريفا وكان يعرف كل ما يتعلق بحـــديث رجال البحرية وعاداتهم فقبلته على علاته » ·

وعقب النائب العام على ذلك بسخرية قائلا : أليست قصة غير عادية أن يلجأ مساعد الملحق البحرى الأمريكى فى لندن الى موظف كتابى يعمل فى وحدة الاصلاح الاضافية فى ايماوث ، لأن صديقا مشتركا فى بولندا قال له أن يستقبله بحفاوة ؟ » ·

وكان ما حدث بعد ذلك أكثر مدعاة للغرابة ، فقد قدم «هوفتون» خطيبته «للكوماندر جونسون» وأفضى اليه فى الوقت ذاته بمحل عملها ، وكانت نتيجة ذلك أن قال له «هوفتون» ان السلطات الامريكية متلهفة على معرفة ما اذا كانت البحرية البريطانية تستخدم المعلومات التى تقدمها لها ، وسأله ان كان فى استطاعته أن يحصل من «جى» على معلومات فى هذا الشأن · وقال «لونسديل» : «أرى أن أحاول اقناع الآنسة «جى» ، وذلك بالتلطف معها ، بأن تجعلنى أرى وثائق معينة فقالت ان هذا العمل محفوف بالمخاطر ، فأجاب بأننا جميعـــا نعمل لتحقيق غاية مشتركة ، وكنت أحمق فوافقت » ·

وتساءل المدعى العام : لشد ما أعجب ! ما هى هذه الغاية المشتركة؟

ولقد قال «هوفتون» انه أفضى لخطيبته بقصة ملتوية ، اذ قال انه يريد التثبت من صحة بعض أقوال جونسون ، ولذلك سألها هل يستطيع الاطلاع على بعض الوثائق ؟ · ومضى «هوفتون» يقول : « استخدمت جميع وسائل الاقناع معها ، ومع أنها أبدت ترددا كبيرا الا أننى استطعت أن استدرجها فى النهاية ، فحصلت على الملفات » ·

وفى تلك الأثناء كان الكوماندر جونسون · قد أعطى «هوفتون» آلة تصوير وبعض الأفلام ولمح الى أن جيوبه عامرة بالمال · وأضاف «هوفتون»:

« وقررت أن أصور له مالايضر لأنثر الرماد فى عينيه » • وأضاف المدعى العام معلقا على «مالا يضر» بأن «هوفتون» قال بأنه صور نشرة الادميرالية السرية •

وختم «هوفتون» أقواله قائلا : أحب أن أقول ان الآنسة «جى» كانت ضحية بريئة لحماقتى ، فأنا لم أتحقق من شـــخصية الكوماندر ، اكتفاء ببطاقة الزيارة التى ابرزها لى •

وراح المدعى العام يخبر المحلفين برأيه فى أقوال «هوفتون» بأبسط الكلمات فقال : « انه مع ما قد يتبادر الى ذهن المرء من ان الآنسة «جى» تصرفت تحت تأثير خطيبها ، الا أنه من الخطأ الفاحش أن توصف بأنها ضحية بريئة • وبالتالى فان اعتراف الاثنين بأنهما خدعا فى شـــخصية « لونسديل » لا يبرر عملهما ويعتبر اعترافا منهما بأنهما مذنبان •

أماأقوال الآنسة «جى» التى أدلت بها بناء على طلبها عقب تقدمهـا لقاضى الاحالة مباشرة ، فلم تكن أقل بعدا عن التصديق ، فبعد أن وصفت لقاءها الأول مع «لونسديل» أمام اولدفيك حينمـــا قدمهـــا «هوفتون» للكوماندر جونسون من بحرية الولايات المتحدة ، قالت أن خطيبها طلب منها بعد المقابلة الحصول على صـــور لبعض «الوثائق التى لا تضر » حتى يستطيع أن يناقش الأمر من غير أن يبدو جاهلا ! • ومع أنى أعلم أنه ماكان يجدر بى أن أفعل ذلك ، الا أننى لم أجد أى ضرر فى الحصول على بعض النشرات من الكتب لكى يتمكن هارى من التحدث الى الامريكى • وقالت «جى» ايضا : حينما أعطيت النشرات لهارى قال انه سيعيدها الى يوم الاثنين • »

وبعد ذلك استدعى الاتهام شهوده ، وكان أكثرهم من رجال قسم مكافحة الجاسوسية ، فوصفوا كيف أنهم وضعوا المتهمين تحت المراقبة ، وأعقبهم كبير المفتشين «سميث» الذى وصف القبض على المتهمين وما عثر عليه لديهم من أدلة على الادانة وأضاف قائلا : ان «هوفتون» طلب مقابلته فى السجن ، فلما قابله قال له :

– اذا أحضرت صور أشخاص معينين الى السجن فســأعاونك فى التعرف عليهم لأننى أريد الادلاء باعتراف •

فسأله الدفاع : هل كان يعرض تقديم أقصى ما يســتطيع من المعونة ؟ •

فأجاب المدعى العام : فى ذلك اليوم ، ولكنى ماكدت أعود للسجن حتى تغير الحال ·

ـ هل كان ذلك عندما قلت له ان نسخة من أى أقوال كتابية سيدلى بها ستقدم الى المدعى عليهم الآخرين كدليل على أنه عدل عن رأيه ؟ ·

فقال الشاهد : لا ، لم يكن الأمر كذلك · لقد أراد أن يعقد صفقة معى بأن أجعله شاهد ملكة ، فلم أستطع الموافقة على ذلك ·

ولقد أتاحت هذه الاعترافات المؤسفة ـ من وجهة نظر هوفتون ـ الفرصة للمدعى العام لاعادة استجواب الشهود ، ففيما يتعلق بالصور الفوتوغرافية ، قال كبير المفتشين سميث « أراد مشاهدة صور الروسيين والبولنديين الذين يعملون فى سفارات دولهم بهذه البلاد » ·

ـ وهل قال لك لماذا كان يريد رؤية هذه الصور ؟ ·

ـ لمحاولة التعرف عليهم ، فقد كانت بينه وبين بعضهم صلة ·

وحينئذ سأل المدعى العام كبير المفتشين عن « رغبة هوفتون » فى عقد صفقة ·

وأحدثت اجابة كبير المفتشين ضجة فى قاعة المحكمة ·

قال : أراد أن يمدنى بمعلومات أقدمها للسلطات المختصة ، وبذلك يتحول الى شاهد ضد المتهمين الأربعة الآخرين ، بدلا من أن يكون متهما ·

واستطرد المدعى العام : هل طلب رؤية صور أى اشخاص أمريكيين أو كنديين ؟ ·

فأجاب كبير المفتشين بلهجة قاطعة : لا ·· لم يفعل ·

ووصف شهود تاج آخرون مختلف الأشياء التى وجدت فى منزل «كروجر» وصفامستفيضا ، وكيف انه كان من بينها آلة تصوير «براكتينا» الخاصة «بلونسديل» وهى التى سبق أن أودعها المصرف قبل القيام برحلته الاخيرة للقارة ، علاوة على جوازات السفر المزورة ، ومن بينهما اثنان كنديان باسم ولسون ومارى جين سميث ، وقد عثر عليهما مخبأين فى غطاء (وراقة) جلدية جديدة ·

أما الكابتن ج · و · سايموندس ، وهو ضابط قديم فى الادميرالية

متخصص فى ابداء النصح فى جميع الشئون المتعلقة بالحرب تحت الماء ، فقال : ان الافلام التى وجدت فى حقيبة السوق الخاصة بالآنسة «جى» وقت القبض عليها ، تألفت من النصف الأخير من الكتاب السرى «خواص البوارج الحربية » ومن أوامر أسطول الادميراليه وبعض الرسومات السرية وأول غواصة ذرية • وكلها تفيد أى عدو مرتقب •

وعند سؤال دفاع «هوفتون» للشاهد ، وافق هذا على أن صور صفحات «خواص البوارج الحربية» لم تكن واضحة ولهذا كان من الصعب جدا قراءتها ، ولكنها اذا وضعت تحت المجهر فيجوز فك طلاسم نحو ٩٠٪ مما صور ، ولو أن جزءا كبيرا من المعلومات الواردة فى الصفحات التى تم تصويرها قد أصبح علنيا •

ومن بين صور أوامر أسطول الادميرالية التى التقطها «هوفتون» أمر خاص بعلاج الأمراض التناسلية •

سأله محامى «هوفتون» : هل تظن أن هذا يفيد أى عدو مرتقب ؟

فأجاب الشاهد : انه يبين الى أى مدى تمضى الأمور فى البحرية •

ـ لعلك لا تريد القول بأن كل ما يجرى في البحرية يفيد عدوا مرتقبا ؟ •

ـ كلا • ولكن للعلاج الطبى فائدة الى حد معين •

وكان آخر شاهد للاتهام هو المستر «ت» الذى قال انه اخصائى فى وسائل الاتصال بمحطات الرقابة ، وأنه استطاع ان يلتقط الاشارات التى أرسلت الى منزل «كروجر» وامكنه أن يحدد أنها مرسلة من منطقة موسكو •

- ٣ -

بعد ظهر اليوم الرابع من أيام المحاكمة انهى الاتهام مرافعاته ، ونهض محامى الآنسة « جى » ليقول للمحكمة انه يعتزم استدعاء موكلته للادلاء بالشهادة ، ولكنه لن يستدعى أى شاهد آخر • وتقدمت من المنصة سيدة ممتلئة الجسم فى منتصف العقد الخامس من العمر ، عليها مسحة من الجمال . وقالت ان اسمها «اثيل اليزابيث جى» ولكنها مشهورة عند اسرتها وأصدقائها باسم «بانتى» •

وقالت ردا على سؤال محاميهـــا ان أباها كان حدادا من هامبل بهامبشـاير وأنه مات وهى صغيرة ، ولقد ورثت سبعمائة جنيه من جديها. واقامت فى بورتلاند مع أمها التى بلغت الثمانين من العمر ، وعمة مريضة فى سن أمها ولم يتعد اهتمامها بالشئون السياسية ابداء صــــوتها فى الانتخابات العامة ، وكانت تعطيه للاحـرار دائما ، وأنهـا لاتنتمى لأية منظمات سياسية • وأضافت أنها قابلت «هوفتون» حينما جاء ليعمل فى المكتب المجاور فى مؤسسة الأدميرالية ببورتلاند ونشأت بينهما صداقة ، وحين ابتاع كوخا فى بورتلاند زخرفاه معا ، وأنها كانت تفكر فى الزواج منه لو كانت شئونها المنزلية حسنة •

وحينما سئلت عن عملها اجابت بأنها حينما كانت تبحث عن نشرات الاختبار تعمل قوائم على رقع من الورق كانت تضع بعضها فى جيب سترتها أو فى حقيبتها اليدوية ، وقد تعرفت على قائمة أرقام النشرات على ظهر قائمة تسويق ، وأضافت أنها كتبت الفرق بين « الهيدروفون » و « الترانسديوسر » لمعلوماتها الخاصة ، وأن أول مرة سمعت فيها اسم «لونسديل» كانت فى محكمة شرطة بلوستريت فقد كانت تعرفه دائمـا باسم «اليكس جونسون» •

ـ متى سمعت اسم اليكس جونسون لأول مرة ؟ •

ـ ذات صباح فى أثناء ذهابى الى العمل مع «هوفتون» فقد قال هارى أن اليكس جونسون زاره فى الليلة الماضية ، وأنه من المحتمل أن يقدمنى له فى أثناء زيارتنا التالية للندن •

ـ هل كان هارى يبدو مضطربا أو قلقا ؟ •

ـ لم يكن قلقا ، لأنه يسر دائما من مقابلة الناس •

ـ هل اخبرك بجنسية جونسون ؟ •

ـ قال انه امريكى له صلة ببحرية الولايات المتحدة •

وأردف أنها قابلت « لونسديل » مرة يوم ٩ من يونيو ١٩٦٥ حين قدمها «هوفتون» قائلا «لاليكس جونسون» صديقتى باتنى» .

وحينما سئلت عن آلة التصوير التى أعطاها جونسون لهوفتون لتصوير بعض الأوراق التى قدمتها اليه من نشرات الاختبار ، قالت انها ظنت « أن هذا أمر مضحك ، ولكنها لم تر فيه شيئا اجراميا » • وكان

تفسيرها للوثيقة التى وجدت فى حقيبة يدها أنها كانت صورة من وثيقة أعطاها هوفتون لها قائلا انها «جاءت مع آلة التصوير» ، وانها نسختها بنفسها ، وأحرقت الأصل ، ظنا منها « ان الأمر مضحك » ٠

ـ مادام الأمر كان مضحكا فى نظرك ، فلماذا نسخت الوثيقة ؟ ٠

ـ لأنها استهوتنى ٠

وقالت : انها كانت تعمل فى مشروع « اسديك » فى الأسبوع السابق على ٦ من يناير ، وأنها ظنت أن بعض نشرات الاختبارات قد تكون مفيدة ، فأخذت سبعا منها كانت على مكتبها فى ذلك الحين ٠

قالت : وضعتها فى غلاف رسمى ، ثم وضعت الغلاف تحت ابطى حين خروجى ٠

ومضت تقول «انها لم تتوقع أن يأخذ «هوفتون» النشرات الى لندن ولما استقلا القطار معا فى ساليسبورى يوم ٧ من يناير لم تكن تعلم شيئا عن محتويات سلة تسويقها ، وأنها تذكر أن «هوفتون» قال انها تحتوى على لفافة من نشرات الاختبار وعلبة من لحم اللسان ، وأخيرا وصفت ما حدث حينما قابلت لونسديل بقولها :

ـ لقد أخذ السلة من يدى ، وخيل الىّ أن هذا أمر طبيعى يفعله كل رجل مهذب ! ٠

وأردفت أن كل ما تعلمه بعد ذلك هو أنها عرفت ماكان فى السلة بعد القبض عليها ٠

ـ لقد هزنى ذلك ، وأحسست بذهول ، كنت أومن بأننى لم ارتكب خطأ . أما عن الزوجين كروجر فاننى لم أسمع بهما أو أرهما الا فى المحكمة ٠

وكان استجواب المدعى العام لها موجزا ولكنه كان قاتلا ٠٠

ـ حينما استجوبت فى اسكتلانديارد قلت انك لم ترتكبي خطأ ٠٠ فهل كان هذا صحيحا ؟ ٠

ـ فى ضوء ما تكشفت عنه الأمور ، فاننى ارتكبت خطأ خطيرا ٠ اما حينذاك فاننى لم أشعر بأننى ارتكبت اى اجرام ٠

ـ لقد خالفت قواعد عملك حينما كنت تأخذين هذه النشرات معك وتعطينها لهوفتون فى عطلات الاسبوع ؟ ٠

ـ نعم ...

ـ ألا ترين أنك وهوفتون خنتما الأمانة ؟ .

ـ نعم ..

ـ لا من أجل أفكار سياسية ، ولكن طمعا في المال ؟ .

ـ لا أفوافق على ذلك .

وحينما سئلت عن القائمة التي وجدت في حقيبة يدها ، قالت ان « لونسديل » نفسه لم يقل لها شيئا عنها ، ولكن « هوفتون » قال لهـا حينما أعطاها لها : كان هذا قدرا من المعلومات التي طلبها « لونسديل » ولم يعن ذلك شيئا بالنسبة لها .

ـ لو أنك وجدت نشرات اختبار عن هذه الموضوعات . فهل كنت تسلمينها لهوفتون ؟

ـ يحتمل .

ـ حتى يراها لونسديل ؟

ـ نعم ..

ـ هل معنى ذلك أنه كان من المتفق عليه أن يدفع « لونسـديل » ثمنا لهذه المعلومات ؟

ـ لم يناقشني لونسديل في ذلك مطلقا .

ـ سمعت كبير المفتشين «سميث» يقول ان «هوفتون» عرض أن يتحول الى شاهد ملكة . هـل يعني ذلك ـ ان كان صـحيحا ـ انك لم تكشفي لنا عن كل ماحدث ؟

ـ لست أفهم .. ماذا تعني ؟ ..

ـ قيل لنا ان « هوفتون » أراد الاطلاع على صور بعض الروسيين والبولنديين للتعرف على من كانت له بهم صلة ، فهل كانت لك اتصالات بأي روسيين أو بولنديين ؟

ـ لا ..

ـ هل حقا ظننت في أثناء سـفرك الى لندن مع « هوفتون » يوم

٧ من يناير أنه لن يأخذ معه بعض نشرات الاختبارات التى أعطيتها له فى الليلة السابقة ؟

ـ لقد دهشت لذلك كثيرا حينذاك .

وحينما سألها رئيس المحكمة عن تقديم النشرات لهوفتون قالت «انها كانت تثق فيه» وأنها لم تكن تعتقد مطلقا أنه سيستخدمها .

ونودى «هوفتون» ، وبدأ يدلى بشهادته بأن وصف ماضيه فى الخدمة وما عقب ذلك من تعيينه بين موظفى الملحق البحرى بوارسو ، وأنه طلق زوجته فى هذه الفترة لأنه قابل فتاة بولندية اسمها « كريستينا » ، وعن طريق هذه الفتاة تورط فى سلسلة من عمليات السوق السوداء ، وأنه حصل على مبلغ ٤٠٠٠ جنيه عن هذه العمليات بعد عودته الى انجلترا ، دفعها له أحد المشتغلين فى هذه العمليات ، وكان هذا هو التفسير الذى قدمه لثرائه المفاجىء والنقود التى وجدت فى منزله . وأضاف أنه لم يدفع له شىء من هذه النقود مقابل الحصول على معلومات سرية ..

ومضى « هوفتون » يقول انه فى أوائل سنة ١٩٥٧ تلقى مكالمة تليفونية من رجل قال ان لديه معلومات يريد الافضاء له بها عن « كريستينا » وكان « هوفتون » يعلم أن « كريستينا » متلهفة على مغادرة بولندا ، ولذلك ظن محدثه أنه يهمه أن يعلم أن «كريستينا» هربت فعلا من بولندا . وقال ان المتحدث ـ الذى لا يعلم هوفتون من هو ـ اتفق معه على مقابلته فى متحف قن والويتش ، ولكن بدلا من أن يحدثه عن «كريستينا» فان هذا الرجل الذى فهم «هوفتون» انه رجل المخابرات البولندية ، سأله : هل يمكنك أن تحضر لى بعض معلومات بحرية » ، وقال « هوفتون » انه أجاب بأنه غير مسموح له بأن يفعل هذا ، وان واجبه يقضى عليه بابلاغ الأمر للشرطة نظرا لأن محدثه يبدو أجنبيا .

ـ هل قال شيئا آخر ؟

ـ قال ما معناه انه سيغضب منى ومن زوجتى اذا فعلت ذلك .

ـ هل اعتبرت هذا تهديدا جديا ؟

ـ نعم اعتبرته تهديدا خطيرا .

ومضى « هوفتون » يقول ان الرجل اطلعه على نشرة اعلانات لهوفر ، وقال له « اذا احتجنا اليك ثانية فسنرسل لك هذه النشرة » ثم أعطاه ثمانية جنيهات لتغطية نفقات السفر من وايموث » .

واستمر « هوفتون » يقول انه تلقى النشرة فى خريف ذلك العام ، وأنه ذهب الى مكان عام اسمه « توبى اند جاج » عند معبر كنجستون « ذهبت لأرى ما سيحدث » وكان قد أخذ معه صحيفة « هامشير » المحتوية على بعض المعلومات غير المبوبة • وقابله الرجل نفسه ، وحينما قال له « هوفتون » ان المعلومات الوحيدة التى يستطيع تقديمها له مستقاة من الصحف ، هدده الرجل بأنه وزوجته «سيضربان» •

وقال « هوفتون » : قلت له ان مثل هذه الأشياء تحدث فى بلاده ، وأن فى استطاعتى أن أحصل على حماية الشرطة ، ولكن الرجل قال لى : هل تذكر اسم بتروف ؟ لقد كان فى السفارة السوفيتية باستراليا ، ولكنه انحاز للغرب ولم يستطع الاستراليون حمايته • اذ مع أن الحكومة الاسترالية تمنحه ألفى جنيه فى العام وحمايتها ، الا أنه يعيش فى خوف دائم على حياته • ألا تعلم أن الرجل أصبح الآن سكيرا متداعيا ، وأن الحكومة الاسترالية سوف تسر اذا ذهب ؟ •

وأضاف « هوفتون » ان محدثه ذكر له « تروتسكى » أيضا ، وقال : لقد ظفرنا به بعد مضى عشرين عاما مع أنه كان يقيم فى قلعة • ولسوف نظفر بك بسهولة •

وقال « هوفتون » أنه لم يبلغ عن هذا الحديث ، وأردف : وكان من أسباب ذلك أننى لم أعطه شيئا ، فضلا على أننى كنت أصدق ما قاله لى •

ومضى يقول : انه تلقى نشرة ثانية ولكنه تجاهلها ولم يتخذ أى اجراء ، ولكن ما ان انقضت فترة قصيرة حتى هاجمته عصابة من « أشرار لندن » فى أثناء عودته لمنزله ذات ليلة ، وأوسعته ضربا • وسأله أفرادها عن سبب عدم ذهابه الى لندن حينما تلقى البطاقة ، ثم ضربوه ضربا مبرحا لم يكابده من قبل بقبضات الأيدى وبالأقدام • وأردف « هوفتون » أنه لم يبلغ الأمر للشرطة لاعتقاده أنها لن تستطيع أن تفعل شيئا •

واعقبت ذلك تهديدات أخرى باستخدام الشراك الجهنمية والطرود التى تتفجر • وقد تلقى دعوة جديدة ولكنه تجاهلها ، فتعرض للضرب مرة أخرى الى أن فقد وعيه • وفى هذه المرة هددوه بالظفر به عن طريق خطيبته « فاعتبرت ذلك أخطر تهديد ، فقد كان فى استطاعتى احتمال المكاره ، ولكنى كرهت أن يحدث شىء لجى ، أو لزوجتى السابقة » •

وبعد ذلك زاره الرجل الذى عرف الآن ان اسمه « لونسديل » وقال له « ان اسمه اليكس جونسون ، وأنه مساعد الملحق البحرى ، وكان قد ذهب الى بولندا فى عمل » وقال « هوفتون » انه بدأ يفكر فى تلك الليلة أن هذا الرجل لم يكن أمريكيا .. ثم انكشف القناع !

واستطرد « هوفتون » يقول ان الورقة التى أخذها من «لونسديل» يوم ٩ من يوليو كانت غلافا به تذكرتان لباليه برلشى بالبرت هول ابتاعها « لونسديل » له وللآنسة « جى » ولكنه انكر الحديث الذى ادعى رجال قسم مكافحة التجسس أنه دار بينهما فى مقهى ستيف ، باستثناء الاشارة الى الامريكيين اللذين هربا ، أما عن صور « خصائص البوارج الحربية » فقد تعمد أن يهز آلة التصوير كى تستحيل رؤية أسلحة البوارج واستهلاك الوقود « وكان الغرض أن تبدو الصور هامة ، ولكنك اذا أخذت تفحص التفاصيل فلن تحصل على شىء »

وهنا سأله محاميه عن الصفقة التى حاول أن يعقدها مع كبير المفتشين « سميث » وفى بادىء الأمر قال « هوفتون » انه لا يرى أن يصف ذلك بأنه صفقة ولكنه وافق فيما بعد على أنه من الجائز « أنها كانت صفقة » فقد أراد أن يعرف هل المعلومات التى عرض تقديمها ستساعده هو والآنسة « جى » .

فقال الاتهام : يقول كبير المفتشين « سميث » انك أردت الادلاء بأقوال ضد الأربعة الآخرين ؟

— لا . لم أكن راغبا فى الادلاء بأقوال ضد الآنسة « جى » مهما تكن الظروف ، الا اذا اضطررت لذلك .

وسأل محاميه : هل تعتبر نفسك انجليزيا وطنيا ؟

فأجاب هوفتون : بكل تأكيد ، كنت اعتبر نفسى انجليزيا وطنيا .

وهنا تدخل المدعى العام مستغلا الثغرة التى فتحها له الدفاع للقضاء على « هوفتون » ...

سأله : قلت انك كنت تعتبر نفسك انجليزيا وطنيا ، فمتى كففت عن اعتبار نفسك كذلك ؟

— حينما تورطت فى هذه المشكلة .

— ومتى كان ذلك ؟

ـ في يناير ١٩٥٧ ٠

ـ بغض النظر عن دافعك الى ذلك ، فقد وافقت على تقديم معلومات خاصة بالبحرية الملكية لأشخاص كنت تعلم أنهم أجانب ؟

ـ نعم ٠٠

ـ لقد اعترفت بأنك اعتزمت تقديم مثل هذه المعلومات يوم ٧ من يناير وأنك أحضرتها معك الى لندن ! ٠

ـ نعم ٠٠

ـ انك متهم مع « جى » و « لونسديل » وغيرهما بنقل معلومات قد تفيد عدوا مرتقبا الى أشخاص آخرين !

ـ نعم ٠٠

ـ اذن لماذا لم تعترف بأنك مذنب ؟

ـ لانني أردت الاحتفاظ بفرصة ابداء سبب ذلك ٠

ـ لو اعترفت بأنك مذنب لأتيحت لك فرصة الافضاء بما تريد ٠

ـ لست ملما بالقانون ٠

فرماه النائب العام بنظرة تنطوى على القسوة والغضب وساله :

ـ ألست مذنبا فى الاتهام الموجه اليك ؟

فأجاب هوفتون : قد أكون كذلك بالطريقة التى فرض بها الاتهام على :

ـ انك متهم بالتآمر مع آخرين على ايصال معلومات قد تفيد عدوا محتملا !

ـ اننى لم أتآمر مع الزوجين كروجر ، لأننى لم أكن أعرفهما ٠

وكان تصريح « هوفتون » التالى ضربة قاضية له ، اذ ساله الاتهام :

ـ من حيث اتصال الأمر بعلاقاتك مع « لونسديل » هل توافق على أنك تآمرت معه على تزويده بمعلومات عن البحرية ؟

ـ نعم ٠٠

ـ معلومات قد تفيد عدوا مرتقبا ؟

ـ لم أكن اظن ذلك .

لم يدل «لونسديل» ولا الزوجان كروجر ، بشهاداتهم ، وانما قرأ كل منهم أقواله المكتوبة من قفص الاتهام ، ونظرا لانهم لم يؤدوا القسم فلم يكن من المستطاع استجوابهم .

ونهض «لونسديل» أولا ، وقال : سأدلي بهذه الأقوال رغبة منى في عدم الاضرار بالمستر والمسز كروجر ، لانني وضعت بعض مقتنياتى في منزلهما ..

فقد كانت جميع الأدلة التى وجدت فى منزلهما هى اما ان «لونسديل» يملكها او انه قدمها لهما على سبيل الهدية ، كولاعة السجاير وغلاف الكتاب ذى التجويف السرى ، وقال «لونسديل» انه كان يقيم فى منزلهما الريفى فى أثناء غيابهما ، وأنشأ مكانا سريا تحت الارض وضع فيه جهاز الارسال وغيره من الاشياء التى عثر عليها ضباط القسم المخصوص ، ونظرا لانه توقع أن يواجه الزوجان كروجر المتاعب فقد قرر أن يحصل لهما على جوازى سفر مزيفين ، وخبأهما فى (الوراقة) الجلدية ولم يكن الزوجان كروجر يعلمان شيئا عنهما . وقال «لونسديل» انه طلب من المسز كروجر الاحتفاظ بالغلاف الكبير المحتوى على الخطاب المكتوب بالروسية ، والرسائل المصغرة .

ثم اضاف : اعلم أنه لم يعد فى الامكان تصحيح الوضع الآن ، ولكنى أشعر بأن أقل ماأستطيع أن أفعله فى هذه الظروف هو أن أتقبل المسئولية الكاملة عن عملى ، بصرف النظر عن النتائج التى ستترتب على ذلك بالنسبة لى .

ونهض بيتر كروجر ، وقال : ان ماقاله «لونسديل» صحيح فيما أعلم ، أما فيما يتعلق بى وبزوجتى فاننى لست أكثر من تاجر كتب نادرة .

ورفع يده ، وبها نسخة من مجلة لتجارة الكتب النادرة ليراها المحلفون . وأردف :

ـ هذا هو اعلانى على الصفحة السابعة والاربعين .

ومضى يقول انه وزوجته لم يشتركا فى أعمال التجسس او فى اية أعمال أخرى يمكن أن تعتبر غير مشروعة ، اما «لونسديل» فمجرد صديق، وقال : اننا لا نعرف شيئا عن التجاويف السرية وما شابهها ، كما كنا نجهل جهلا تاما الاشياء التى أخفيت فى الكتب وغيرها ، ولم نكن نعلم

بوجود جوازات السفر الكندية ، ولم توضع الصور الفوتوغرافية التى بها بمعرفتنا ، وبالتالى فان التوقيعات التى عليها ليست توقيعاتنا •

وختم كروجر كلامه قائلا : انهما أجابا عن أسئلة الشرطة بكل صدق وأمانة •

ورددت هيلين كروجر أقوال زوجها ، وقالت ان القداحة (الولاعة) التى أعطاها «لونسديل» لهما استخدمها عشرات من الاصدقاء ، وانها لم تلاحظ شيئا غريبا فيها ، وأردفت ان المرة الوحيدة التى رأت فيها الباب السرى كانت حينما استدعت (سباكا) لاصلاح انابيب التدفئة المركزية ، ولكنها لم تر أية أدلة تشير الى استعمال هذا الباب بعد ذلك •

واختتمت هيلين كروجر كلامها قائلة : كنت أهتم بمنزلى ، وأساعد زوجى فى عمله • اننى لاأعلم شيئا عن التجسس ، ولا صلة لى بمثل هذه الامور •

وبعد مناقشة قصيرة بين الاتهام والدفاع أوجز كبير القضاة الأدلة وقال للمحلفين :

ــ عليكم الاخذ بالادلةالمهيأة لكم فقط . فى هذهالقضية ثلاثة عناصر يتعين علىالاتهام اثباتها ، أولهاهل كان هناكاتفاق لنقل المعلومات ؟ ثانيها اذا كان هناك مثل هذا الاتفاق ، فهل كانت هذه المعلومات نافعة للعدو على نحو مباشر ؟ • ثالثها : هل كان الاتفاق يهدف الى الاضرار بسلامة الدولة ومصالحها •

ومضى كبير القضاة يستعرض الأدلة فى ضوء تكوينها ، وقال انها تدين المتهمين . ثم أشار الى «لونسديل» والزوجين كروجر فقال :

ــ قد تتساءلون : ماذا كانوا يفعلون فى كرانلى وريف •• وماذا كان يحدث هناك ؟ يقال فى جميع هذه الظروف ان النتيجة الحتمية هى أن سكان المنزل و«لونسديل» كانوا على اتصال بأشخاص خارج البلاد ، بأشخاص فى روسيا وان هذا الاتصال انما كان يتم اما عن طريق جهاز الارسال أو بواسطة الرسائل المصغرة أو بأية طريقة أخرى ، وبالنسبة لاتصال «لونسديل» بالخارج فليس هناك شك فى ذلك ، فهناك زياراته لكرانلى وريف ، التى تثبت ذلك ، وهناك الغلاف الابيض الذى وجدت به الرسائل المصغرة والرسالة المكتوبة بخط اليد • ولعلكم لن ترتابوا فى أن الرسالة المكتوبة بخطاليد لم تكن فقط ردا على الرسائل المصغرة

التى وجدت فى (القطرات) ولكنها كانت رسالة كتبها «لونسديل» نفسه فلماذا وجدت جميع هذه المعدات واجهزة الارسال ؟ ولماذا وجدت فى منزل كرانلى وريف ؟ ان الصورة التى يراد عرضها علينا ترمى الى ايهامنا بأن المستر كروجر منصرف انصرافا تاما الى كتبه ، وان زوجته مهتمة فقط بأعمالها المنزلية ، وأن كليهما يجهل جهلا تاما كل شيء عما فعله «لونسديل» فهل يمكن تصديق ذلك ؟ .

أما عن «هوفتون» فليس هناك شك فى أنه كان على اتصال وثيق مباشر «بلونسديل» ، وقد اعترف بأنه وافق على تقديم معلومات عن البحرية الى شخص ارتاب ، أو عرف ، انه اجنبى . اما قوله بأنه حرص على تقديم صور (مهزوزة) لنشره « خصائص البوارج الحربية » فغير مقتنع على الاطلاق .

ومضى كبير القضاة يقول : قد يتبادر الى أذهانكم أن الأرجح انه لم يكن ماهرا فى استخدام هذا النوع من آلات التصوير ، ولذلك أساء التقاط الصور .. هل تؤمنون بأن رجلا له سجل خدمة « هوفتون » ، ويتمتع بحماية الدولة كان يتصرف بدافع من الخوف ، ان الانسان حين يرتكب خطأ لاول مرة ولايبلغ عنه ، يرى من الصعب عليه الابلاغ عن هذا الخطأ فى المستقبل ، ولكن هذا ليس نوعا من الخوف الذى ندرسه الآن .

وأخيرا هناك الآنسة « جى » ذات الصلة الوثيقة « بهوفتون » و «لونسديل» الذى قالت انها اعتقدت انه كوماندر ببحرية الولايات المتحدة واعتبرت طلبه الحصول على المعلومات أمرا عاديا .

انها موظفة مدنية مختصة بتوزيع نشرات الاختبار ، وقد وقعت تعهدا بالمحافظة على أسرار الدولة ، وكانت تلم بجميع محتويات المنظمة وما بها من معلومات نتيجة للسنوات الطويلة التى قضتها فى عملها .. ان السذاجة التى تبديها انما هى مجرد تظاهر وادعاء ، ولهذا ينبغى عدم الاعتماد على ماتقوله ، فمن غير شك انها كانت تعلم ان ماتفعله خاطىء ، فقد اعترفت بذلك على الرغم من قولها انها لم تكن تعرف انها مذنبة .

وهكذا أنهى كبير القضاة تلخيصه للأدلة . واختلى المحلفون بأنفسهم مدة نصف ساعة ، ثم عادوا ليعلنوا قرارهم .

لقد اجمعوا على أن المتهمين الخمسة مذنبون .

وقبل النطق بالاحكام ، اعتلى كبير المفتشين «سميث» منصة الشهود ليفضى ببعض المعلومات التى وقع الشرطة عليها عن ماضى «لونسديل» ،

والزوجين كروجر ، فقال ان التحريات لم تسفر عن معرفة شخصية «لوسنديل» الحقيقية وان كان من المحقق انه ليس الرجل الذى يدعيه «جوردون ارنولد لونسديل» وانه يعتقد أنه روسى ، وعضو فى المخابرات الروسية ، ومضى «سميث» يدلى بموجز عن تحركات «لونسديل» منذ دخل الى الولايات المتحدة قادما من كندا سنة ١٩٥٥ ، فقد دلت التأشيرات المسجلة على جواز سفره على انه قام في صيف سنوات ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و١٩٥٩ و ١٩٦٠ برحلات طويلة الى الخارج تتراوح مدتها بين خمسة وعشرة أسابيع الى دول مختلفة .

ومضى كبير المفتشين يتحدث عن الزوجين كروجر ، وكانت هذه المعلومات مفاجأة للحاضرين بالمحكمة بل للدفاع نفسه . فقد ثبت ، على نحو قاطع ، ان اسميهما الحقيقيين : موريس ولورنا كوهين ، وانهما مواطنان أمريكيان يبحث عنهما مكتب البحث الجنائى الامريكى منذ أكثر من عشر سنوات ، وعلى وجه التحقيق منذ قبض على جاسوسى الذرة « جولياس واثيل روزنبرج » سنة ١٩٥٠ ففى هذا الوقت كان «كوهين» يعمل مدرسا فى احدى المدارس بمدينة نيويورك ، ولكنه سرعان ماستقال واختفى مع زوجته حينما أدرك أن رجال البحث الجنائى يجدون فى أثره وانهم يرتابون فى أنه أحد أفراد حلقة تجسس روزنبرج ، ومعأن الزوجين تركا شقتهما فى نيويورك من غير أن يأخذا معهما غير الثياب التى تكفيهما لقضاء عطلة الاسبوع ، فقد استطاعا أن يحصلا من مصرفهما على سندات ادخار تزيد قيمتها على ١٠٠٠ دولار . ولم تستطع السلطات معرفة الاماكن التى ذهبا اليها فيما بين شهرى سبتمبر ١٩٥٠ وابريل ١٩٥٤ وهو الوقت الذى ظهرا فيه فى فرنسا ، وان كان المعتقد أنهما أقاما فترة فى نيوزيلندا، لانهما حصلا على جوازى سفر نيوزيلنديين .

ولقد كان « موريس كوهين » ابنا لزوجين من الروس اليهود المهاجرين ، ونشأ فى ضاحية برونكس بنيويورك حيث الحق بالمدرسة واصبح نجما فى فريق كرة القدم بمدرسة جيمس مونرو العليا . وحين تخرجه من جامعةالمسسبى عرف بأفكاره اليسارية. وانضم للفرقة الدولية التى قاتلت فى جانب الجمهورية فى أثناء الحرب الاهلية الاسبانية . وحينما عاد الى نيويورك حصل على وظيفة فى منظمة التجارة السوفيتية ، وفي خلال هذه الفترة تزوج من « لورنا بتكا » وهى بولندية الجنس أمريكية المولد . ومنذ عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٥ خدم فى جيش الولايات

المتحدة ، وحين تسريحه ، تلقى منهاجا فى التدريس ، وعمل مدرسا فى مدارس مختلفة بمدينة نيويورك الى أن اختفى عـــام ١٩٥٠ ٠ ومن بين الذين كانوا يزورون الزوجين كوهين فى منزلهما بالشـــارع الحـــادى والسبعين رجل اسمه « ميلز او مبلتون » قدمه الزوجان لاصدقائهما على أنه رجل أعمال انجليزى ثرى ، وقد اتضح فيما بعــد أنه الكولونيــل « رودلف آيل » من المخابرات السوفيتية (حين قبض على آيل سنة ١٩٥٧ وجدت لديه صورة فوتوغرافية للزوجين كوهين) ٠ وقد تبين أن بصمات أصابع الزوجين كروجر هى بذاتها بصمات أصابع الزوجين كوهين ٠

وصدرت الاحكام وكانت على النحو التالى :

السجن ٢٥ عاما على لونسديل ، والسجن ٢٠ عاما لكل من الزوجين كروجر ، و ١٥ عاما لكل من هوفتون والآنسة جى ٠

الفصل الثالث

بريان دونالد هيوم ـ بريطاني حوكم في زيورخ

- ١ -

ذات صباح في أواخر مايو ١٩٥٨ ، استقل رجل ، كان له تاريخ اجرامي في بريطانيا ، الطائرة من مطار رنجواي بمانشستر في طريقه الى زيورخ وكان يحمل جواز سفر جاء فيه أن اسم حامله هو «جون ستيفن بيرد» وانه مهندس كيميائي في الثامنة والثلاثين من العمر . وكان في جيبه الفا جنيه استرليني يسعى لتهريبها الى خارج البلاد ، لانه لم يكن مسموحا لأي مسافر الى الخارج حينذاك بان يأخذ معه أكثر من خمسة جنيهات الا بترخيص رسمي . وكان قد حصل على هذا المال من طريق مشروع وان كان من الممكن أن يعتبر ثمار أعماله الاجرامية . أما جواز السفر فقد حصل عليه بالتزوير ، لانه زيف اسم الضامن في استمارة طلب الجواز . وكان قد كتب أخيرا سلسلة من المقالات الصحفية أحدثت ضجة بين الرأى العام البريطاني ، قال فيها : « أشعر بانني حصلت على جزائي عن الجريمة التي ثبت ذنبي فيها ، وهأنذا أرحل الآن للخارج تحت اسم جديد » .

كان اسم المسافر الحقيقي « بريان دونالد هيوم » وكانت أمه مدرسة من سوايندنج ، أنجبت ابنا غير شرعي هناك في شهر ديسمبر ١٩١٩ ، ولعل لعدم شرعية مولده صلة بما نشأ عليه هيوم من حقد على المجتمع . ولكن نشأته في ملجأ جعلت منه غلاما طيبا في بادىء الامر ، بيد أنه مالبث أن أبدى كراهيته للمجتمع بطرق مختلفة حينما كبر ، وكان أخطرها ذات مساء في شقة بلندن في شهر اكتوبر ١٩٤٩ حينما قتل رجلا اسمه ستانلي سيتي . وكان ضحية هيوم ، واسمه أصلا ستانلي سيتي ، وهو

يهودى من بغداد يتاجر فى السيارات وفى السوق السوداء ، قد أثار ثائرة هيوم حينما ركل كلب هيوم المحبوب بعد ان أفسد الطلاء الجديد الموجود على احدى سياراته •

وبعد أن قتل هيوم ضحيته سيتى بدأ يقطع جثته ، ثم قذف بهـا بعدئذ فى القنال الانجليزى من طائرة استأجرها ، الا أن الجثة طفت على سطح المـاء فى احراش اسكس ، حيث انتشلها صياد • ومالبث رجال اسكتلانديارد أن تمكنوا من معرفة شخصيته •

وألقى القبض على هيوم ووجه اليه اتهام قتل ستانلى سيتى • وأدى اكتشاف بقع دموية فى الشقة الى تقوية الاتهام ضده فى نظر القانون ، ومع ذلك فقد أدلى بقصة مذهلة للشرطة ، وظل متمسكا بهذه القصة طوال فترة محاكمته باولد بايلى • قال ان ثلاثة رجال ، عرفهم باسماء « ماك وجرينى وبرى » عرضوا عليه مائة جنيه مقابل اغراق طردين يقذفهما من طائرة ، وقدما له خمسين جنيها أخرى فى اليوم التالى للتخلص من طرد ثالث • وأقسم هيوم بأنه قبل القيام بهذه المهمة لانه كان فى أشد الحاجة للمال ، وأن أحد هؤلاء الرجال احضر الطرود الى منزله ، وانه ألقى بالطرد الثالث فوق الارض فتساقطت منه بعض قطرات الدم •

وبعد محاكمة استغرقت سبعة أيام ، فشل المحلفون فى الاتفاق على حكم ، فدعى محلفون آخرون للبت فى الموضوع ، وأصدروا حكمهم بعدم ادانة المتهم لعدم كفاية الادلة التى قدمها الاتهام • وكان هناك اتهام آخر وجه اليه هو الاشتراك مع المجهولين فى قتل سيتى ، وقد قبل هيوم هذا الاتهام لان فيه خلاصه من الاتهـام الاول ، ولذلك حكمت المحكمة عليه بالسجن اثنى عشر عاما •

وبعد أن قضى هيوم فى السجن أكثر من ثمانى سـنوات افرج عنه ، لحسن السير والسلوك ، من سجن دارتمور . وبعد ذلك بوقت قصير ذهب الى صحيفـة « سنداى بكتوريال » وحاول أن يبيع قصة تجاربه فى السجن ، ولكن الصحيفة لم تبد اهتماما بالقصة ، وأوحت الى هيوم بأن يكتب القصـة الحقيقية لمقتل « سيتى » والدور الذى لعبـه فيها . ووافق هيـوم على أن يكتب ، أو بالأصـح على أن يوقع على « اعتراف كامل » ــ لأن التحرير تولاه أحد محررى الصحيفة وحصل هيوم فى مقابل ذلك على ألفى جنيه ، وتعهد من الصحيفة بأن يمنح عشرة أيام قبل البدء فى نشر القصة يغادر البلاد فى أثنائها .

وبعد أن قضى محرر الصحيفة ثلاثة أسابيع مع هيوم فى فندق ، سجل فى خلالها جميع تفصيلات الجريمة واتم تدوينها والحصول على توقيع هيوم عليها ، دفعت الصحيفة الفى جنيه لهيوم . وكان هيوم قد ترك شاربه ينمو وتخلص من اسم هيوم وصبغ شعره ، ووضع عوينات سميكة على عينيه ، وحجز لنفسه مقعدا على احدى الطائرات الذاهبة الى سويسرا . وبعد أيام قليلة غادر انجلترا ونزل فى مطار كلوتن — بزيورخ .

وكانت الحياة التى قرر أن يبدأها هى أن يتنكر ويتقمص شخصية طيار اختبارات كندى . وكان قد حرص قبل مغادرة لندن على طبع بعض بطاقات باسم « جون بيرد » وعنوانه مونتريال . فلما نزل بزيورخ بدأ يطلع من يتصل بهم على هذه البطاقات ، وكان من بينهم قائد سيارة اجرة وقد دعاه بيرد « هيوم » لشرب كأس من الخمر معه فى نادى تراس على بحيرة لوسرن . وكانت هناك فتاتان تجلسان أمام (البار) ، واتفق ان كان قائد السيارة يعرف احدى هاتين الفتاتين ، فقال لهيوم : ان اسمها « ترودى سومر » وانها تدير صالونا للحلاقة فى روسنويج ؟ واضاف مغريا « انها فتاة لطيفة » . وبعد قليل كان هيوم يرقص مع الفتاة ، ولم يكد يمضى وقت طويل حتى كان قد احبها من كل قلبه . وفى ساعة متأخرة من مساء اليوم نفسه وفى حين كان هيوم والفتاة يحتسيان كأسا من الشراب فى فندق سانت جوتهارد الذى نزل به هيوم ، عرض عليها أن تتزوجه . وكانت الفتاة قد قالت له ، وهما فى النادى ، انها متزوجة ، وذلك — على حد قولها — لكى تمنعه من التمادى فى مغازلتها ، ولكنها اعترفت فيما بعد انها كانت قد طلقت حديثا من زوجها . وعلى أية حال لقد ادهشها عرض هيوم ، فقالت له « انك لا تكاد تعرفنى ، وليس فى استطاعتك أن تتزوجنى بالسرعة نفسها التى تقود بها طائراتك » .

وفى اليوم التالى قدم هيوم « لترودى » طاقة من الورد ، ودعاها لتناول الطعام معه ، فقبلت الاثنتين شاكرة ، لأنها كانت ترى الحياة مقبضة فى زيورخ ، كما أن صاحبة صالون حلاقة ، مثل ترودى سومر ، لاتجد كل يوم طيارا كنديا سخيا يغدق عليها حنانه واهتمامه . ولكن العشاء جاء مخيبا لآمال « ترودى » لأن صديقها كان مكتئبا يتصرف وكأن هناك حملا كبيرا يثقل كاهله ، وقال لها انه راحل الى

كندا فى اليوم التالى « فى مهمة خطيرة » الا أنه أكد لها ، وهما يفترقان ، أنه سوف يعود ويتزوجها .

والواقع أن هيوم كان قد ابتاع لنفســـه تذكرة الى مونتريال ، ووصل اليها فعلا بعد ذلك بأربع وعشرين ســـاعة . ولم تكن مهمته الخطيرة تتعدى التردد على نوادى مونتريال الليلية ، وغيرها من أماكن اللهو ، للاستمتاع بحاضره ، ولكنه سرعان ما شـــعر بالضـــيق من مونتريال ، وعول على الانطلاق جنوبا ولم يجد صعوبة فى الحصول على (فيزا) من قنصلية الولايات المتحدة فى مونتريال ، وبعد ذلك بقليل كان فى طريقه الى كاليفورنيا ، وهناك أنفق معظم ما تبقى معه من مال ، بعد أن أنفق الشطر الأكبر منه فى كندا ، وتحول تفـــكيره مرة أخرى الى « ترودى » وصالون الحلاقة الصغير فى روسنويج . وفى نهاية شـــهر يونيو عاد الى زيورخ ومعه مزيد من الزهور والهدايا لحبيبته .

قال وهو يقبلها : ترودى : حبيبتى ، لقد عدت لأتزوجك .

وكان من الطبيعى أن تبتهج « ترودى » ، وحينما ابتاع هيوم لها خاتما للدلالة على خطوبتهما سمحت له بالاقامة فى مسكنها . وحينئذ صارحها هيوم بأنه تخلى عن عمله كطيار اختبار ، وأنه التحق بوظيفة أخرى ، وتلك هى التجسس على الروس لحساب الأمريكيين ، ومع ما فى هذه القصة من اغراق فى المبالغة الا أن « ترودى » الغارقة فى الحب صدقتها ، وفى تلك الأثناء كانت موارد هيوم المالية تنضب سريعا ، فلم يبق معه أكثـــر من مائة وخمســـين جنيها ، ولذلك خطرت له فكرة جـــديدة ... لماذا لايتخذ من زيورخ قاعـــدة للقيام بغارات على بنـــوك انجلترا ؟ ان أحدا لن يشك فى عودته الى انجلترا بعد أن افتضـــح سر مقتل « سيتى » ومن ثم فانه سيصبح بمأمن تام فى سويسرا .

وهكذا عاد الى لندن فى الأيام الأخيرة من شهر يوليو ، حيث نزل فى فندق صغير بشارع بيكر ، تحت اسم « دونالد براون » وبعد أن قام بعمليات استكشاف قرر أن يسطو على بنك ميدلاند ، ببوستون مانور ، واختار يوم أول أغسطس ، أى يوم السبت السابق على عطلة البنك ، للقيام بغارته ، وهو يأمل أن يتمكن من الفرار ومعه أربعون ألف جنيـــه بأقل تقدير . ولقد وضع تفاصيل خطته بدقة لا تتوافر الا فى الخطط العسكرية ، فقد حزم حقائبه وأودعها بمكتب الأمانات بالمطار . وفى صباح اليوم التالى ذهب الى المصرف وقال : انه يريد الاستعلام عن فتح

حساب ، فأمده الصراف بالمعلومات المطلوبة وحينئذ قال له هيوم انه سيعود فيما بعد .

وقبل الظهر بلحظات ، أى فى الوقت الذى كان البنك يوشك فيه على اغلاق ابوابه ، عاد هيوم ، وعرفه الصراف ، الذى كان يهم باغلاق ابوابه ، ورأى فيه عميلا مرتقبا ، ولذلك سمح له بالدخول وأغلق الأبواب خلفه .

واخرج هيوم مسدسا من جيبه فجأة ، وسدده الى الصراف قائلا : ارفع يديك فوق راسك واحذر أن تتحرك .

واذ ظن أن الصراف يوشك على قذفه بالمحبرة ، أطلق رصاصة من مسدسه فسقط الرجل على الأرض وقد أصابه الطلق النارى فى بطنه .

وركض المغير خلف البنك حيث كان يوجد رجلان آخران وفتاة وصاح بهم : لن يصاب أحد منكم بضرر اذا فعلتم ما اقوله لكم ، ان كل ما أريده هو النقود .

وأمر الجميع بالدخول فى الغرفة الخلفية ، ثم قطع حبل التليفون وامرهم بأن يشد كل منهم وثاق الآخر . ثم اختطف كل ما استطاع الحصول عليه من نقود ، ولكنه ما لبث أن تبين أنهـا لا تزيد على ألف وخمسمائة جنيه ، وهو مبلغ تافه بالنسبة لما كان يحلم بالاستيلاء عليه . ومن ثم قال وهو يلوح بمسدسه :

ــ ماذا بشأن الخزانة الكبرى ؟ ماذا بها ؟

فقال احد الموظفين المقيدين : لا شيء غير دفاتر الحسابات !

والواقع انه كان بقبو المصرف مبالغ ضخمة جدا ، ولكن هيوم لم يعرف بأمرها

وفى تلك الأثناء بدأ الصراف يئن . وأخذت الفتاة تتوسل الى هيوم أن يسعفه ، فوضع هيوم شيئا تحت رأس الجريح ، ووعد بطلب الاسعاف بمجرد خروجه .

وقبل أن يستقل هيوم القطار من محطة كيو بروج اتصل تليفونيا بأحد الأطباء وطلب اليه الذهاب للبنك لاسعاف مريض هناك .

وحينما وصل هيوم الى باتنى ، نزل من القطار وذهب الى مكتب

الأمانات حيث استرد حقائبه ، وبعد أن تخلص من شخصية « دونالد براون » وأصبح « جوني بيرد » سافر من فيكتوريا الى باريس ، وفي اليوم التالي ركب الطائرة عائدا الى زيورخ حيث توجد « ترودي » .

وذهب مترددا مع « ترودي » الى مكتب المسجل لمعرفة اجراءات الزواج . وهناك اخبره الموظف المختص بضرورة احضار شهادة ميلاده وبأنه لابد من اجراء بعض التحريات عنه في لندن . وبعد أن تطلع الموظف الى صورة « جون ستيفن بيرد » الموجودة بجواز السفر ، ثم تأمل هيوم الذي كان قد حلق شاربه منذ أمد طويل ، قال له « ان هذه الصورة لا تشبهك » . ثم نصحه باعادة تجديد جواز سفره ، وكذلك بدت الصورة لشخص غريب في عيني « ترودي » التي تأملتها بعد أن أعاد الموظف جواز السفر .

وفي منتصف شهر اغسطس عاد هيوم الى مونتريال ، وهو يأمل أن ينسى « ترودي » ولكنه بدلا من نسيانها استطاع أن يحصل على وثائق رسمية مزيفة تثبت أنه « جون بيرد » مهندس الطيران المقيم بالمنزل رقم ١٢٠٩ بشارع ماي بمونتريال ، وأنه رعية بريطانية وأعزب . ثم عاد الى زيورخ وارجأ تاريخ الزواج فترة طويلة ، ولكنه ما لبث أن وافق تحت ضغط « ترودي » على أن يتم الزفاف في شهر فبراير المقبل . وكان قد قرر القيام بغارتين على مصرفين قبل هذا التاريخ ، اولاهما على فرع بنك ميدلاند بلندن . وقد أتمها فعلا يوم ١٢ نوفمبر ولم يظفر منها ألا بثلثمائة جنيه فقط ، أما الاغارة الثانية وهي التي حاول القيام بها في زيورخ فكانت القاضية عليه . .

ففي يوم ٢٩ من يناير ١٩٥٩ ودع « ترودي » التي كانت تجهل كل شيء عن نواياه ، وراح يتسكع حول احدى الكنائس حيث قضى ليلته ، وتناول طعام افطاره في صباح اليوم التالي من القربان والنبيذ ، وبعد ذلك بساعة أو نحوها مضى الى فرع صغير لمصرف جيسوربي واطلق الرصاص على الصراف الذي استطاع استعمال جهاز الانذار على الرغم من اصابته البالغة . وبعد أن اختطف اللص مبلغا ضئيلا لا يعدو ٢٠٠ فرنك سويسري اندفع الى الشارع يطارده اثنان من مستخدمي البنك . وأخيرا لحق به طباخ أحد الفنادق وقبض عليه بعد أن قتل قائد سيارة « تاكسي » اسمه آرثر باخ ، كان قد حاول القبض عليه .

وبينما كانوا يقودون هيوم الى سجن زيورخ اذ قال هيوم ، الشهير ببراون ، والشهير ببيرد : لقد انتهى أمري

ونقل فيما بعد الى سجن ريجنسدورف ، حيث وجهت اليه خمسة اتهامات هي : القتل ، والشروع فى القتل ، والسرقة المسلحة ، والتهديد بالقتل ، ومخالفة تعليمات الاتحاد السويسرى الخاصة بالاجانب .

- ٢ -

بعد أن قضى هيوم ثمانية شهور فى السجن استجوب فى أثنائها استجوابا مستفيضا وفحصه طبيب للأمراض العقلية ، قدم للمحاكمة أمام محكمة ونترثور ، بالقرب من زيورخ يوم ٢٤ من سبتمبر ١٩٥٩ ..

ففى الساعة الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم ، وقفت سيارة محصنة ضد الرصاص أمام مبنى المحكمة وهبط هيوم منها فى حراسة شرطيين عملاقين وكان معصماه مقيدين الى ركبتيه بالسلاسل ، وابتسم فى وجه جمهرة الصحفيين الذين كانوا يحيطون بباب المحكمة ... كان هذا يومه العظيم ، وقد قرر أن يجعل منه يوما مثيرا . وفى داخل المحكمة أجلسوه فوق مقعد عادى أمام منضدة طويلة جلس وراءها القضاة الثلاثة الذين تقرر أن ينظروا القضية .

وافتتح الرئيس ، الهادىء الخلق ، الدكتور « هانز جات » الذى استنفد صبره كثيرا فى أثناء المحاكمة ... افتتح المحاكمة بأن طلب من المتهم الوقوف وذكر اسمه وتولى مترجم المحكمة ترجمة أقوال الطرفين :

ــ هل صحيح أن اسمك براون ، وأنك كنت معروفا قبل ذلك باسم هيوم ؟ .

ــ انك تسأل سؤالا أحمق وستحصل على اجابة حمقاء !

ــ ما اسمك ؟

ــ ألا تعرفه ؟ لعلك بحاجة الى عوينات أكثر سمكا !!

وأردف هيوم صائحا ، وهو يشير الى رئيس المحكمة : قل لهذا الأحمق أنه كان ينبغى أن يعرف من أنا !

وبعد هذا الاستهلال ، قال السجين انه عرف أحد القضاة ، ولذلك فانه يعترض عليه ..

وأشار الى القاضي المقصود ، ولكن هذا أبدى أنه لم يسبق له رؤية المتهم • وصاح بغضب شديد :

ـ انني لم أره من قبل على الاطلاق !!

وحينما قرأ كاتب المحكمة قائمة الاتهام ، قال هيوم انه فهمها وليس بحاجة الى مترجم ••• وبدأ القاضي يستجوب المتهم عن ماضي حياته ،وقال هيوم :

ـ اننا في سويسرا نتلهف كل اللهفة على معرفة شخصية كل مدعى عليه بالدقة •

وحينما سئل : هل أنت متزوج ولك طفل ؟ أجاب هيوم :

ـ نعم ، ولكنه لم يكن طفلي •• كان أبوه ستانلي سيتي !

وكان هذا التصريح كاذبا كذبا تاما •

وفي اليوم نفسه أصدرت زوجة هيوم السابقة في لندن التي طلقته بسبب قسوته البالغة وتزوجت غيره ، تكذيبا شديد اللهجة لهذا القول عن طريق محاميها •

ومضى رئيس المحكمة يسأله عن نشأته ، وعن الحياة في الملجأ الذي قضى فيه نحو خمسة أعوام ، فأجاب هيوم :

ـ كانت حياة غير مريحة جعلتني متحاملا على المجتمع •

ـ هل تظن أن شيئا معينا حدث لك حينذاك ، وأثر في حيـــاتك فيما بعد ؟

ـ ليس في استطاعتي أن أبدي حكما • لقد حدثت عدة أشـــياء ولكني لا أظن انها خلقت أثرا •

فأردف الرئيس : الواقع أنني ألقي عليك هذا السؤال لان كثيرا من الصحف قالت ان الاحداث التي وقعت في الملجأ أثرت على حياتك •

فأجاب السجين : هناك أشخاص آخرون وصلوا الى هذه النتيجة. أما أنا فلا •• كان الاطفال يعاملون أسوأ معاملة • لقد كنت أضرب فوق رأسي بمطرقة أو فأس ، ولكن ذلك لم يؤثر على حياتي فيما بعد فيما أظن•

ـ ذكرت بعض الصحف ، التي تحدث مندوبوها معك ، ان المعاملة السيئة التي لقيتها أثارت حفيظتك على الانسانية بصفة عامة •

ـ يجوز . لقد قلت ان لمعاملة زوج ابى لى أعظم التأثير على كل ما فعلته فى حياتى . لقد حدث ذلك وأنا فى الثامنة من عمرى ، أى بعد خروجي من الملجأ ، ولكنى لا أظن أن للبيئة شأنا فى خلق عنصر الاجرام فى عقل الانسان .

ومضى رئيس المحكمة يسأل المتهم ، هل ما قلته لخطيبتك السيدة « ترودى سومر » صحيح أو أن نصفه كان أكاذيب ؟

فسأله المتهم بدوره : وماذا قلت لها ؟

ـ تاريخ حياتك !!

فقال هيوم بصرامة : كان كذبا .

ـ هل قلت للسيدة سومر أن أمك فى الثامنة والستين ، وأنك تعولها لان أباك لا يفيق من الخمر ؟

ـ نعم . لقد خدعت السيدة سومر . اننى لم أحدثها بقصة حياتى ولم أقدم لها مؤلفات عنها ..

وفى أثناء سؤاله عن أيام دراسته ، تحول هيوم الى النظارة فجأة وقال :

ـ هل المستر تشيسنى موجود فى قاعة المحكمة ؟ أريده شاهدا .

(كان رجل انجليزى ، اسمه رونالد تشيسنى ، قد أطلق النار على نفسه فى غابة بألمانيا بعد أن وجدت زوجته مخنوقة فى حمام منزلها بلندن ، كما وجدت أمها مذبوحة ، وكان المعتقد أن تشيسنى طار الى انجلترا من امستردام وارتكب جريمته ثم عاد الى القارة)

وتجاهل رئيس المحكمة هذه المقاطعة ، واستمر فى استجواب المتهم . فسأله هل صحيح انك تطوعت فى سلاح الطيران الملكى سنة ١٩٣٩ ؟ وأجاب هيوم مؤمنا . وقال انه انضم لسلاح الطيران للمران ، ولكنه أصيب بمرض الالتهاب السحائى بعد ذلك بعامين فترك الخدمة .

وهنا قلب رئيس المحكمة تقريرا أمامه كان قد تلقاه من اسكتلانديارد عن تاريخ حياة هيوم . فصاح المتهم غاضبا :

ـ اذا كان المحلفون يصدقون ما كتبه مفتش سفيه ، فليس هناك اذن مايدعو لأن أقول لكم العكس .

ـ اذا كان ما جاء فى التقرير خطأ ، فقل ذلك ٠

ـ كان ينبغى أن تدعونى أتمكن من الحصول على أوراق فصلى ٠٠ فاما أن تصدقوا مايقوله مفتش من اسكتلانديارد ، أو تصدقوا أوراق فصلى من سلاح الطيران الملكى ٠ ولكنكم لم تمكنونى من الحصول على أوراق فصلى ، ومن ثم فانكم تصدقون اسكتلانديارد ٠

(بعد ترك سلاح الطيران الملكى اشتغل هيوم فى أحد المصانع ، وابتاع فيما بعد بزة رجال سلاح الطيران الملكى وادعى أنه ضابط ٠ وقد اعترف هيوم بأن هذا الجزء من تقريراسكتلانديارد صحيح) وقال التقرير الذى تلى على المحلفين ـ ان هيوم ادعى أنه ضابط بسلاح الطيران سنة ١٩٤٢ ، وأنه كان يرتدى البذلات الرسمية لبعض الضباط الذين كانوا معه سابقا بعد أن سرقها منهم ٠ ولقد زار هيوم محطات سلاح الطيران الملكى فى تلك الفترة ، وصرف شيكات مزيفة وحصل على نقود مستعينا فى ذلك بادعاءات أخرى كاذبة ٠

وللمرة الثانية قاطع المتهم رئيس المحكمة قائلا :

ـ ان كل ما جاء فى تقرير اسكتلانديارد ضدى ٠٠ لماذا لم يشتمل على ما هو فى مصلحتى ، كالمغامرة التى قمت بها ذات مرة لانقاذ طفل من النهر ، وانقاذى قطا من فوق سقف لأن رجال الشرطة تهيبوا المخاطرة ؟ ان هذا التقرير لا غاية له الا أن يلطخ ماضى ٠

وسأله الرئيس : هل أنتجت « ويسكى » غير مشروع عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ؟ فأجاب المتهم : نعم ، ولكنى لم أفعل ذلك الا بدافع من حماسى للحرب ٠

ـ كيف أنتجت هذا الويسكى ؟

ـ كنت أقطره من البطاطس ٠

ـ هل كان لك نشاط آخر فى السوق السوداء ؟

ـ لا أعتقد أنه كان هناك انسان لم يكن له نشاط فى السوق السوداء حينذاك ٠

وقلب رئيس المحكمة صفحات التقرير الموضوع أمامه فوق المنضدة ٠ ثم سأله :

ـ هل صحيح أنك سرقت مدافع رشاشة من ترسانة بريطانية بالاشتراك مع رجل ايرلندى ؟

فأجاب هيوم من فوره : نعم ، لقد جرحت فى صدرى من أجل ايرلندا ٠

وحينما سئل عن أسباب تحطم زواجه ، قال هيوم انه كان يعارض أشد المعارضة في صداقة زوجته لشخص آخر ٠

ـ ومن كان هذا الشخص ؟

ـ رجل اسمه سيتى !

وسأله رئيس المحكمة أين كان سيتى هذا ، فأجاب السجين اجابة أثارت ضحك الموجودين من الانجليز :

قال : انه لم يعد على قيد الحياة !

فقال رئيس المحكمة : ليس فى هذا الكفاية ٠ ليس لدينا صحف انجليزية هنا ٠٠

وهنا تدخل المترجم ليوضح للسجين انه عليه أن يذكر ما حدث بايجاز ٠

فأجاب هيوم : لقد مات ٠

ـ وكيف مات ؟

فقال هيوم : بالعنف !

ثم تحول الى المترجم وقال له : قل للرئيس اننى على استعداد لسرد الحقائق المتعلقة بموته ، ولكن هل أحاكم ثانية بسبب مقتل سيتى ؟

فقال الرئيس مؤكدا : لن تحاكم بسبب مقتل سيتى ـ الا أنه من الضرورى تقديم الصورة الكاملة للمحلفين ، اذاكنت تقول ان سيتى قتل، لانه كان من المستطاع أن يتم هذا القتل بطرق كثيرة ٠٠

ـ لقد قتلته بمدية ٠ والواقع أن فرصته لقتلى كانت أعظم من فرصتى لقتله ٠

ـ وماذا كان سبب القتال ؟

ـ وجدته فى موقف مخز مع زوجتى !

وبدأ المترجم يترجم حرفيا حينما قاطعه هيوم قائلا : هل من الضروري لشرح كلمتى « موقف مخز » ؟

ويظهر أن رئيس المحكمة فهم المقصود ، اذ سأل المتهم : هل سبق لك التشاحن مع سيتى قبل هذه المرة ؟

ـ لا • لم يسبق أن تشاحنت معه جديا • لم يكن أحدنا يحب الآخر ولكن كلا منا كان يربح نقودا من وراء الآخر •• لقد ركل كلبى ذات مرة•

ـ هل تعنى أنك قتلت سيتى بدافع الغيرة ؟

ـ نعم : كانت الغيرة بداية المعركة •

وجوابا على مزيد من الاسئلة حول هذا الموضوع ، قال هيوم انه نشر رأس سيتى وساقيه وفصلها عن بدنه ووضع الجثة وأجزاءها فى طردين ألقى بهما من طائرة فى القنال الانجليزى •

وفى أثناء الاستجواب استدار هيوم الى المترجم وانفجر قائلا :

ـ قل له (للرئيس) ان المسألة اذا تطورت الى مباراة باللغة العامية فسأمزقه اربا (لم تترجم هذه العبارة) •

قال الرئيس : لقد حكم عليك فى هذه القضية بالسجن اثنى عشر عاما قضيتها في سجون مختلفة • فهل صدرت ضدك أحكام تأديبية فى اثناء هذه الفترة ؟

ـ نعم •• عدة مرات فى البداية •

وهنا قال رئيس المحكمة : ان التقرير الوارد من سجن ويكفيلد يقول انه : « ليس من المستطاع الثقة بهيوم » ولو انه لم يثر متاعب خطيرة فى أثناء وجوده فى السجن ، الا انه عوقب مرتين فى أثناء وجوده فى ويكفيلد ، وفى عام ١٩٥٣ نقل الى سجن وارثمور •

فسأله هيوم بقحة : هل هذه الاشياء تهم المحلفين ؟ لقد عوقبت أيضا فى ريجنسدروف لاننى قذفت ثمرة من البطاطس ذات مرة !

وبينما كان هيوم يعاد الى المحكمة تحت الحراسة المسلحة بعد فترة الغداء ، اذ انقض على مصور صحفى كان يلتقط له صورة ولطمه بعنف بالغ • وكان من سوء الحظ ان اللطمة أخطأت الصحفى •

وحينما استؤنفت جلسة المحكمة بعد الظهر سئل هيوم عن جوازات

سفره المختلفة ، ولكنه رفض بعناد أن يجيب عن أسئلة رئيس المحكمة . ولكنه كان أكثر استعدادا للاجابة عن الاسئلة الاخـــرى ، كالاجابة عن سؤال عن رحلاته لالمانيا الشرقية اذ قال للمحكمة :

ـ كنت مع الدكتور كلوس فوش فى السجن ، وقد أعطانى رســالة طلب منى تسليمها لأبيه فى ألمانيا الشرقيـــة ، الا أن الســبب الرئيسى لرحلاتى الى الشرق كان رغبتى فى مقارنة الدول الشيوعية بالغرب .

وأكد هيوم فى الوقت نفسه أن الغاية الرئيسية من هذه الرحلات كانت دراسة الاحوال الاجتماعية . وأعترف أيضا بأنه كان دائم العطف على الحزب الشيوعى .

وفيما يتعلق بحالات السطو على البنوك الثـلاثة التى اســـتجوب بشأنها بدقة ، لم يحاول المتهم اخفاء شيء ، وقدم للمحكمة اجابات تفصيلية ولو انه اتهم القاضى فى أثناء الاستجواب بأنه «يحاول صلبه» وقال انه غير آسف على الحادثين اللذين ارتكبهما فى انجلترا ، ولكنه أبدى بعض الأسف على الحادث الذى ارتكبه فى سويسرا .

وقال للمحلفين : انه لحادث غريب يصدر عنى ، فاننى رجل حى الضمير . صحيح أن ضـــميرى ضئيل ولكنـــه موجود ، ولذلك فاننى لم أغتفر لنفسى الحادث الذى ارتكبته فى ســـويسرا . كنت أعتزم تكراره ولكننى فشلت .

وحينما كان يغادر قاعةالمحكمة فى نهاية اليومممسكا بذراع حارسه . يتوقف لحظات ليتيح للمصورين الصحفيين فرصة التقاط صوره،وكأنما عفا عنهم فى النهاية . وراح يبتسم لهم ابتسامة عريضة .

- ٣ -

وجيء به الى المحكمة فى اليوم التالى مكبلا بالاغلال وفى حراســـة رجال شرطة مسلحين بالمدافع الرشاشة ، وكان يبدو طوال اليوم رزينــا مستغرقا فى الفكر على عكس ما كان يبدو منه من نزق فى اليوم الاول .

واستمر رئيس المحكمة فى استجوابه عن الاحـــداث التى أدت الى سطوه على بنك جيورب ، واعترف هيوم بأنه قال « لترودى سومر » يوم ٢٣ من ينــاير انه راحل الى مونتريال ولكنه بقى فى زيورخ . وعاد الى خطيبته فى الليلة التالية وقال لها انه لم يستطع الطيران .

ـ هل كانت نيتك الأصلية من رحلتك يوم ٢٣ البقاء بعيـدا فترة من الزمن ، كما حدث فى المناسبتين السابقتين والقيام بالسطو على المصرف ان أمكن ؟

وأجاب هيوم بأنه كان يفكر فى العودة الى كندا ، ولكنه عدل عن رأيه لانه لم يكن يملك مالا ، كما أنه كان يشعر بانحطاط نفسى فى ذلك الوقت ٠

ـ هل قلت فى مناقشة مع « ترودى » انك شرير تريد أن تنتحر ؟ وهل قلت لها انك حاولت كتابة قصة حياتك ؟

فأجاب هيوم : نعم ، لقد كتبتها وضمنتها ما حدث لى منذ جئت الى سويسرا ، كما سجلت فيها حوادث السطو على مصـــــارف لندن ٠ وقد وضعت الترتيبات أو بدأت فى اجراء اتصالات لأحصل على النقود اللازمة لها حتى أتركها فى النهاية وهى فى حالة مالية طيبة ٠ وقد أردت أن أؤكد ذلك حينما قلت للمسز « سومر » اننى رجل شرير ولكننى لم أحدثهـا بحوادث السطو على المصارف وأفضيت اليها بقصة أخرى ٠

ومضى المتهم يقول انه اعتزم الهجرة الى كندا مع « ترودى سومر » بعد زواجهما ولكنه لم يضع أية ترتيبات لهذه الرحلة . وقال انه حصل لها على جواز سفر سويسرى باسم المسـز «كاجلمان» ولكن «ترودى» لم تكن تعلم شيئا عن ذلك ٠ ولقد كان يشعر بانقباض شديد ولذلك خطر له أن عيد الميلاد ، الذى قضاه مع أسرة « ترودى » سيكون آخر عيد له ٠ وأضاف هيوم قائلا انه رأى مؤسسة البوليس الدولى توزع صـــوره على الصحف ، ولاحظ أن مكافأة قدرها ٦٠٠٠ جنيه ستمنح لمن يأتي به . وفى خلال رحلته الاخيرة لكندا عرف أنه من الخطر أن يعود الى أوربا ولكن حبه « لترودى سومر » كان أقوى من مخاوفه فعاد ٠

ـ هل قلت للمسز سومر أنك تكره الناس جميعا ما عداها ؟

ـ نعم ٠٠

ـ هل كنت مضطرب الأعصاب شديد الحساسية ؟

ـ نعم ، ولكن ما كتبته الصحف عنى كان سخفا ٠

فقال رئيس المحكمة : لا علم لى بذلك ٠ كل ما أردت معرفته هو هل يجب أن ندعو « ترودى سومر » للادلاء بالشهادة أو لا ندعوها ٠ ولكنى أعتقد أننا لم نعد بحاجة اليها هنا ٠٠

ـ أشكرك أعمق الشكر

ومضى القاضي يقول : ان واجبي أن أقول ان « ترودي سومر » قالت انك كنت صريحا معها الى أن نضب معينك المالي في الأيام الأخيرة ٠

وهنا قال هيوم انه كتب للمحكمة يطلب اليهـا تجنيب « ترودي » متاعب العلانية ٠

وحينما سئل : كيف قضيت وقتك قبل القيام بعملية السـطو ؟ اعترف بأنه ذهب الى كنيسة انجليزية في زيورخ حيث قضى بها ساعتين في «التفكير» ، ثم ذهب للحصول على طعام . ودخل احدى دورالسينما ، وبعد ذلك عاد الى الكنيسة وقضى ليلته في غرفة القس ، ولكنه لم يستطع النوم ، واعترف هيوم بأنه أفطر من قربان الكنيسة ونبيذها ٠

وهنا عرضت على المحكمة علبة من الكرتون بهـا ثقب ، واعترف هيوم بأنه أخذها من الكنيسة ٠

سأله القاضي : ماذا كانت فكرة هذه العلبة ؟

ـ لحمل النقود فيها ٠

ـ هل كانت أيضا لاخفاء مسدسك ؟

وحينئذ تحول هيوم الى المترجم وقال له :

ـ أرجو أن تترجم ما يلي للرئيس بدقة ٠٠ انني لا أستطيع المجادلة في ذلك ، ولكن الغاية الوحيدة من هذه العلبة كانت حمل النقود . انني لم استخدم العلبة لاطلاق المسدس ٠ انني اعلم أن هناك من اقترح أنني فعلت ذلك ٠ فاذا كان المحلفون يصدقون ذلك ، فهم أحرار ٠

ولكنه أعترف بأن العلبة كانت أمامه في البنك حينما أطلق النـار .

وبعد أن غادر الكنيسة ذهب أولا الى محطة السكة الحديد الرئيسية بزيورخ حيث دخل المطعم وتناول بعض الأقراص ليستطيع التفكير باتزان وفيما بعد ذهب الى احدى البحيرات وأطعم البط ، وبعد نحو نصف ساعة ذهب الى البنك ، وفي الطريق حشا مسدسه ٠

سأله الرئيس : هل كنت مستعدا لاطلاق النار ؟

واجاب المتهم : نعم

ـ كم كان عدد الرصاصات التي حشوت المسدس بها ؟

ـ كان معى أربع رصاصات . ويحتمل أنه كان بالخزانة أربع وواحدة فى الماسورة ، واثنتان فى جيوبى ٠

ـ هل كنت واثقا من نجاح خطتك للسطو على المصرف ؟

ـ كنت أعلم أنها ستفشل ولكنى أقدمت عليها ٠

فسأله الرئيس باهتمام : لماذا أقدمت عليها على كل حال ؟

ـ من الصعب الاجابة عن هذا السؤال ٠ لم أكن راغبا فى أن يدمغنى ضميرى بميسم الجبن ٠

ـ ألم يذكرك ضميرك بأن اطلاقك الرصاص قد يقتل أشخاصا أو يجرحهم مع عدم ايمانك بنجاح المغامرة ؟

ـ لم أكن واثقا من أنه سيكون من الضرورى اطلاق النار على أحد
ـ هل اتخذت أية احتياطات لهروبك بعد السرقة ؟

ـ لا ٠ لم أضع خططا هذه المرة مثلما فعلت من قبل ٠

واستمر هيوم فى سرد قصته فقال: انه بمجرد دخوله البنك صاح : « ارفعوا الأيدى » ولو أن « والتر سكنك » الصراف الذى أطلق عليه النار بعد ذلك بلحظات نفى أن هيوم قال شيئا ٠ وقال هيوم انه أطلق النار عليه أيضا ٠ ومضى المتهم يقول : انه كان من السهل عليه «تصفيتهم» لو أراد ذلك ، لأنه بارع فى الرماية بالمسدس ٠

ـ هل صحيح أنك وضعت علبة الكرتون على البنك وأطلقت النار منها ؟

ـ نعم ٠٠

ـ هل سددت مسدسك ؟

ـ لا ٠ كانت طلقة سريعة حينما تحرك « سكنك » الصراف .

ـ ما رأيك فى الرصاصة التى أطلقتها على الكاتب الآخر ؟ هل أدخلت فى حسابك احتمال قتله ؟

ـ فيما بعد ٠ كان من السهل ادراك احتمال قتله ، أما وقتذاك فقد أطلقت النار من غير تفكير ٠

ـ لقد ذهبت الى البنك وفى نيتك اطلاق النار بالطريقة نفسها

التى استخدمتها عند سطوك على بنك ميدلاند ، ومن ثم كان يجدر بك أن تعلم احتمال قتل أحد الموظفين ٠

ـ لم أفكر فى النتائج ٠

ـ على اية حال ، ان اطلاق النار خبط عشواء يمكن أن يقتل رجلا !!

ـ هذا واضح ٠

ـ قلت للمحكمة ان مدير فرع برتتنورد ، التابع لبنك ميدلاند ، اصيب اصابة بالغة ، ولذلك كان عليك أن تحسب حساب احتمال القتل ؟

فأجاب هيوم بقحة متناهية ازعجت المحكمة : نعم ٠ لكن فيما يتعلق بمدير البنك الانجليزى ، ينبغى أن أقول انه انقض على وأوقعنى على الأرض ٠ كان هو الذى هاجمنى ، وأعتقد أنه نال ما يستحق ٠ هنــاك نص قانونى فى انجلترا يقول ٠ ان من يقتل رجلا فى أثناء السرقة يحكم عليه بالاعدام فلابد أن يكون هناك نص مماثل بشأن أمثالى من الأشخاص الذين يقتلهم مديرو البنوك ٠

ـ ماذا حدث بداخل بنك جيورب ؟

فأجاب هيوم ، وهو يشير الى رسم توضيحى للمصرف : وثبت هنا ودخلت الى الغرفة ٠ كان الرجــل الذى أصيب ملقى عــلى الأرض ، أما الآخر فأمسك رأسه بيديه ٠ وتقدمت من الخزانة فنهض رجل ، فظننت أنه سيحرك جهاز الانذار فلطمته بمسدس على رأسه ثم اشتبكنا فى عراك فضربته برأسى ٠ وحينئذ ، فقدت مسدسى ولكن لم يكن فى نيتى قتله ، وانما كنت أريد التخلص منه فقط ٠

ـ هل تعقبك أحد ؟

فأجاب هيوم بعد تردد : أظن أننى قابلت تلميذ الصانع « فيتز » ، وحينئذ ، قال القاضى للمحلفين انه حينما سألت الشرطة هيوم اول الامر قال انه لم يطلق النار على هذا الشاب « لأن لون شعره كان كلون شعر ترودى سومر » ٠

وأخيرا سأله القاضى عن اطلاق النار على قائد السيارة وعن الجهة التى جاء الرجل منها ٠

ـ رأيته يعدو خلفى ولم تكن المســافة بيننا تزيد على طول هــذه الغرفة .

ـ وماذا حدث وقتئذ ؟

ـ أطلقت النار عليه !

ـ ماذا كان طول المسافة بينكما ؟

ـ نحو ستين قدما ..

واستطرد هيوم قائلا أن قائد السيارة « سقط » وحينئذ انقض شخص آخر على ظهره .

ثم قال : واحاطت بى جمهرة كبيرة من الناس ، وكان من بينهم رجل جذب شعرى . وهذا هو كل ما أذكره ، ولقد سررت حينما جاءت الشرطة .

فسأل الرئيس : هل ضربك الجمهور ؟

فأجاب المتهم من غير مبالاة : نعم . أظن أنه على من كان فى مركزى ان يتوقع حدوث ذلك . لقد كاد الرجل الذى جذب شعرى أن يفتك بى لولا تدخل الشرطة .

واشار هيوم الى الشاب اولريش فيتز وقال :

ـ ان هذا الشاب يستحق اية جائزة يمكن أن يقدمها بنك ميدلاند فقد تعقبنى طول الطريق ، أما الآخرون فطاردونى بعد ذلك .

وبذلك انتهى استجواب المحكمة للمتهم . وسأل الرئيس الاتهام والدفاع : هل لديكما اية اسئلة تريدان توجيهها الى هيوم ؟ وحينما أجابا بالنفى ، استدعى أول شهود الاتهام للادلاء بشهادته .

وكان هذا الشاهد صراف البنك « والتر سكنك »

وبعد أن وصف « سكنك » ما حدث بالبنك ، قال انه نقل للمستشفى حيث أجريت له عملية نقل دم ، وأعقبتها عملية جراحية . وظلت حياته فى خطر اسبوعا كان فى خلاله شبه فاقد الوعى .

وسأله المدعى العام : هل طالبت بتعويض ؟

ـ لقد دفع البنك لى تعويضا ؛ كما أننى لم أعان من خسائر مالية الا أنه ليس هناك تعويض عن الألم .

فقال الاتهام : عندى لك مفاجأة لطيفة • ستحصل من هيوم على مائتى جنيه كتعويض أدبى ، ومن المتوقع أن يصل هذا المبلغ فى الأيام القليلة المقبلة •

(الواقع أن هيوم دفع هذا المبلغ للصراف الجريح بعد ذلك بثلاثة أيام)

وكان الشاهد الثانى مساعد الصراف (أدوين هاج) وهو كهل فى الرابعة والخمسين من العمر ، قال انه قبل وصول المتهم كان المصرف خاليا ، فانتهز الفرصة للاتصال بزوجته تليفونيا ، فقد كان جهاز التدفئة المركزية الموجود في منزله معطلا منذ يومين ، وأراد أن يعرف ان كان قد تم اصلاحه •• وبعد أن أطلق المتهم الرصاص وسقط «سكنك» على الأرض • سأل الشاهد زوجته أن كانت قد سمعت صوت طلق نارى ، فأجابت السيدة «هاج» بأن شيئا ما لابد حدث ، وبعد ذلك بلحظات رأى هيوم يتقدم نحوه :

ـ فهاجمته ، وبدأنا صراعا • ونجحت فى الامساك بجهاز الانذار بيدى اليمنى ، فجن جنون الرجل ولطمنى على رأسى بمسدسه • وبعد دقائق قليلة عاد الرجل من الطريق الذى جاء منه ، فوثبت فى اثره الى الشارع •

وبعد ذلك وصف السيد « هاج » كيف قابل فيتز خارجا من مكتب البريد المجاور للبنك وحذره من السلاح الذى يحمله هيوم ، بدأ يصيح : «اقبضوا عليه اقبضوا عليه» ثم عاد الى البنك • وهنا قال الاتهام للسجين:

ـ يصر هذا الشاهد على أنه لم يكن جالسا أمام مكتبه ، وانما كان يتحدث تليفونيا •

فقال هيوم باصرار : بل كان جالسا الى مكتبه ، ولعله كان نائما كان يعتمد رأسه بيديه ، وقد نهض بعد ذلك •• اننى واثق من صحة ما أقوله ثم انقض على • فتشابكنا ولكنى لم أفعل شيئا الا حينما حاول أن يقبض على •

وهنا قال أحد المحلفين انه من الجائز أن الفزع ركب «هاج» ولهذا عاد الى مكتبه واعتمد رأسه بيديه •

وبدت علامات الكبرياء على الشاهد وقال : اصر على أننى كنت أتحدث بالتليفون ، واضطررت لانهاء المكالمة وضج الحاضرون بالضحك •

خصص معظم اليوم الثالث من المحاكمة لسماع شهادات مختلف الشهود الذين اشتركوا فى مطاردة هيوم بشوارع زيورخ ، وشاهدوا اطلاق الرصاص على قائد سيارة الأجرة التعس الذى حاول اعتراض طريق الهارب واشترك فى القبض عليه فى النهاية ..

سأل رئيس المحكمة المتهم : هل سمعت ما كان الناس يقولونه ؟

فأجاب باسما : نعم . عندى فكرة عن ذلك .

ـ هل صحيح أنهم كانوا يريدون شنقك ؟

ـ أظن ذلك .

وحينما وصف أحد الشهود ما فعله بعد القبض على المتهم ، أبدى هيوم غضبه من الشاهد بالتثاؤب واحداث همهمة عالية أثارت دهشة الحاضرين .

وقال هيوم : قال الكابتن « استوتز » من الشرطة الجنائية ان كل ما يعرفه هذا الشاهد يمكن أن يدون على طابع بريد ، ومع ذلك فقد تكلم ساعات لأنه من هواة الشهرة . لقد ركض وجذب شعرى وأكبر ظنى أنه تعلم فى مدرسة بنات .

وأبدى المتهم اهتماما كبيرا بشهادة خبير السلاح «الدكتور فراى سولزر » الذى شهد بأن العلامات التى وجدت على الرصاصة التى استخرجت من جسم قائد سيارة الأجرة كانت مماثلة لتلك الموجودة على الرصاصات التى وجدت مع هيوم . ووافق المتهم على هذا القول . وقال خبير السلاح أيضا انه أرسل الرصاصات لاسكتلانديارد لمقارنتها بتلك التى عثر عليها بعد حادث السطو على فرع برنتورد التابع لبنك ميدلاند (وقد ثبت أنها تماثلها)

وكانت شهادة آخر شاهد للاتهام ، ولعلها كانت أهمها جميعا فى هذه المحاكمة المثيرة ، هى التى أدلى بها فى اليوم الرابع من المحاكمة . كانت شهادة طبيب الأمراض العقلية « الدكتور ادولف ججنبيوهل ــ كريج » الذى مثل امام المحكمة حاملا تقريرا من ١٥٠٠٠ر كلمة عن هيوم كتبه طبقا لما تقضى به الاجراءات الجنائية السويسرية .

وتناقش الطبيب مع المحلفين فى تقريره . وقال : لقد أبدى دونالد

هيوم انعداما كاملا للاحساس الايجـــابي حيال زملائه البشر ومن بينهم خطيبته السابقة ترودى سومر ٠٠ انه كان عاجزا عن الحب لانه لا يعرف غير الكراهية لقد أبدى اعراضا على الاضطراب النفسى وكان يكره الناس جميعا ٠

ومن ناحية أخرى تبين للطبيب أن المتهم يتمتع « بذكاء فوق مستوى الذكاء العادى » وبرغبة جنسية جامحة ٠

وقال الدكتور كريج انه من الصعب استخلاص نتائج قاطعة ، ولكنه يعتقد أن هيوم مسئول مسئولية تامة عن افعاله ٠

وأردف : طوال فترة فحصه ، كان يبدى تأثرا عميقا عند الكلام عن أعمال العنف ٠ اذ كلما بدأ يتكلم عن هذا الموضوع ظهرت على وجهه علامات الشر الرهيبة حتى لطالما ارتعشت أوصالى ٠

وتناول طبيب الأمراض العقلية ماضى هيوم بسلاح الطيران الملكى بالحديث ، فقال ان لهذا الماضى اهميته فى الحكم على نفسية المتهم لأن سلطات هذا السلاح أعطت المتهم تقريرا حسنا حين فصله ٠ فقد أصيب بالعجز وفصل من الخدمة بعد أن وقع له حادث طيران فى اندوفر سنة ١٩٤٠ ٠ فقـد كان عائدا من رحلة تدريب ، وأخطأ فى تحديد موقـــع الأنوار بمطار اكسفورد وسقطت الطـائرة فوق الأنوار فقتل ثلاثة من رجال المطار وأصيب هيوم نفسه بجروح بالغة فى رأسه استدعت نقله للمستشفى ، وهناك ظل يشكو من صداع اليم ، وشخص الطبيب الحالة بأنها التهاب سحائى وليس من شك فى أن حياته أنقذت نتيجة استخدام العقار الجديد الذى ظهر حينذاك ٠ وكان شفاؤه مؤلما وبطيئا ، وحينما تم ـ بعد اسابيع طويلة قضاها فى المستشفى ـ أعلن انه غير صــــالح لأعمال الطيران ٠

وفى أثناء فترة النقـاهة زاره الاخصائى النفسانى بسلاح الطيران الملكى وتحدث اليه كثيرا ، وخرج من هذا الحديث بأن اخلاق المريض تغيرت كثيرا نتيجة اصـــابته ٠ وقد اشتمل تقرير الاخصائى على الفقرة التالية :

« بعد أن عانى من الالتهاب السحائى أصيب بدرجة من الاضطراب النفسى العضوى الثابت ، فأدى ذلك الى أن يفقد عقله ، كمـــا أضحت أفكاره السياسية مرنة ٠ وبذلك أصبح دائما ، ما كان من الطبيعى أن يكون عابرا ، طورا من المراهقـة فى النضـــوج الاجتماعى للشـــخص « البلشفى » ٠

قرأ طبيب الأمراض العقلية السويسرى هذا التقرير على المحلفين ، ولكنه أوضح لهم فى الوقت نفسه أنه يعتبر هذا التقرير محدود الاهمية • وقال : ليس من المستطاع وصف أحد الاشخاص بأنه مصاب بالاضطراب العصبى بسبب آرائه السياسية • ولهذا فاننا لن نفيد كثيرا من هـذا التقرير •

وتعرض الدكتور كريج بعدئذ لاعمال هيوم المعادية للمجتمع بعد خروجه من سلاح الطيران الملكى ، فأكد أهمية تظاهره بأنه ضابط فى سلاح الطيران خلال هذه الفترة •

وقال : لم يكن ذلك رغبة فى الحصول على النقود ولكنه كان رغبة منه فى أن يكون ضابطا بسلاح الطيران ، لأنه عمل يلقى قبول المجتمع بعد الدور الذى لعبه سلاح الطيران الملكى فى انقاذه انجلترا •

وهنا أشار الطبيب الى حكم الاثنى عشر عاما الذى صدر ضد هيوم وللدور الذى لعبه فى مقتل سيتى •

فقال : الشىء المهم هنا أن نلاحظ أنه أفرج عنه قبل انتهاء مدةالحكم بأربع سنوات • وفى أثناء وجوده فى السجن كان سلوكه مرضيا ، ولهذا أهميته البالغة لان معناه أنه استطاع التحكم فى سلوكه ، وبالتالىالسيطرة على نفسه على الرغم من المحنة التى كان يعانى منها •

ومضى الدكتور كريج يقول للمحلفين : انه وان كانت قصة مقتل سيتى التى نشرت فى صحيفة « سنداى بكتوريال » قد كتبت فعلا بقلم شخص آخر ، الا أن لها أهميتها فيما يتعلق بأخلاق المتهم بسبب التفصيلات المثيرة التى قدمها •

وبعدئذ تحدث الطبيب عن سرقات بنوك انجلترا التى دبرت باحكام ودلل فى رأيه على أن هيوم كان كفءا على تكييف نفسه طبقا لمتطلبات أى موقف •

وقال : انه ماهر ولكنه يستطيع من ناحية أخـرى أن يتحول الى شخص شاذ غرير • أما عن علاقته « بترودى سومر » فليس هناك شك فى أنها لعبت دورا هاما فى حياته • فقد أحبته ، وكان رجلا مهذبا معها • ذلك لانه يستطيع أن يصبح رجلا مهذبا اذا أراد ذلك •

ففى الاسابيع السابقة على سرقة بنك زيورخ ، تحول هيوم الى رجل صعب غريب الاطوار مع « ترودى سومر » ، الا أنه من المحقق أن قرب انتهاء نقوده كان هو السبب فى ذلك • أما نوبات بكائه وكراهيته للعالم

بصفة عامة فأمر طبيعي بالنسبة لشخص في مثل حالته العقلية يطارده « البوليس الدولى الجنائى » ٠

واختتم كريج شهادته قائلا : لقد كان مقتل سيتى وجريمتنا السطو على بنك ميدلاند عبئا ثقيلا على ضميره ، ولهذا الأمر أهميته لان جريمة السطو على البنك فى زيورخ نفذت بطريقة تدل على الرعونة ٠

وهنا واجه رئيس المحكمة المتهم بأقوال طبيب الامراض العقلية وبخاصة ما جاء فيها عن مسئوليته عن أفعاله مما يحتم عليه (أى على رئيس المحكمة) ألا ينصح المحلفين باصدار حكم بتخفيف المسئولية ٠

فقال هيوم : اننى أقبل ذلك ، ولكنى أريد أن أتحدث الى هذا الشاهد نحو ساعة ان أمكن ٠

فقال رئيس المحكمة باعياء : ان وقتنا يسمح بذلك ٠٠

وبدأ هيوم بمناقشة مختلف مدارس التحليل النفسى ، وسأل الطبيب : هل أنت من أتباع « فرويد » أو « ادلر » أو « جانج » فقال الدكتور انه من أتباع كارل جوستاف جانج ، العالم النفسانى السويسرى

وبعد أخذ ورد طال أمده ثلاثة أيام متوالية قال هيوم ان رأى طبيب الامراض العقلية فيه قائم على تقارير الصحف والتقارير التى وضعت عن سلوكه فى السجن ، ووافق الدكتور كريج على ذلك جزئيا ، ولكنه قال :

ــ لقد دهشت حينما قابلتك لاول مرة ، فانالمرء لا يستطيع الاعتقاد بأنك قاتل

ومضى هيوم يتهم الطبيب بأنه اتخذ موقفا عدائيا نحوه ، لانه شيوعى أو ذو اتجاهات شيوعية ٠ فنفى الدكتور كرايج ذلك بكل قوة ٠ وقال :

ــ ليس عملى يقتضى أن أتهمك بأى شىء ، فان مهمتى تقضى على بفهمك ٠ لقد قلت انه من الخطأ خطأ تاما أن يعتقد الانسان انك شخصية غير عادية لمجرد أنك شيوعى ، وأضيف الى ذلك أنك أصررت فى أحاديثك معى على أنك مسئول مسئولية تامة عن أفعالك ٠

وبعد استراحة قصيرة استأنفت المحكمة الاستماع الى المرافعات النهائية وتكلم الدكتور « بول لينهارت » المدعى العام أولا فأكد أهمية ما أطلق عليه « لحظات القدر الخمس » فى حياة هيوم ٠

وأوجز المدعى العام حياة المتهم فى سنواته الاولى ، فقال انه غير معروف على نحو قاطع : هل أسيئت معاملة هيوم وهو غلام ، كما قال أو ، لا ، الا أنه من الواضح أنه كان تلميذا شريرا · ولقد اقترح الدكتور كريج أن أول لحظات القدر حانت حينما أصيب فى أثناء خدمته فى سلاح الطيران فقد كانت هذه الخدمة مبعث بهجته ، وبعد ذلك بدأ ينحدر ، فلم يستطع الاستمرار فى الوظائف التى شغلها ، وكان يسير فى الطرقات مرتديا بزة ضابط سلاح الطيران التى استعارها ·

أما اللحظة الثانية من « لحظات القدر » فكانت حينما حكم عليه بالسجن اثنى عشر عاما بسبب دوره في مقتل « سيتى » وكانت اللحظة الثالثة حينما أطلق سراحه بعد أن قضى ثمانية أعوام في السجن · وهنا نقد المدعى العام السويسرى قانون الجنايات الانجليزى فى هذه النقطة لانه لا ينص على وضع المتهم تحت المراقبة أو الاشراف بعد الافراج عنه لحسن السلوك ، قال :

ــ لقد كان خطأ تمكينه من استبدال اسمه من غير اتخاذ أية خطوات احتياطية · فلو كان هيوم مصمما على بدء حياة جديدة ، لكان من الأجدى تزويده بجواز سفر قانونى · ولكنه لم يحسن سلوكه ، ولذلك صب جام غضبه على الانسانية ·

أما « لحظة قدر » هيوم التالية فكانت حينما حصل على ألفي جنيه مقابل قصته عن مقتل « سيتى » ·

قال المدعى العام : لقد أتاحت له هذه النقود التصرف وفق هواه فاستخدمها فى التجوال ولم يعمل شيئا ·

أما عن « لحظة القدر الخامسة » فقال المدعى العام :

ــ أحب هنا أن أذكر نقصا في القانون الانجليزى ، ذلك هو أنه ليس من المستطاع الالتجاء الى التاج اذا تبين أنه حكم على أحد الاشخاص خطأ أو أن الحكم عليه لم يكن كافيا ··· فقد استطاع هيوم أن يعلن على الملأ أنه قاتل « سيتى » ولكنه لم يقدم للمحاكمة ويعاقب لأن المحكمة سبق أن برأته من هذا الاتهام · ولكن القانون السويسرى يبيح فى هذه الحالة نقض الحكم ·

وقال المدعي العام ان ظلما بينا أحاق بالسيدة « ترودى سومر » فقد قبض عليها لان الشرطة ارتابت فى اخفائها أدلة تدين المتهم ، ثم أفرجت عنها فيما بعد لثبوت براءتها،ولذلك فقد أصبح من حقها أن تطالب

الدولة بالتعويض لانها سجنتها خطأ ، ولكنها تنازلت عن هذا الحق لانها ليست راغبة فى تحميل خزانة الدولة هذا العبء وفضلت الحصول على هذه النقود من الصحف ٠

وختم المدعى العام مرافعته مطالبا بالحكم على المتهم بأقصى العقوبة ـ السجن المؤبد ـ لان حكم الاعدام غير معمول به فى سويسرا ٠

وهنا نهض محامى المتهم ـ الدكتور ديكتور فون ريشنبرج ـ وقال انه موافق على كل ما ورد بقائمة الاتهام من غير استثناء ، وانه وان لم يكن « مدافعا عن التاج البريطانى » الا أن هناك بعض النواحى التى يتفق فيها القانون السويسرى مع القانون البريطانى ٠ والواقع أن مرافعة الدفاع تركزت فى محاولة تخفيف الأثر الناجم عن سلوك موكله « لقد اعترف هيوم بأنه مذنب ومسئول مسئولية تامة عن أفعاله » ٠

وحينما انتهى الدفاع من مرافعته سأل رئيس المحكمة هيوم : هل تريد أن تقول شيئا للمحلفين ؟ فأجاب المتهم بالنفى ، وبذلك رفع رئيس المحكمة الجلسة الى صباح اليوم التالى ٠

- ٥ -

كان اليوم التالى هو الخامس والاخير فى هذه المحاكمة غير العادية التى لم تشهد قاعة المحكمة الصغيرة بونترفور مثيلا لها من قبل ٠ وافتتحت الجلسة بان أوجز رئيس المحكمة أدلة القضية للمحلفين بدقة ٠ وبعد ذلك اختلى المحلفون بأنفسهم للتداول فى الحكم ٠

ولم يتسرع المحلفون فى اتخاذقرارهم ، فقد قضوا نحو ثلاثساعات فى التداول ، ولم يكن سبب هذا التأخير التثبت من أن هيوم مسئول عن أفعاله ، لأنه قضى معظم وقته فى السجن فى محاولة تأليف رواية اعتزم بيعها للصحف وانما كان سبب تأخر المحلفين فى المداولة هو الاتفاق على الحكم الذى يصدر ضده ٠

وبعد انقضاء ساعتين وخمسين دقيقة عاد المحلفون الى قاعة المحكمة

وسلموا لرئيس المحكمة الحكم كتابيا ٠ وفى التو قرأ الرئيس الحكم :
« مذنب فى جميع الادعاءات » ٠

ونطق القاضى بعد ذلك بأقصى عقوبة فى القانون السويسرى وهى السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة ٠ مع حفظ حق المتهم فى طلب « الافراج المشروط » بعد انقضاء خمسة عشر عاما من حسن السلوك فى السجن ٠ واستمع المتهم للحكم فى صمت ، ولم يبد أى انفعال حتى حينما سمع القاضى يقول له : انه مع افتراض الافراج عنه بعد انقضاء خمسة عشر عاما فانه سيسلم لاسكتلانديارد « اذا طلبت ذلك » ٠

الفصل الرابع

الدكتور ريتشارد مولر
طبيب الاسنان الالماني والسيارة المشتعلة

– ١ –

يوجد فى حياة طبيب الاسنان الالمانى ، الدكتور ريتشارد مولر ، من أوترباخ تاريخ لن ينسى بحى بالاتينيت بألمانيا الغربية ، حيث كان هذا الطبيب يقيم ويمارس مهنته بنجاح . ذلك هو يوم ١٨ من فبراير ١٩٥٤ . ففى هذا اليوم لم يقض الطبيب وقتا كالوقت الذى اعتاد أن يقضيه مع مرضاه ، وسبب ذلك أن أمه ماتت فى ذلك اليوم . وكان عليه أن يعد العدة للجنازة ، ثم انه لم تكن لديه خادمة فى منزله بالقرب من أوتربرج ولذلك كان عليه – بعد أن أوى أولاده الثلاثة الى فراشهم فى المساء – ان يذهب مع زوجته الى الريف بسيارتهما بورجوارد للبحث عن خادمة مناسبة فى احدى المزارع القريبة .

ولقد كان « كلاوز » الابن الثانى ، أول من سمع انذار الحريق ، وصاح وهو يوقظ أخويه :

– استيقظا ، فقد انطلقت صفارة الحريق .

وحينئذ طلب منه أخوه الاكبر أن يعود للنوم ويدعه وشأنه . فعاد «كلاوز» الى الفراش ولكنه لم يستطع النوم لانه كان يعجب : لماذا لم يستطع أن يرى لهب النيران حينما أطل من النافذة ؟! .

وبعد أن جاوزت الساعة الواحدة صباحا بقليل ، استيقظ مرة أخرى على رنين جرس الباب وصوت يقول : « فيو » ان أحداثا عند باب الحديقة فصاح : ماذا حدث برب السماء ؟

وسمع صوتا غريبا يطلب منه فتح الباب ، فسأل الغلام عما هناك وعندئذ سمع صوت أبيه يقول : هذا أنا يافيو .

وعندئذ هبط فيو الدرج ، وفتح الباب ، وشد ما كانت دهشته حينما رأى أباه مضمد اليدين وبرفقته رجلان من حاملى النقالات . فصاح الغلام : يا الهى ماذا حدث يا أبى ؟

ولاحظ الغلام أن أباه يبكى فسأله : أين أمى ؟

فأجاب ابوه متأوها : احترقت فى السيارة .

وظهر شبح شخص ثالث أمام وجهة المنزل نصف المضيئة .. كان ضابط شرطة . وتبع الزائرون الثلاثة الطبيب وابنه الى غرفة الاستقبال حيث جلسوا وأشعلوا لفافات تبغ . وبدأ الدكتور «مولر» يسعل فقال فيو : ان الدخان يضايق أبى .

وبعد قليل انصرف الشرطى قائلا : انه سيعود حينما ترى الشرطة سؤال الدكتور «مولر» . ولما انفرد الطبيب التعس بابنه بدأ يقص عليه ما حدث ، وكان يتكلم فى عبارات متقطعة وتختلط كلماته بدموعه ..

كانت قصة راح يرددها مرات ومرات طوال السنتين التاليتين .

قال : انه كان عائدا وزوجته بالسيارة ، وبعد أن جاوزا قرية بيروتشوف انطلقا فى طريق مظلم بالغابة فلاحظت زوجته شيئا شبيها بالقنفد ، على الجانب الايسر من الطريق كانت مصابيح سيارته قد أضاءته .

فقالت ــ حسبما قرر زوجها ــ هذا شىء للاولاد ، فدعنا نأخذه لهم معنا .

فقال الطبيب : حسنا . سأخرج غطاء عجلة القيادة وأضع القنفد أمامنا فى السيارة .

وبعد أن قطعا نحو خمسين ياردة ، أوقف الطبيب السيارة وهبط منها . وأخذ (مفكا) ومصباحا يدويا من حقيبة أدوات السيارة ، ثم كر عائدا الى الشىء الذى جذب أنظار زوجته والذى تبين أنه قنفد فعلا .

وحينما وصل الى المنطقة خيل اليه انه سمع حفيفا فى الغابة

أعقبه صوت تعذر عليه وصفه ، ولكنه كان أشبه بصوت طرق أو احتكاك فوق علبة من الصفيح .

واستطرد الدكتور مولر : حينما سمعت الصوت ، تلفت حولى ، فرايت السيارة مشتعلة .. اما ما حدث بعد ذلك فلست أذكره بالضبط .. فقط رايت اللهب .. ولا شك فى ان مساعدة أمك كان اول ما خطر ببالى .. ويبدو اننى تذكرت أن اخلع معطفى للمساعدة فى اطفاء النار . واعتقد اننى ركضت فى الطريق ولكنى لا اذكر الى أى مدى ذهبت .

وسمع راكب دراجة ، اسمه مارتن ، صيحات استغاثة الدكتور من بعيد ، ولو ان الدكتور لم يستطع أن يتذكره وهو فى حالته الهستيرية .

وقيل ان الدكتور «مولر» كان يصرخ قائلا : المعونة . أرجوك أن تساعدنى . ان زوجتى تحترق فى السيارة .

ولما اقتربا من السيارة ، التى كانت النار تلتهمها فى تلك اللحظة، ادرك «مارتن» انه من المستحيل اطفاء النار من غير معونة الاخصائيين، ومن ثم انطلق بدراجته بأقصى سرعة الى قرية بيروتشوف حيث اتصل تليفونيا بفرقة المطافىء والشرطة . ثم عاد الى السيارة المحترقة وحاول اطفاء النار بأغصان الاشجار التى اقتلعها من الاشجار القريبة .

وبعد ربع ساعة وصلت سيارتا المطافىء والشرطة والنقالة . وفى هذا الوقت كانت النار قد خفتت قليلا ، ورؤيت بقايا جسم آدمى محترق فى مقدمة السيارة بجوار مقعد السائق .

وادار رجال المطافىء فوهات خراطيمهم الى خارج السيارة ، وبعد لحظات قليلة أطفئت السنة اللهب التى كانت تأكل هيكل السيارة وعجلاتها . الا انه من العجيب أن أحدا لم يبذل محاولة بالنسبة للبقايا المتفحمة الا بعد انقضاء عدة ساعات ، وكان الماء قد أزال جميع الآثار الموجودة على الهيكل المتفحم ولقد كان هذا الاهمال ، من سوء حظ الدكتور مولر . لانه لو اتخذ الاجراء المناسب مع الجثة حين وصول رجال المطافىء والشرطة لأمكن معرفة سبب الوفاة بالدقة من فحص الجثة . ولكن الحريق أتم عمله بشكل مذهل بحيث كان من المستحيل اجراءمثل هذا التشخيص . أما السبب الذى قدمه رجال الاطفاء والشرطة فهو « انه من المحقق أن الحريق لم يكن عرضا » .

وبعد أن انتهى الدكتــور من سرد قصته ، تملكه الاعياء فأوى الى فراشه وبعد لحظات كان يغط فى نوم عميق ، أما ابنه «فيو» فلم يستطع النوم بعد أن سمع هذه القصة الرهيبة . ولذلك بادر بارتداء معطفه ، وتسلل من المنزل بهدوء حيث استقل دراجته وانطلق فى اتجـاه بيروتشوف . وحينما وصل الى انحناء شديد فى الطريق استطاع أن يرى وهج نار عند المنعطف جعله يظن انه منبعث من السيارة . ولكنه كان منبعثا من نار أوقدها رجال الاطفـاء والشرطة الذين تخلفوا فى موقع الحادث ليصطلوا فى ذلك الليل القارس البرد من شهر فبراير .

وهبط الغلام من فوق دراجته ، وأسندها الى شجرة . ثم دنا من السيارة المحترقة . وأخرج مصباحه اليدوى وأضـاءه ، وسدد اشعته من خلال زجاج النافذة المحطم .فسقط الضوء على بقايا الجثة البشعة الموجودة على المقعد الامامى .

وفجأة أحس «فيو» بيد ثقيلة توضع فوق كتفه ، فاستدار بقوة. فرأى أمامه شرطيا قال له :

— دع هذا وشأنه . لا تنظر اليها فلا فائدة فى ذلك .

وسمح الغلام للشرطى بأن يقوده بعيدا .

وفى صباح اليوم التالى ذهب الدكتور «مولر» الى مركز الشرطة حيث استجوب هناك ساعات طويلة عن مأسـاة الليلة السـابقة . وفى الساعة الواحدة والنصف مساء استأذن فى الذهاب لتشـييع جنازة أمه .

فقال له الضابط القائم بالتحقيق : ستبقى هنا لأن الشك يحيط بك فاذا سمحنا لك بالذهاب للجنازة فستكون فى رفقة أحد منا .

وأخيرا ، وفى نحو الساعة الثانية ، سمح له بالذهاب للجنـازة . فـركب مع أخيـه فى سـيارته فى حين جلس شرطى سرى فى المقعـد الخلفى .

وكانت الجنازة قد أوشكت على الانتهاء حين وصولهم . وذهبوا للمنزل فيما بعد حيث تناول المشيعون طعام الغداء فى حين بقى الشرطى السرى فى السيارة خارج المنزل .

كانت تلك فرصة يسـتطيع فيها الدكتـور «مولر» أن يهرب اذا أراده ، لان القرية قريبة جدا من الحدود الفرنسية ، ولانه كان يستطيع

التسلل من المنزل من الباب الخلفى من غير أن يفطن الشرطى السرى لذلك . ولكن الدكتور «مولر» اختار البقاء .

وبعد ساعتين عاد الدكتور «مولر» الى مركز الشرطة مع حارسه. وبمجرد وصوله ألقى القبض عليه ، ووجه اليه الاتهـام بقتل زوجته.

قضى مكتب المدعى العام وقتا طويلا فى اعداد القضية ضد الدكتور «مولر» فقد اتبعت الشرطة سبيل التحريات اللازمة بمنتهى البطء ، ويبدو أنها واجهت صعوبة فى الوصول الى الدافع على القتل . اذ لماذا يسعى رجل ، تدل جميع الظواهر على أنه سعيد فى زواجه من سيدة فتانة وله ثلاثة أولاد محبون ،لقتل زوجته عمدا ؟ ولماذا اختار هـذا اليوم بالذات بعد موت أمه الطاعنة فى السـن ؟ كان من الصعب على السلطات الاجابة عن هذه الاسئلة ولذلك انقضى مايقرب من عامين قبل أن يقدم الدكتور «ريتشارد مولر» للمحاكمة الجنائية .

وكانت القضية التى عرضها الاتهام تنحصر فى أن «مولر» قتـل زوجته حتى يسترد حـريته ويتزوج من محظيتـه «تللى هوبل» التى كانت تعمل كاتبة استقبال فى عيادته باوترباخ . ذلك لانه مع انقضـاء عشرين عاما على زواجه ، وما كان يبدو من اخلاصه التام لزوجته ، لم يكن مخلصا فعلا لزوجته . وفى أثناء حياته الزوجيـة ، كانت له ثلاث مغامرات غرامية كشفت الشرطة عنها عند محاكمته . وكانت المغـامرة الاولى فى أثناء حالة الاضطراب التى سادت ألمانيا على اثر انهيار المـانيا عسـكريا فى مايو ١٩٤٥ ، فقد لجأ الطبيب ذات ليلة حين زحف جيوش الحلفاء ، الى مزرعة فى بلغاريا ، حيث قيل انه اعتدى على فتاة اسمها «فكتوريا» فى غرفته . وحينما عاد ، فيما بعد ، وجـد فكتوريا حاملا نتيجة لليلة التى قضياها معا . وقالت الفتاة انه عرض عليها اجهاضها ولكنها رفضت .

أما مغامرته مع « نيللى هوبل » فبدأت فى ابريل ١٩٤٧ ، وكانت الفتاة تتمرن قبل ذلك فى عيادة أحد أطباء الاسـنان بكيسرلوتن حيث تعلمت كيف تضع رءوس المرضى فى الوضع الصحيح على المقعـد وكيف تحشو الاضراس . وكانت فى التاسـعة عشرة من عمـرها حين جاءت لتعمل فى عيادة الدكتور «مولر» الذى كان حينذاك فى منتصف العقـد الخامس ، وبعد ثمانية أشهر بادلته الفتاة الحب ، فكانت القبلة الاولى، ثم العناق الاول ، فالسير معا فى الغابة وأخيرا قضاء أول عطلة أسبوعية

معا . وما لبثت العيادة أن أصبحت عشا للغرام . وأعقبت ذلك ليالي كثيرة جميلة فى فنادق غير محترمة ببالاتنيت .

ومضى غرامهما سعيدا عدة سنوات من غير ان يعلم بأمره أحد غيرهما ، وكانا يتبادلان الهدايا فى تلك الاثناء ، فصنعت نيللى لطبيبها (بول أوفر) وقدمته له هدية فى عيد الميلاد ، أما هو فأعطاها غطاء منضدة ، « غطاء منضدتنا » كما وصفته « نيللى » فى احدى رسائلها لحبيبها . وترك « مولر » الصديرية (بول اوفر) فى العيادة فى اثناء عطلة عيد الميلاد ، وبعد عدة أسابيع أخذ الصديرية الى المنزل وقال لزوجته ببساطة ان نيللى صنعتها له .

ولم تقل « ترود مولر » شيئا لزوجها فى ذلك الحين ، الا انها حينما اختلت بأختها « ايرين بوهلر » قالت بكبرياء « لقد صنعت له هذه المخلوقة صديرية . أليست هذه هى النهاية ؟ »

فأجابت أختها ببساطة : أظن ان الممرضة تستطيع أن تفعل ذلك، اذا كانت علاقتها طيبة برئيسها .

وفى هذا الوقت نفسه بدأت «ايرين بوهلر » نفسها تغازل الطبيب فقد ظلت تعاني من اضطراب صحتها سنوات طويلة ، وكانت تلجأ الى مختلف الاخصائيين بناء على نصيحة « مولر » وتوصياته ولكنها لم تبرأ الى أن كان يوم ذهبت الى عيادة زوج اختها لتترك له رسالة .

وفتحت «نيللى هوبل» الباب لها وادخلتها غرفة الانتظار حيث كان هناك مرضى آخرون كثيرون ، وبعد دقيقة أو اثنتين دخل الدكتور «مولر» غرفة الانتظار بمعطفه الابيض ، وهو بادى الاندفاع كعادته فى أثناء العمل .

وخرجا الى الممر معا ، وسألها ، وهو يتطلع الى عينيها : ماذا أستطيع أن افعل من أجلك ؟

فأجابت : أواه يا ريتشارد . لقد بلغ السيل الزبى ، ولم أعد أطيق ..

فسألها ، وهو يمسك بيدها ويتأمل عينيها : لم تعودى تطيقين ماذا ؟

— ليس فى استطاعة الاخصائى معاونتى ، فهو يعالجنى منذ ثلاثة

أسابيع من غير أن يتغير شيء ، فما زالت الآلام مستمرة ، ولا يمكننى النوم فى الليل .. فماذا أفعل يا ريتشارد ؟

ففكر لحظة ثم قال ضاحكا : هل تعلمين ما أمرك يا ايرين ؟ هل أخبرك ؟

— نعم . فماذا هناك ؟

— انك بحاجة الى رجل .. تلك هى المشكلة كلها .

فانتفضت ايرين وقالت : ولكنى لست متزوجة ؟

فضغط زوج أختها يديها بين يديه بقوة ، واحست ايرين لحظتها وكأنه يريد أن يضمها الى صدره ، فانتزعت نفسها سريعا وهرولت خارجة من باب العيادة الى الشارع .

ولكن ايرين لم تستطع مقاومة زوج أختها ، وفى النهاية اصبحت هى أيضا محظيته ، وفى الوقت نفسه كان الثلاثة والمحظية يذهبون الى الريف بالسيارة وكانت ايرين تتأثر فى هذه المناسبات باخلاص أختها لريتشارد ، وكيف انها كانت تتفانى فى رعايته .

وفى شتاء عام ١٩٥١ — ١٩٥٢ لاحظت ايرين ان عواطف زوج أختها بدأت تفتر نحوها . فانتابها القلق ، وأقدمت على خطوة طائشة — كما قالت فيما بعد — فكتبت له رسالة تأنيب أخبرته فيها بمدى حبها له ، وبعثت بالرسالة الى عيادته بأوترباخ . وقرأ الطبيب الرسالة ووضعها فى جيبه حيث نسيها . وبعد ذلك بعدة أيام ، وحينما كانت زوجته تنظف السترة عثرت على الرسالة الخطيرة فى جيبها .

أما ما دار بين الزوج وزوجته ، على أثر هذا الاكتشاف الرهيب ، فليس لايرين علم به ، فان أختها لم تحدثها بالامر حينذاك ، الا انه ما كادت تمضى عدة أسابيع ، وتذهب ايرين لمنزل أختها ، حاملة طاقة من الورد بمناسبة عيد ميلاد «ترود» حتى استقبلتها أختها بغضب ، وقالت لها : كان يحسن الا تحضرى ثانية الى منزلنا .

وهكذا لم تحدث مناقشات ولا مواقف عاصفة . لم يتعد الامر هذه العبارة الوحيدة .

وتركت ايرين المنزل مبهوتة . وفى اليوم التالى اتصلت بالعيادة تليفونيا .

وسألت : ماذا حدث لترودى ؟

فأجاب الطبيب : لقد عثرت على رسالتك ..

ـ لماذا لم تخبرنى بذلك من قبل ؟

ـ حسنا .. خطر ببالى ان الموقف أحسن هكذا . فلماذا انت مهتاجة ؟

وارتج على ايرين ، ووضعت السماعة فى مكانها بعنف .

وكانت تتوقع حدوث أزمة فى منزل الزوجية ، ولم يكن يدهشها أن تعلم أن اختها هجرت زوجها . ولكن العكس هو الذى حدث .. لقد صفحت أختها عن زوجها ، وبعد أسبوع ذهبت الاسرة كلها الى بحيرة كونستانس ، لقضاء عطلة عيد الفصح .. ولكن «ترود» لم تستطع الصفح عن أختها ، ولذلك بدأت تقل من زيارتها لأبويها لان « ايرين » كانت تعيش فى كنفهما .

ولم تكن الرسالة التى وجدتها «ترود» فى جيب زوجها هى الاكتشاف الوحيد الذى آلمها فبعد ذلك بعدة شهور عثرت فى جيب معطف زوجها الابيض على تذكرة دواء سجلت «نيللى هوبل» على ظهرها حبها الذى لا يموت لمخدومها .

ولم تقل « ترود » شيئا لزوجها هذه المرة ، ولكنها انتهزت فرصة غيابه المؤقت عن العيادة وذهبت لحسم الامر مع كاتبة الاستقبال .

قالت « لنيللى هوبل » : أتوسل اليك ان تدعى زوجي وشأنه . فكرى في أولادنا الثلاثة ، انهم لم يصيبوك بأى أذى . فكرى فى معنى هدم زواج سعيد .

وحينما عاد حبيب « نيللى » حاولت أن تقطع علاقتها به ولكنها لم تنجح ، فقد استمرا يتقابلان بعد ساعات العمل ، وفى شهر يوليو ١٩٥٣ رحلا معا فى عطلة مدتها اثنا عشر يوما قضياها بالنمسا وايطاليا ، تاركين « ترود » فى المنزل « للعناية بالأولاد » كما قال زوجها .

وحين عودته الى أوتربرج حدثت مشاجرة بينه وبين زوجته .

قالت « ترود » بعنف : لا تقل انك كنت وحدك .. انك لن تجرؤ على الكذب على ، لأننى أعلم الحقيقة .. لقد ذهبت « هوبل » معك .

واضطر « ريتشارد مولر » للاعتراف بصحة اتهام زوجته ، وهو خجل ٠

كان من الواضح انه لا بد من استقالة « نيللى هويل » اذا أريد لهذا الزواج البقاء ، ولهذا قررت « نيللى » البحث عن عمل آخر ٠ وبعد عدة شهور أمكنها العثور على وظيفة ـ مساعدة لاحدى الأمهات فى انجلترا ـ وقد ودعها حبيبها بعد أن قضيا ليلتهما الأخيرة معا فى فندق بارك بمانهايم ٠

لم يكونا يعرفان متى وأين يمكن أن يتقابلا مرة ثانية ، والواقع أن لقاءهما التالى تم بعد عامين ، ولم يكن هذا اللقاء على النحو الذى تمنياه فى جو أجنبى ملائم ، وانما فى قاعة محكمة المانية مقبضة ٠

- ٢ -

بدأت محاكمة الدكتور « ريتشارد مولر » فى قضية قتل زوجته بمحكمة الاستئناف فى كايزرلوترن يوم ٢٨ من نوفمبر ١٩٥٥ ٠ وقال المتهم : انه ليس مذنبا ٠ أما الاتهام فقال انه قتل زوجته ، ليسترد حريته ويتزوج من محظيته ، لأن مغامرته مع « نيللى هويل » لم تنته برحيلها الى انجلترا ، بل بالعكس زاد هذا الانفصال الاجبارى حدة عاطفة العاشقين الأثيمين ولهفة على الالتصاق ببعضهما بعضا ٠ ومضى الاتهام يقول : ان « مولر » كثيرا ما كان يتصل بخليلته تليفونيا ، وقدم قائمة بهذه المكالمات ، كما كان يبعث اليها برسائل طافحة بالحب ، فكانت « نيللى » تجيبه على رسائله برسائل مماثلة ٠

وبعد أن قدم الاتهام الدافع على ارتكاب الجريمة راح يصف الوسيلة التى نفذها المتهم بها ، فقال ان « مولر » اشترى مدفأة جديدة لسيارته قبل وقوع الجريمة بأسبوع واحد ، كما اشترى أربعة جالونات من البترول لم يفرغها فى خزان السيارة ولكنه استبقاها منفصلة فى علب بسيارته ٠ ثم ادعى أنه شديد الاهتمام بصحة زوجته فى اليوم الذى اختاره لارتكاب جريمته ، واقترح عليها ، بعد تناول العشاء ، الذهاب الى الريف بالقرب من اوتربرج للبحث عن خادمة فى احدى المزارع ٠ وعادا من طريق غير مطروق ، بالقرب من بيروتشوف لكن « مولر » حاول الوقوف على الجانب الأيمن من الطريق ملاصقا الأشجار التى على جانبه بحيث يستحيل فتح الباب الأيمن للسيارة ٠

واستطرد الاتهام قائلا : ان « مولر » لطم زوجتـــه فوق رأســـها أو خنقها ، ويحتمل أنه قتلها ، وبعد ذلك أجلسهــــا فى المقعد المجاور لمقعد السائق ، ثم وضع المدفأة تحت قدميها للايهام بأن انفجارا عرضـــيا حدث ، وبعد ذلك سكب البترول على جثتها واشعل فيها النار • فقد عثر على علبة بترول خالية بجوار الجثة على المقعد الأمامى وأخرى على المقعد الخلفى وراء الجثة مباشرة •

وقال الاتهام : ان هـــذه الحقـائق اثبتت أن الجريمة ارتكبت مـع سبق الاصرار •

ومع أن الدفاع لم ينكر أن عـلاقة المتهم « بنللى هـــوبل » كانت قائمة ، الا أنه أنكر أنه لم يكن هناك تفكير فى الزواج من جانبهما ، كما أنه لم يكن فى نية المتهم الاضرار بزوجته مطلقا ، وانما كان موتهـــا نتيجة حادث اليم لم يستطع المتهم تفســـير طبيعته ، وانما راح يردد القصة التى طالما قالهـــا عن القنفـــد الذى كان فى الطريق وكيف طلبت منه زوجته أن يحضره للأولاد •

قال مولر : قدت الســـيارة الى جوار الشجرة التالية على يمين الطريق ، وأوقفتها ثم هبطت منها ، وأخذت « مفكا » من الحقيبة الموجودة أمام مقعدى ، كما أخذت قطعة من المطاط القديم ومصباحا يدويا • وكان ضوء القمر باهتا ، ولكنى كنت أستطيع تمييز طريقى بسهولة • وبعد أن أمسكت بالقنفد سمعت صوتا فى الغاب شبيها بالصوت الذى يصدر عن موقد مشتعل • وحينما سمعت هذا الصوت تلفت حولى ، فرأيت سيارتى مشتعلة • ولكننى لا أعلم ماذا حدث ، لقد رأيت اللهب فقط ، وليس فى استطاعتى أن أقول هل حاولت اخراج زوجتى من الســيارة أو ، لا ••

واستمرت المحاكمة عدة أســـابيع • وفى اليوم الرابع والثلاثين أعلن نبأ مثير فى قاعة المحكمة •• كان المتهم مريضا بدرجة أقعدته عن المجىء للمحكمة ، فقد حاول الانتحار فى زنزانته بقطع أحد شرايينه وكاد ينجح فى محاولته • وبدأ الناس يتساءلون : هل سيبرأ المتهم ليمكن المضى فى محاكمته لأن القانون الالمانى لا يسمح بوقف اجراءات المحـاكمة أكثر من عشرة أيام ، والا فينبغى أن تبدأ المحاكمة من جديد بمحلفين جدد ؟

ولقد أمكن علاج المتهم بحيث لم تكن هناك حاجة لاعادة محاكمته »

وان كان قد انهار فوق الدرج وتطلب الأمر حقنه حتى يستطيع المثول أمام المحكمة ، وسمح له بالجلوس فى مقعد مريح بالمحكمة ، وكان يجلس متهالكا في مقعده وقد مال رأسه وكأنه فاقد الوعى لا يدرى شيئا عما يجرى حوله ٠

وأعلن المحلفون أن الدكتور « ريتشارد مولر » مذنب ، وأنه قتل زوجته ، وقضت المحكمة بسجنه ست سنوات ، وهو حكم خفيف جدا فى هذه الظروف ٠

والواقع أن ادانة « مولر » قامت على أدلة عرضية ٠٠ هل كان مذنبا فعلا ؟ أو أن ظلما حدث فى هذه القضية ؟

لقد أثارت هذه القضية اهتماما كبيرا فى طول المانيا وعرضها ، وتعرضت النيابة والمحكمة لحملات صحفية عنيفة ، ولم يكن ذلك لان النيابة استطاعت ادانة رجل برىء وانما لاستمرارها فى محاكمة « مولر » بعد أن حاول الانتحار وأصبح فى حالة لا تمكنه من المجىء للمحكمة ، اذ كان منظره يقطع نياط القلوب ٠٠

الفصل الخامس

رودلف ايفانوفتش آبل

استاذ الجاسوسية السوفيتية

- ١ -

فى الرابع من مايو ١٩٥٧ دخل السفارة الامريكية بباريس رجل ذو ملامح سلافية واضحة ، وحينما سأله أحد موظفى السفارة عما اذا كانت هناك أية خدمة يمكنه أن يقدمها له ، اندفع الزائر من فوره يدلى باعتراف مثير ..

قال : انني ضابط فى المخابرات السوفيتية ، فقد قضيت السنوات الخمس الأخيرة وأنا أعمل فى الولايات المتحدة ، وانى بحاجة الى مساعدتكم الآن .

وتوسل للحصول على الملجأ السياسى .

وكان اعترافه حقيقيا تماما ، اذ تبين انه المقدم رينوهايهانن من لجنة أمن الدولة السوفيتية ، وكان هايهانن مواطنا سوفيتيا من أصل فنلندى ، وعميلا مدربا فى الجاسوسية ، انضم الى منظمة المخابرات العسكرية بالاتحاد السوفييتى منذ أيام الحرب الروسية الفنلندية فى عام ١٩٣٩ ، وكان حينذاك فى التاسعة عشرة من عمره وقال انه جاء الى الولايات المتحدة فى أكتوبر ١٩٥٢ حاملا جواز سفر امريكى باسم يوجين نيقولاى ماكى جاء به ان حامله ولد بايداهو عام ١٩٢٧ ، وقد أقام بالبلاد بهذا الاسم حتى ابريل ١٩٥٧ ، وفى الشهر الأخير تلقى فجأة وعلى غير انتظار استدعاء الى موسكو ، وعندئذ خطر بباله انه أخفق فى عمله ، وجعله علمه بالمصير ، الذى ينتظر العملاء الفاشلين عادة ، يقرر الهرب .

وفى مقابل الحماية التى منحت له وعد المقدم هايهانن بالتعاون الكامل مع سلطات المخابرات الامريكية ، ولذلك أعيد الى نيويورك بالطائرة يوم ١٠ مايو حيث استجوبه رجال المكتب الاتحادى الامريكى للتحقيقات ، وقد قال لهم ان مهمته كانت ذات شقين ، الأول : الابلاغ عن جميع المنشئات العسكرية الجديدة ، والثانى : حشد العملاء من بين أفراد الجاليات الأجنبية الامريكية ، وأعطى اسما حركيا « فيك » وكان يستخدم هذا الاسم فى ابلاغ أية معلومات يستطيع الحصول عليها الى وكيل سوفيتى آخر كان يتلقى أوامره منه ، الا أن هايهانن لم يكن يعرف شخصية الضابط رئيسه ، اذ كان يعرفه باسم « مارك » فقط .

وطبقا لما قاله هايهانن تم أول لقاء بينه وبين « مارك » فى دورة احدى دور السينما بفلاشنج بلونج ايلاند فى أحد أيام شهر يوليو أو أغسطس ١٩٥٤ ، وكان قد طلب الى هايهانن ارتداء رباط عنق مخطط باللونين الأزرق والأحمر وان يدخن غليونا . وجاء « مارك » فى الموعد المحدد وتحدث اليه . ثم تكررت المقابلات بينهما وكانت تتم عادة فى محطات تحت الأرض أو فى الشوارع المزدحمة . ووصف هايهانن «مارك» بأنه رجل متوسط البنيان يبلغ طوله حوالى خمسة أقدام وعشر بوصات ، اسود الشعر خفيفه ، يرتدى عادة عوينات سميكة . وكان هذا الوصف ينطبق على آلاف ، وربما على سبعة ملايين من سكان نيويورك .

وكانت وسيلة الاتصال التى استعملها الجاسوسان هى صناديق البريد المرتجلة ، حيث يترك الرسائل فى أماكن مختلفة مثل عامود النور فى فورت تايرون بارك ، أو فى السور المعدنى بالشارع السابع بالقرب من قنطرة ماكومبس وغيرها من الأماكن وبالأخص فى سنترال بارك وبروسبكت بارك ببروكلين . واتفق الرجلان على رسم علامات معينة بالطباشير على سور معين فى سنترال بارك ليعلم أحدهما الآخر بأن هناك رسالة تحتاج الى التسليم .

وكان من صناديق البريد المؤقتة ثقب فى بئر سلم عند ايست ريفر ببروسبكت بارك ببروكلين ، ولم يتلق هايهانن أى رد على آخر رسالة تركها هناك ، ولذلك بدأ يظن انه من الجائز أن تكون ايد أخرى عثرت على الرسالة غير اليدين اللتين كانتا ينبغى أن تعثرا عليها . وبعد ذلك بقليل جاءت الدعوة للعودة الى موسكو فاقتنع بأن شيئا ما قد حدث ..

وانتقل رجال المباحث الجنائية مع هايهانن الى بروســـــبكت بارك حيث أرشدهم الى الدرج الذى تحدث عنه ، ولشد ما كانت بهتتهم حينما لاحظوا ان الثقب قد سد حديثا ودلت التحريات التى جرت بعد ذلك على أن الرجال القائمين على صيانة الحديقة كانوا قد لاحظوا هـــذه الفجوة وأغلقوها ، ولو انهم كانوا قد تطلعـــــوا بداخل الفجوة قبل آن يغلقوها لعثروا على ما عثر عليه رجال المباحث في تلك اللحظة ، وهو مزلاج مجوف طوله بوصتان وقطره بوصة وبداخله الرد الذى كتبه « مارك » ٠

وكانت الرسالة مصورة على فيلم مصغر ومحتوياتها كالآتى :

« لم يحضر أحد للمقابلة يوم ٨ أو ٩ كما قيل لى ٠٠ فلماذا ؟ هل يجب أن يكون بالداخل أو الخارج ؟ هل الوقت غير ملائم ؟ يبدو الا غبار على المكان ٠ أرجو التحقيق » ٠

وسئل هايهانن أيضـــا عن عمله فى تجنيد الجواسيس والعثور على الأشخاص الذين يعتقد انهم يعطفون على المبادىء السوفيتية ، فقال ان من بين المهام التى عهد اليه بها العثور على جاويش اسمه روى رودس كان يعمل من قبل فى السفارة الامريكية بموسكو وكان يقدم المعلومات للروس هناك ٠ وأضاف هايهانن بأنه ذهب الى ســـــاليدا وهى موطن الجاويش بكلورادو ولـــكنه فشـــل فى العثور عليه ، وتأيد هذا القول برسالة مسجلة على فيلم مصغر « ميكرو فيلم » مرسلة من « مارك » الى هايهانن عثر عليها فى مزلاج آخر مجوف بمنزل هايهانن ســـابقا فى بيكسكيل بنيويورك ٠ وجاء فى هذه الرسالة أن رودس جند «فى خدمتنا» فى شهر يناير ١٩٥٦ « على أساس وثائق تدينه » وأنه « مشدود الينا بايصالاته وبالمعلومات التى قدمها مكتوبة بخطه » ٠

وكانت احدى مهامه الأخرى البحث عن هيلين سوبل زوجة مارتن سوبل الذى حكم عليه عام ١٩٥١ مع جولياس وايثيل روزنبرج لأنهم سلموا أسرارا ذرية للاتحاد السوفيتى (أعدم الزوجان روزنبرج وحكم على سوبل بالسجن ثلاثين عاما) ٠ وكان على هايهانن أن يسلم مســز سوبل ٥٠٠٠ دولار اعطاه لهـــا « مارك » ، ولكنه اعترف بأنه لم يفعل ذلك ٠٠ وانما دفن النقود فى حديقة بير ماونتين بعد أن وضعهـــا فى لفافتين اخرجهمـــا فيما بعد ٠ وقال انه احتفظ بالنقود لنفســـه وأبلغ موسكو ان مسز سوبل استلمتها بسلام ٠ وقال هايهانن لرجال المكتب الامريكى الاتحادى للمباحث الجنائية انه طلب اليه معرفة « ما اذا كانت هذه السيدة على استعداد للعمل كجاسوسة » ، ولكنه اعترف بأنه لم ينفذ هذه المهمة أيضا ٠

وظل رجـال المباحث الامريكيـة فترة من الوقت عاجـزين عن اكتشاف شخصية « مارك » الغامضـة نظرا لأنه كان يبدو انه العقل المدبر لشبكة الجاسوسية السوفيتية كلها في الولايات المتحدة · وسئل هايهانن عما اذا كانت لديه أدلة أخرى يمكن أن ترشـد المكتب الى « مارك » وأخيرا استطاع هايهـانن تقديم هذه الأدلة ، اذ قال انه حدث في احدى المناسبات أن كان فى أشد الحاجة الى مواد للتصدير للمضى فى أداء عمله وانه أبلغ « مارك » بذلك فأخـذه الى غرفة فى بروكلين كان يحتفظ فيها بهذه المواد وقال هايهانن ان الوقت كان ليـلا ولذلك فانه لا يستطيع أن يتذكر العنوان بالدقة ولـكنه يظن ان الغرفة كانت فى الطابق الرابع أو الخامس من مبنى مجاور لشارع فالتون أو شـارع كلارك ·

وبادر رجال مكتب المباحث الجنائية بتفتيش المنطقة الى أن انحصر تفتيشهم فى المبنى المشيد بالطوب الاحمر رقم ٢٥٢ بشـارع فالتـون حيث كانت هناك لافتة كتب عليها « المصور اميل ر · جولدفوس » · وكان الاستديو الخاص بهذا المصور موجودا بالطابق الخامس ·· ولكن الاستديو كان مغلقا ، وعلم رجال المباحث الجنائية من سـكان المبنى — ومعظمهم من الكتاب والفنانين ، ان مستر جولدفوس غادر الاستديو فى يوم متأخر من الشهر السـابق يكاد يعادل نفس اليوم الذى أبحر فيه مستر هايهانن الى فرنسا ، ووصف الجيران المصـور بأنه « رجل هادىء خجول يبـدو وكأنه مريض فى بعض الأحايين » ·· ونظرا لأن الاحتمالات كانت ترجح ان المصور هو الرجل الذى يبحثون عنه ، فقد وضـع رجال المباحث الجنائية المبنى تحت المراقبة · ولم تخيب الأيام أملهم ··

ففى يوم ٢٨ مايو رؤى رجل ينطبق عليه وصف هايهانن ل «مارك» جالسا على (دكة) خارج المنزل بشـارع فالتون ، وكان منظره يوحى بأنه ينتظر أحد الأشخاص ، وما لبث أن انصرف بعـد قليل · ولكن رجال المباحث الجنائية لم يتعقبوه لأنهم قالوا انه اذا كان هو « مارك » فليس من شك فى انه سيعود ·

واستمرت رقابة المنزل ، وكانت صناديق البريد المؤقتة وسور سنترال بارك تفحص يوميا ، الا انه لم يعثر بها على رسائل · وأخيرا وبعد منتصف ليل ١٣ يونيو بقليل رؤى ضوء ينبعث من الاستديو ، وبعد قليل شوهد رجل يشبه الرجل الذى كان يجلس على (الدكة)

يخرج من باب المنزل • فتبعه رجال الشرطة السرية فى شارع فالتون الى محطة القطار تحت الأرض ، حيث استقل قطارا نزل منه فى قلب مدينة مانهاتان واستمر رجال الشرطة فى تتبعه حتى فندق لاثام فى الشارع الثامن والعشرين وكتب اسمه فى سجلها « مارتن كلولنز » •

وأثناء الرحلة نجح أحد رجال مكتب المباحث الجنائية فى تصوير المشتبه فيه بآلة تصوير مخبأة ، وعندما تم تحميض الفيلم وعرض على هايهانن صاح على الفور :

– لقد عثرتم عليه •• انه مارك •

وفى التو وضع « مارتن كولنز » تحت الملاحظة ، وأجريت تحريات دقيقة استنادا الى المعلومات التى كتبها فى سجل الفندق ، ولكن الدليل الوحيد الذى كان يبرر القبض عليه هو دخوله الولايات المتحدة بطريقة غير مشروعة وعدم تسجيل اسمه كأجنبى • وهكذا القى القبض عليه بمعرفة سلطات الهجرة الاتحادية على أساس هذه الاتهامات وأرسل الى مركز احتجاز الأجانب فى ماك الن بتكساس توطئة لابعاده •

وفى ذلك الاثناء أجرى تفتيش الاستوديو ببروكلين وغرفة « مارتن كولنز » حيث عثر على مجموعة مختلفة من أدوات التجسس ، وكان من بينها مفكرات للشفرة ، وآلات تصوير ، وأفلام لانتاج النسخ المصغرة – فيلم فى حجم رأس الدبوس يستوعب معلومات تفصيلية يمكن أن تكبر بعد ذلك الى حجم يتيح قراءتها – وأدوات منوعة ذات أجزاء مجوفة كأقلام الحبر وأقلام الرصاص وفرشاة الحلاقة وأزرار أكمام القميص والمزالج وكان هناك أيضا عدد من الصور الزيتية وألوان الماء فى الاستوديو دلت على ان المستأجر فنان هاو وكان بعضها يحمل توقيع « جولدفوس » والبعض الآخر توقيع « آبل » ، كما عثر أيضا على راديو قوى ذى موجة قصيرة •

وأعيد السجين من تكساس الى بروكلين حيث سلم الى مكتب المباحث الجنائية للاستجواب • وبعد أن أجرى معه التحقيق خمسة أيام متواصلة بلا نوم ، ثم يوميا لمدة ثلاثة أسابيع رفض أن يقول شيئا أكثر من تأكيده لما سبق أن قاله لسلطات الهجرة وهو ان اسمه الحقيقى رودلف ايفانوفتش آبل وانه مواطن سوفييتى بغض النظر عن

الجواز الامريكي الذى يحمله باســـم « اميل ر ٠ جولدفوس » ، وانه كهايهانن ، عضو فى لجنة أمن الدولة ويحمل رتبة عقيد ٠

وفى يوم ٧ من أغســطس ١٩٥٧ حوكم العقيد آبل أمام محكمة بروكلين العليا باتهامى التآمر للحصول على أسرار الدفاع القومى ، وعدم تسجيل اسمه كأجنبى ٠ وقدم العميد هايهانن للمحاكمة معه بوصفه الشاهد الاساسى للاتهام ومعهمـا ثلاثة عملاء ســوفييت هم بافلوف وكوراسكوف وســفرين الذين قيل انهم ينتمون الى الشـبكة ولكنهم استطاعوا الهرب الى روسيا ولذلك حوكموا غيابيا ٠٠

واتفق ان كنت فى نيويورك بعد أســابيع قليلة وذهبت لزيارة السجن الاتحادى فى ويست ستريت حيث كان آبل محتجزا توطئـة لمحاكمته ، وقد أشار لى عليه موظف السجن الذى رافقنى فى جولتى فلم أتمالك من الشعور ببعض الأسف عليه وهو ممدد فوق بطنـــه على الفراش لأننى أيقنت انه ارتكب الخطيئـــة التى لا تغتفر لأى رجل من رجال المخابرات يقع فى قبضة العدالة ٠

- ٢ -

نظرا لان آبل اعترف بأنه سوفييتى الجنسية فقد اتصلت السلطات الأمريكية رسميا بسفارته فى واشنجتون جريا على العرف الدولى المتبع وطلب اليها الافادة عما اذا كانت تعتزم تقديم أى عون قانونى له ، ولكن سفارة الاتحاد السوفييتى غسلت يديها من الموضوع كله ، وكان الرد الذى قدمه المتحدث باسم السفارة ، لا شأن لنا بهذه القضـــية » ، ومن ثم فقد اختار القاضى محاميا للدفاع عن المتهم بموافقته حســبما جرت العادة فى مثل هذه الظروف ٠

وبدأت محاكمة رودلف ايفانوفتش آبل أمام القاضى مورتيمر و ٠ بايرز وهيئة محلفين مشكلة من تسعة رجال وثلاث نســاء فى محكمة بروكلين الاتحـــادية يوم ١٤ من أكتوبر ١٩٥٧ ٠ وقال المتهم انه غير مذنب فى جميع الاتهامات ، ورأس الاتهام مســتر وليام ف ٠ تومكتر مساعد النائب العام ســابقا الذى كان يتولى رياسة قسم الامن الداخلى بوزارة العدل الامريكية ، أما الدفاع فتولاه مستر جيمس ب ٠ دونوفان الذى استعان باثنين من محامى الحكومة سابقا لمساعدته ٠ وكان من بين زملاء آبل المتآمرين الثلاثة الذين حوكموا غيابيـــا بافلوف الذى كان قد اتهم فى حلقة الجاسوسية الخطيرة التى اكتشفت فى كندا عام ١٩٤٦

وكان يعمل حينذاك سكرتيرا ثانيا وقنصلا فى السفارة السوفيتية باوتاوا ورئيسا للمخابرات السرية السوفييتية فى كنـدا • أما الاثنان الآخران كورساكوف وسفرين فقيل انهما تلقيا تعليمات بالقيام بعمليات تجسس فى الولايات المتـحدة وكان سفرين عضوا سابقا بالوفد السوفييتى لدى الأمم المتحدة ، وقال هايهانن انه سلمه رسالة مكتوبة بالشفرة فى أحد المسارح •

ولم يجد الاتهام صعوبة فى التدليل على أن آبل دخل البلاد بطريقة غير مشروعة قادما من كندا فى عام ١٩٤٨ ، وللحصـول على جواز سفر امريكى استخدم اسم الطفل الامريكى اميل جولدفوس الذى مات عـام ١٩٠٢ وهو فى سن شهرين واستطاع آبل أن يحصل على شهادة ميلاده بطريقة ما •••

وبالنسبة لاتهامه بالجاسوسية كان من الواضح أن تجرى محاكمته عن هذا الاتهام على أساس شهادة هايهانن وقد اعترف المقدم السـابق بالمخابرات السوفييتية ان لجنة أمن الدولة (ويعنى ذلك أعمال التجسس) كانت تستخدمه ، وانه جاء أول الأمر الى الولايات المتحدة منتحلا شخصية مواطن أمريكى ولو انه كان فى الواقع سوفييتى الجنسية وموظفا بالحكومة السوفييتية •

سأل الاتهـام تومكنز : ماذا كانت واجبـاتك بالانابة للحكومة الروسية فى هذه البلاد ؟

فأجاب هايهانن : أرسلت الى هذه البلاد لأكون مساعدا مقيما فى اعمال التجسس •

ـ هل تعرف اسم الضابط المقيم ؟ •

ـ اعرفه باسمه المستعار « مارك » •

ـ هل تراه هنا فى قاعة المحكمة ؟

فأجاب الشاهد وهو يشير فى اتجاه السجين : نعم ، انه يجلس عند طرف المنضدة •

ـ هل تعلم ما مهنته ؟

ـ قال لى انه مصور وان له استديو فى مكان ما •

ـ هل كنت تعرف انه موظف بالحكومة الروسية ؟

ـ نعم لقد استخدمته لجنة أمن الدولة ٠

ـ هل يحمل أية رتبة ؟ ٠

ـ كان يحمل رتبة عقيد ٠

ـ متى قابلت « مارك » لأول مرة ؟

ـ قابلته عام ١٩٥٤ ٠

ـ وهل رأيته بعد ذلك ؟

ـ نعم ، وكنت أقابله فى أغلب الاحوال مرة أو مرتين أسبوعيا ٠

ومضى الشاهد يقول ردا على أسئلة الاتهام انه كان يحصـــل على مرتب قدره أربعمائة دولار شهريا ومائة دولار مصـــاريف انتقال وان ٥٠٠٠ دولار وضعت تحت تصرفه للســـحب منها « لأعمال التغطية » وبالاضـــافة الى ذلك كانت مبالغ أخرى تدفع بالنقــد الروسى لأسرته المقيمة فى الاتحاد السوفييتى ٠

ـ فهمت من شهادتك ان التعليمات التى صدرت لك كانت تقضى بالحصول على معلومات سرية ٠٠ فهل هذا صحيح ؟ ٠

ـ نعم ٠ انه كذلك ٠٠

فقال المدعى العام : ما افهمه من لفظ « معلومات سرية » انك تعنى المعلومات الخاصة بالطاقة الذرية أو الدفاع ٠٠ فهل هذا صحيح ؟ ٠

فأجات هايهانن : نعم ٠ هذا صحيح ٠

وأثناء الاستجواب ، هاجم الدفاع عن آبل نزاهة الشـــاهد ولكنه حرص على تجنب سؤال هايهانن حول علاقته بموكله ، وحاول ان يثبت ان هايهانن كان متزوجا من امرأتين وانه يعذب النساء ويضربهن ويدمن الخمر ، ولكن المحامى دونوفان لم يستطع المضى فى هذا الاتجاه شـــوطا بعيدا وان ارغم الشاهد على الاعتراف بأنه كانت له زوجة فعلا عنـــدما تزوج عام ١٩٥١ وكان اسم زوجته مسز حنا ماكى وان له ابنا يقيم فى روسيا ٠ وأضاف هايهانن ان مسز ماكى لحقت به فى امريكا ووصفها بأنها « زوجتى طبقا للطقوس الكنسية » منذ عام ١٩٥٣ ، وانهما استأجرا منزلا فى نيو آرك بنيو جرسى « لاجراء اعمال الغرض منها تغطية اعمال التجسس » ٠ ولكنه انكر الاتهامات الأخرى بكل قوة ، الا انه يبدو انه تشاجر مع زوجته ولهذا كانت تنشأ بينهما مواقف عنيفة ٠

ـ هل تذكر المخبز المجاور للمنزل ؟ •

ـ نعم أذكره •

ـ هل صحيح انك دخلت هذا المخبز مع زوجتك فى أحد الايام ، واشتريت رغيفا من الخبز ، ثم ألقيتـــه على الارض وطلبت من المرأة ان تلتقطه ؟ •

ـ لا أستطيع ان اذكر ذلك •

وكان شاهد الاتهام الثانى الهام الجـــاويش روى رودس الذى كان يعمل سابقا فى السفارة الامريكية بموسكو والذى حاول هايهانن بدون جدوى ان يعرف عنوان منزله في كلورادو طبقا لتعليمات آبل ••• وسرد هذا الشاهد ردا على سؤال مساعد النائب العام تومكنز قصة تنكره لبلاده المشينة ، فقال انه أوفد الى موسكو فى شهر مايو ١٩٥١ برتبة باشجاويش فى سلاح الاشارة الامريكى حيث عمل كبيرا للميكانيكيين فى السفارة الأمريكية •

وبدأ تدهور رودس ذات يوم فى نهاية عام ١٩٥١ عندما تلقى نبأ هاما من الوطن •

سأله مساعد النائب العام : أخبرنا ماذا حدث فى ذلك اليوم بايجاز •• متى تلقيت النبأ ؟ •

فأجاب رودس : قبل عيد الميلاد مباشرة • واني لأذكر اننى عملت بالجراج فى صباح ذلك اليوم ثم ذهبت الى السفارة لتناول طعام الغداء وعند وصولى الى السفارة أبلغتنى وزارة الخارجية أن وزارة الخارجيـــة السوفييتية وافقت على منح زوجتى تصريح دخول وانها ستلحق بى بعد قليل ••

ـ وماذا فعلت بعد أن تناولت طعام الغداء ؟

ـ حسنا • تناولت بعض كئوس من الخمر أثناء الغداء •••

وتوقف الشاهد عن متابعة الحديث ، وبدت عليه امارات الخجل ، ثم أردف :

ـ هل هذا هو ما تريد منى الافضاء به ؟

ـ حسنا •• ماذا حدث ؟

فاردف رودس : أثناء الغداء ذهبت الى « مارنيز » وهناك احتسيت

كئوسا قليلة بل عدة كئوس قبل أن أعود أدراجي الى الجراج • وعندما عدت اليه كان هناك رجلان روسيان ميكانيكيان يعملان معى فى الجراج، وأذكر اننى قررت انه يجب أن يتناولا الشراب معى ، وهكذا تتـــابعت الكئوس طوال فترة بعد الظهر •

ومضى رودس يقول : وفىالساعة الثالثة والنصف أو الرابعة فيما أظن ، جاءت صديقة أصغر الميكانيكيين الى الجراج وكانت قد استعارت سيارته فى ذلك اليوم لتأخذ صديقها معها • وكانت قد بقيت كمية من الفودكا التى كنا نشربها بعد ظهر ذلك اليوم فقلت للميكانيكى « لـــماذا لا تحضر صديقتك لتتناول كاسا من الشراب ؟ » • وعندما جاءت كانت معها فتاة أخرى لم يسبق لى أن رأيتها •

وهكذا تناولنا عدة كئوس أخرى مما بقى لدينـــا من الفودكا • ولست أذكر من الذى اقترح أن نتناول طعام العشاء معا فى تلكالليلة، والأرجح اننى كنت صاحب الاقتراح ولكننى لا أذكر على كل حال كيف بدأت المغامرة ، ولكننا غادرنا الجراج فى سيارته مع الفتاتين ، وأذكر اننا قمنا بجولة الى •• أظن أنها كانت شقته ، ولكنى لم أدخلها ولا أعلم ماذا كان بداخل هذا المبنى •

وعلى كل حال لقد غاب الرجل ربع ساعة أو عشرين دقيقة حيث اغتسل واستبدل ثيابه ثم عاد الى السيارة ، ومضى أربعتنا الى أحدفنادق موسكو حيث استمر الحفل طول الليل • أذكـــر اننى رقصت وشربت وطعمت مع هؤلاء الاشخاص ، ولكنى لا أذكر كيف غادرت الفنـــدق بأية طريقة أو بأى شكل ، فقد فقدت الوعى فاضطروا الى حملى •

وكان الشيء التالى الذى استطاع الجاويش تذكره هو مشـــــهد تدهوره •

قال : أذكر اننى استيقظت فى صباح اليـــوم التالى فألفيتنى مع الفتاة فى الفراش فى غرفة حسبتها غرفتها ••

أما المرحلة التالية من القصة المشينة فحدثت بعد حوالى ســـتة أسابيع •• اتصلت الفتاة تليفونيا بالجراج وتحدثت الى الجاويش واتفقت معه على اللقاء فى المدينة • وبعد اللقاء تحدث اليه رجلان روسيان وطلبا المجيء معهما ، فذهبوا الى غرفة الفتاة التى انصرفت من فورها ، وفى التو أخذ الرجلان الروسيان يتحدثان الى الجاويش أما الفتـــاة فانه لم يرها ثانية •

وبعد ذلك قابل الرجلين ثانية ، كما قابل خمسة آخرين كان اثنان منهم يرتدون ثياب الجيش الروسى ـ وبلغت مرات اللقـاء خمس عشرة مرة ٠

ـ هل قدمت لهم أية معلومات أثناء هذه المقابلات ؟

ـ نعم يا سيدى ٠

ـ وهل حصلت على نقود من هؤلاء الاشخاص ؟

ـ نعم يا سيدى ٠

ـ كم بلغ مجموع هذه النقود أثناء الفترة التى قضيتها فى موسكو؟

ـ مبلغ يتراوح بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ دولار ٠

ـ وهل كانت المعلومات التى قدمتها لهم صادقة أم كاذبة ٠

ـ بعضها صادق والبعض الآخر مختلق ٠

وقال الجاويش رودس ردا على أسئلة المدعى تومكنز انه قدم للروس ترجمة كاملة لحياته وحياة أسرته فضلا على جميع تفصيلات عادات وحياة جميع موظفى السفارة العسكريين والتابعين لوزارة الخارجية ٠ وقد قيل له فيما بعد كيف يستطيع الاتصال بالسفارة السوفييتية فى واشنجتون عند عودته الى الولايات المتحدة ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وأكد ذلك عنـدما استجوب ٠

وبدأ الدفاع اسـتجوابه بأن طلب الى موكله الوقوف ، فوقف السجين ٠

ـ أخبرنى أيها الجاويش رودس ٠ هل رأيت هذا الرجل من قبل؟

ـ كلا يا سيدى

ـ هل ترى فيه أى شخص سبقت لك رؤيته أو معرفتـه تحت أى اسم ؟

ـ كلا يا سيدى

ـ هل اتصل بك أى ممثل للاتحاد السوفييتى شخصيا فى الولايات المتحدة ؟

ـ كلا يا سيدى ٠٠ لست أذكر شيئا من ذلك

ـ هل تلقيت مثل هذه الانباء من أى شخص روسى أثنـاء وجودك فى الولايات المتحدة ؟

ـ كلا يا سيدى

لو ان الجاويش التعس كان يظن ان الدفاع سيتهاون معه ، فقد أخذ على حين غرة حينما انتقل محامى المتهم بغتة الى الحديث عن نشاطه فى موسكو بلهجة تشف عن الغضب الجائح ٠

ـ أليس صحيحا انك كنت تفرط فى الشراب يوميا طوال الشهرين الأخيرين من اقامتك فى موسكو ؟

ـ أعتقد أن هذا صحيح يا سيدى

ـ هل سبق لك أن سمعت عن رجل اسمه بندكت ارنولد ؟

ـ نعم يا سيدى

ـ ما رأيك فيه كشخصية فى التاريخ الامريكى ؟

ـ ليس ممتازا

فقال الدفاع باصرار : سألتك عن رأيك فيه ؟

فقال الجاويش : لقد أجبت على ذلك ٠ قلت انه ليس رجلا ممتازا

ـ لماذا ؟

ـ اننى ٠٠٠٠

ـ أليس سبب ذلك انه خان بلاده ؟

ـ أظن ذلك

ـ هل تعرف من تاريخـه ما يكفى لان تعلم أن بندكت ارنولد لم يفعل ذلك من أجل المال ؟

ـ أعرف ذلك

فقال الدفاع عن المتهم موجها حديثه الى الرجـل التعس الواقف موقف الشاهد بلهجة طافحة بالغضب الشديد :

ـ أيها الجاويش ٠٠ لعل بندكت ارنولد كان أكبر خائن فى التاريخ الامريكى ولكنه كان كذلك حتى اليوم فقط ٠

وهنا تدخل القاضى قائلا : هل هذا سؤال ؟

فقال المحامى دونوفان : سيدى ٠٠ انها حقيقة تقرر

- ٣ -

ولو أن آبل قال انه مذنب فى ادعاء التجسس ، الا أنه رفض أن يقف فى موقف الشهود ويدلى بشهادته لمصلحته الخاصة ، ومن ثم لم يكن فى استطاعته الدفاع عن اســـتجوابه ولذلك فانه لم يعترف بأنه جاسوس للمخابرات السوفييتية ٠ الا أن الادلة ضده كانت قوية ولذلك حكم بادانته ٠

وبعد ثلاثة أسابيع ، وفى يوم ١٦ من نوفمبر ١٩٥٧ حكم عليـــه القـــاضى بايرز بالسجن ثلاثين عاما وغرامة ٣٠٠٠ دولار وعرض الحكم على محكمة استئناف الولايات المتحدة يوم ١٧ من يوليو ١٩٥٨ فأقرته ، وعلى أثر ذلك قدم آبل التماسا الى المحكمة العليا التى وافقت على اعادة النظر فى الاتهام ولكنها قصرت الالتماس على موضوعين دســــــتوريين. يتصلان بالوسيلة التى يستخدمها رجال الاتحاد فى الحصول على الأدلة من استوديو آبل وغرفته فى الفندق ، وما قاله الدفاع من أن القبض على آبل كان غير قانونى لان رجال الشرطة لم يحصلوا عـــلى ترخيص بذلك من المحكمة بتفتيش المكانين ومصادرة محتوياتهما ، فضـــلا على احتجازه بلا مبرر لمدة أربعة أسابيع قبل تقديمه للمحاكمة ، تعرض أثناءها لضغط عنيف لارغامه على الكلام والاعتراف ٠ وأخيرا رفضت المحكمة العليـــــا الالتماس يوم ٢٨ من مارس ١٩٦٠ وأيدت حكم المحكمة الادنى بأغلبيـــة تافهة ، خمسة أصوات ضد أربعة ٠

وأيدت المحكمة الامريكية العليا تنفيذ الحكم على آبل على أساس انه أجنبى قبضت عليه سلطات الهجرة والجنسية توطئة لاتخاذاجراءات ترحيله ٠ واجراءات الابعاد فى الولايات المتحـــدة لا تخضع للضمانات الدستورية المتعلقة بمحاكمة المجرمين العاديين ٠ وقالت أغلبية أعضـــاء المحكمة : انه لما كان آبل عرضة للابعاد كأجنبى دخل البلاد بطريقة غـير مشروعة ، فان مجرد انتهاز رجال المباحث الجنائية للفرصـــة وحصولهم

على أدلة بدون أمر من المحكمة واستجوابه لفترة طويلة قبل تقديمه للمحاكمة لا يصلح أساسا لنفي ادانته ، كما كان يحدث لو أنه تعرض للاعتقال الادارى الصحيح ٠

ومع هذا فقد تبين ان المصور صاحب استوديو بروكلين أهم جاسوس سوفييتي قبض عليه في الولايات المتحدة ، ومن المحتمل أن شبكة الجاسوسية التى كان يديرها كانت أخطر شبكة عملت فى تلك البلاد ٠

وطبقا للعرف السائد لزم أستاذ الجاسوسية الصمت ٠ والى عهد قريب لم تبد الحكومة السوفييتية أية اشارة تدل على علمها بوجودالمقدم رودلف ايفانوفتش آبل ٠ وعندما سأل مندوبو الصحف الامريكية وزير الخارجية السوفييتية أندريه جروميكو ، أثناء قضية الطائرة ى ـ ٢ التى حدثت بعد ذلك بسنوات عما اذا كان غير صحيح أن الجواسيس السوفييت يعملون فيمختلف الدول ، أجابجروميكو قائلا «ان حكومتى لا تتورط فى هذا النشاط » ٠

وفى يوم ١٠ من فبراير ١٩٦٢ استرد الروس أستاذ جاسوسيتهم مبادلة مع قائد الطائرة ى ـ ٢ جارى باورز الذى كان نزيل السجون السوفييتية بعد أن اتهمته محكمة موسكو العسكرية بالتجسس فى أغسطس ١٩٦٠ ٠ وقد تم حفل التبادل الرسمي بعد الفجر بقليل فوق قنطرة جلينبك التى تعتبر الحد الفاصل بين ألمانيا الشرقية وبرلين الغربية ٠ وكان محامى آبل الامريكى جيمس دونوفان هو الذى تولى مفاوضات هذه العملية بعد أن كتبت اليه زوجة آبل من ألمانيا الشرقية تطلب اليه الاضطلاع بهذه العملية ٠ وأرسلت رسالتها الى السلطات بواشنجتون التى اقتنعت من فورها بأن هذه الرسالة كتبت بايعاز من الحكومة السوفييتية٠وأخيرا ، وبعد مراسلات مطولة بين دونوفان ووزارة العدل وبين عدد كبير من الموظفين فى واشنجتون أوفد المحامي الى برلين الشرقية لابلاغ السلطات الروسية هناك عن طريق الالمان أن حكم آبل « لا يمكن تخفيفه في الظروف الصحية » ٠

وفى رأى موظف أمريكى واحد على الأقل ـ هو مساعدالنائب العام تومكنز الذى تولىالاتهام ضد آبل ـ انه ليس هناك أدنى شك فىالجانب الذى أفاد من هذا الاتفاق ٠٠ فقد قال تومكنز أن باورزكان مجرد«طيار» أما آبل فكان « رجلا محترفا وعبقريا فى حقل المخابرات »

الفصل السادس

محاكمة فرانسيس جارى باورز قائد الطائرة ى ـ ٢ فى موسكو

- ١ -

فى يوم ٥ من مايو ١٩٦٠ ألقى نكيتا خروشوف ، سكرتير الحزب الشيوعي بالاتحاد السوفيتي ورئيس وزراء اتحادالجمهورياتالسوفيتية الاشتراكية ، خطابا مطولا فى الكرملين ، أمام المجلس السوفييتى الاعلى ، وفى نهاية هذا الخطاب أعلن أن طائرة أمريكيةكانت تحلق فوق الأراضى السوفييتية أسقطت يوم أول مايو ٠٠٠ وقرر أنه سيعرض الامر علىمجلس الامن بالامم المتحدة « لوضع حد للاعمال العدوانية التى ترتكبها الولايات المتحدة » ٠ وراح يهاجم هجوما مستفيضا هذا النوع من الطيران ، وقال « ان الامريكيين اختاروا اليوم الذى يعتبر عند شعبنا وعند الجماهير العاملة فى جميع أنحاء العالم أهم عطلة ، عيد أول مايو ، اليوم الدولى لأخوة الطبقة العاملة وتضامنها » ٠ ولكنه لم يقدم تفاصيل أخرى عن رحلة الطيران ولم يذكر شيئا عن مصير قائد الطائرة ٠

وفى اليوم نفسه ، أبلغ متحدث بلسان وزارة الداخلية فى واشنجتون الصحافة العالمية ـ وهو يشير الى تصريح خروشوف ـ أن الوزارة علمت من ادارة أبحاث الجو والفضاء القومية أن طائرة غير مسلحة من طراز « ى ـ ٢ » تجرى أبحاثا عن جو الفضاء من قاعدة « أطنه » بتركيا ويقودها طيار مدنى فقدت منذ يوم أول مايو ٠ وقال المتحدث « انه من الجائز جدا أن يكون خلل قد حدث بجهاز الاكسجين فأدى الى جهل الطيار بمكان وجوده ، وبذلك استمرت الطائرة فى انطلاقها الاوتوماتيكى لمسافة كبيرة واخترقت المجال الجوى السوفييتى مصادفة» ٠ وأضاف المتحدث باسم الوزارة الامريكية أن السلطاتالامريكية ستبحث الموضوع مع الحكومة السوفييتية « مع الاهتمام التام بمصير الطيار » ٠

وفى الوقت ذاته أصدرت ادارة أبحاث الجو والفضاء القومية تصريحا قالت فيه ـ بعد الاشارة الى المصاعب التى واجهها الطيار بسبب الخلل الذى طرأ على جهاز الاكسجين فى منطقة بحيرة قان ـ ان هذه الرحلة جزء من برنامج هذه الادارة للابحاث فى طبقات الجو العليا ، وأن مهمة الطيار لم تكن لتأخذه فيما وراء الاراضى التركية ٠٠ وطبقا لهذا التصريح فان « آلات » الطائرة صممت للحصول « على معلومات أدق » عن حالة الطقس واتجاهات الرياح فى طبقات الجو العليا ٠٠ وفى اليوم التالى عادت الوزارة الامريكية تنكر أن طائرة أمريكية تعمدت الاعتداء على المجال الجوى السوفييتى ، وقالت : انه من «المفزع» الادعاء بأن الولايات المتحدة كانت تحاول خداع العالم حول الغرض الحقيقى من الرحلة ٠

وفى يوم ٧ مايو تحدث خروشوف ثانية الى مجلس السوفييت الاعلى فقال :

ـ أيها الرفاق ، يجب أن أطلعكم على سر٠حينما قدمت لكم تقريرى تعمدت ألا أقول أن الطيار على قيد الحياة وبخير ، وأننا حصلنا على أجزاء من الطائرة ٠ ولقد فعلنا هذا عمدا ، لأننا لو ذكرنا القصة كاملة لفكر الامريكيون فى رواية أخرى ٠

ومضى الزعيم السوفييتى يقول : ان الطيار الذى قبض عليه اسمه « فرانسيس ج ٠ باورز » وهو ضابط برتبة ملازم أول فى سلاح الطيران الامريكى وقد خدم بهذا السلاح حتى سنة ١٩٥٦ ثم انضم الى المخابرات السرية الرئيسية وأنه يحصل على ٢٥٠٠ دولار مقابل عمله فى التجسس فى حين كان يحصل على مرتب شهرى قدره ٧٠٠ دولار كضابط فى سلاح الطيران الامريكى ٠ وأضاف خروشوف ، بلهجة ساخرة طرب لها سامعوه : « تلك هى الطريقة التى يشترى بها رأس المال الحياة والناس ٠٠ ثم قال أن الطيار لم يصب بأى دوار ،كما أن جهاز الاكسجين الموجود بالطائرة لم يصب بأقل خلل ٠ وأضاف « لقد اتبع طريقا مرسوما ونفذ بعناية الاوامر التى أصدرها له رؤساؤه ، وأدار آلاته فوق أهداف محددة ليجمع معلومات تجسس عن الاهداف العسكرية والصناعية السوفييتية ، واستمر فى طيرانه حتى لحظة العقاب حينما انتهت مهمة القرصنة التى كان يقوم بها فى قلب البلاد » ٠

وكانت الطائرة التى وصفها خروشوف بأنها «طائرة لوكهيد ى ـ ٢ للطيران العالى بالسرعة المنخفضة » قد أسقطت بصاروخ سوفييتى فوق سفرولوفسك وهى تطير على ارتفاع ٦٨٫٠٠٠ قدم ، ولم يصب الطيار بسوء ٠

وقال خروشوف لمستمعيه انهم لم يحصلوا على معـــدات الطائرة فحسب ، وانما حصلوا أيضا على صور فوتوغرافية التقطت لمناطق عديدة من الاتحاد السوفييتي • وأضاف ، وهو يحمل عدة صور : « هاكم عددا منها فهذه صورة أحد المطـــارات • أن الخطين اللذين لونهما أبيض هما صفوف من الطائرات السوفييتية المقاتلة • وهاكم صورة لمطار آخر ظهرت فيها الطائرات أيضا ••• لقد حمضنا جميع هذه الافلام بأنفسنا » •••

وتوقف قليـــلا ، ريثما يعطى الصور لرئيس الجلسة ، ثم أردف « ان آلة التصويرليست رديئة ، والصور واضحة جدا ، ولكنى أرى لزاما على أن أقول أن صورنا أحسن ، ومن ثم فالواقع أنهم لم يكسبوا كثيرا »

وقال خروشوف ان الطيـــار قال ، حـــين استجوابه ، أن الرحلة المشئومة ، التى قام بها يوم عيد أول مايو ، لم تبـــدأ من مطار تركى ، ولكنها بدأت من « بشاور » بالباكستان ، وأن التعليمات التى تلقـــاها كانت تقضى بالطيران فوق نقط محددة فى الاتحاد السوفييتى ، من بينها بحر ارال ، وسفرولوفسك ، واركانجلسك ، ومرمانسك ، وأن عليه أن يتم مهمته بالهبوط فى بودو ، بالنرويج •• وقيل أن الطيار ذكر حـين استجوابه ما يلى : « فى أثناء طيرانى فوق الاراضى السوفييتية كان على أن ادير وأوقف الاجهزة فوق نقط معينة حددت على الخريطة ، وأعتقد أن الغـــاية من رحلتى فوق الاراضى السوفييتية كانت جمـع معلومات عن الصواريخ السوفييتية الموجهة ومحطات الرادار » ولتأييد القـــول بأن الطائرة كانت تقوم برحلة للتجسس قال الزعيم الســـوفيتى أنه عثر بالطائرة على جهـــاز لتسجيل الاشارات التى يرســـلها عدد من محطات الرادار السوفييتية الى الارض ، وأضاف خروشوف قائلا : ان الطيـــار اعترف بأن وحدته تعرف بـ « ١٠ ــ ١٠ » وأنهـــا وضعت تحت اشراف ادارة أبحاث الجو والفضاء القومية « للتعمية » ، والواقع أن مهمة هذه الوحدة هى الاستكشاف العسكرى من طبقات الجو العليا •

واستطرد رئيس الوزراء السوفيتى ، فقدم لمستمعيه عرضا ضاحكا للمعدات التى وجدت مع الطيار الأســـير • وكان من بينها أبرة سامة « وخزة واحـــدة منها يعقبها الموت مبـــاشرة » • وقال رئيس الوزراء السوفييتى ان الاوامر التى لدى الطيار كانت تقضى بأنه لايجوز بأى حال من الاحوال أن تقبض السلطات السوفييتية عليه حيا • وصاح خروشوف وهو يعرض صورة الابرة : « اليكم الأداة • انها آخر انجـــاز فى الفن الأمريكى لقتل الشعب الأمريكى » « وهناك بعد ذلك المسدس الصامت الذى أعطى له ليستخدمه فى حالات الطوارىء ولكن ليس « لأخذ نماذج

من الهواء » وانما « للقتل » فاذا كان الغرض من المســـدس هو حماية الطيار من الحيوانات الضارية فى حالات الهبوط الاضطرارى ، كما ادعى الطيار ، فلماذا يكون صامتا ! » ان هذا يدل أيضا على نوع المهمة العلمية التى أوفد الطيار فيها ٠

وقد وجدت مع الطيار أيضـــا كمية كبيرة من النقد السوفييتى ، بالاضافة الى كمية من الفرنكات الفرنســـية الذهبية ، وماركات ألمانيا الغربيـة ، والليرات الايطالية ، وغيرها من النقود ٠ وقال خروشـــوف « قيل لنا أنه أرسل لاستكشاف الجو ، ومع ذلك فقد أعطوه ٧٥٠٠ روبل ســـوفييتى ٠ والسؤال هو : متى وأين ولأى غرض يستطيع استخدام النقود ؟ ٠ من المحقق أنه لم يقم بالرحلة ليستبدل بالروبلات القديمة روبلات أخرى جديدة » ٠ وكان من الطبيعى أن يحدث هذا التلميح ، عما تم من اعادة تقدير الروبل داخل الاتحاد السوفييتى ، أثرا حميدا بين المستمعين فى الكرملين ٠

وأردف خروشوف : وبالاضافة الى ساعته ، أعطى ساعتين ذهبيتين وسبعة خواتم نسائية ذهبية ، فكيف كان الطيار سيستخدم هذه الأشياء فى طبقات الجو العليا ؟ لعله كان عليه أن يطير الى طبقات أكثر علوا ليصل الى (مارس) حيث يقوم بمغازلة نسائه ؟ وهكذا ترون كيف يزود الطيارون الامريكيون بما يلزمهم للحصول على نماذج من هواء طبقات الجو العليـــا ٠٠

وهنا انفجر أعضاء مجلس السوفييت الاعلى ضاحكين ، ولكن زعيمهم ما لبث أن أتى بحركة مفاجئة جعلتهم يدركون ما فى الموقف من حقائق قاسية ٠

وقال خروشوف : « ليست هناك أية أقوال وهمية يمكن أن تنقذ سمعة الأشخاص المسئولين عن هذا العمل الغادر ٠ لقد ضبطوا متلبسين وافتضح أمرهم ، كمنظمة لغزو الفضاء الجوى السوفييتى غداة عقد مؤتمر القمة فى باريس ، وقبـــل زيارة الرئيس الامريكى أيزنهاور للاتحـــاد السوفييتى بفترة قصيرة ٠٠ وفى رأيى أن تلك طريقة سيئة للاستعداد لاجراء مشاورات جدية حول تخفيف حدة التوتر الدولى » وأضاف الزعيم السوفيتى أنه يجب عليهم التفكير فى تقديم الطيار للمحاكمة « حتى يرى الرأى العام كيف تحاول الولايات المتحدة استفزاز الاتحاد السوفييتى » ٠

أثارت هذه التصريحات رد فعل قويا فى واشنجتون ، حيث أتاح اختلاف الزمن بين العاصمتين بست ساعات الفرصة للوزارة الأمريكية

لتصدر ردا ، كما حدث من قبل فى اليوم نفسه • فأعلنت الوزارة من غير مواربة أنه « وان كان قد ثبت من التحقيق الذى أمر الرئيس باجرائه ، أن السلطات فى واشنجتون لم تصرح باجراء رحلات كالتى وصفها المستر خروشوف ، الا أنه يبدو أن طائرة مدنية غير مسلحة من طراز « ى ـ ٢ » حاولت الحصول على المعلومات الموجودة وراء الستار الحديدى ، ولذلك يحتمل أنها طارت فوق الاراضى السوفييتية » • وأضاف هذا التصريح : أن من بين الأشياء التى تخلق التوتر فى عالم اليوم من وقوع هجوم مباغت باسلحة الدمار الشامل ، وبالنسبة لخطر وقوع هجوم مفاجىء قامت طائرات من طراز الطائرة المدنية غير المسلحة « ى ـ ٢ » برحلات على طول حدود العالم الحر فى خلال السنوات الأربع الماضية •

ان من الصعب أن نتصور أن هناك عملا دبلوماسيا أكثر اذلالا وتهورا من ذلك ، ومن وجهة النظر الأمريكية لم يطرأ أى تحسين على الموقف نتيجة للتصريح الذى أفضى به الوزير « كريستيان هيرتر » بعد ذلك بيومين بغية « تكملة التصريح السابق وايضاحه » • فقد بدأ المستر « هيرتر » تصريحه بالاشارة الى « شبكات الجاسوسية الواسعة » التى يكمل الزعماء السوفيت بها « تقديرهم الكامل لمجتمعات العالم الحر المفتوحه » فى حين أنهم يحتفظون بمجتمعهم « مغلقا باحكام وخاضعا للسيطرة الصارمة » مع استنباط أسلحة حديثة تحمل رؤسا حربية فتاكة ، كما أن احتمال وقوع هجوم مفاجىء وعدوان يشكل خطرا مستمرا • ولقد زاد هذا الخطر بما يلجأ اليه الزعماء السوفييت من تهديد بالدمار الشامل •

واستطرد المستر هيرتر : وأقولها بصراحة انه من غير المعقول أن تتاح للنظام السياسى السوفييتى الفرصة لوضع ترتيبات سرية لمواجهة العالم الحر بأحد أمرين ، اما الاستسلام المهين واما الدمار الذرى ، ومن ثم فأن الحكومة الأمريكية تقصر فى مسئوليتها ، ليس فقط حيال الشعب الأمريكى ولكن أيضا نحو الشعوب الحرة فى كل مكان ، اذا لم تتخذ الاجراءات اللازمة للاقلال من ، خطر الهجوم المفاجىء والتغلب عليه • والواقع أن الولايات المتحدة لم ولن تتخلى عن هذه المسئولية •

وأضاف المستر هيرتر أنه منذ بدأت هذه المظاهرة ، أصدر الرئيس ايزنهاور توجيهات لجمع المعلومات (بكل وسيلة ممكنة) عن الهجوم المفاجىء وتمكينهم من وضع ترتيبات محددة للدفاع • « وبموجب هذه

التوجيهات وضعت برامج اشتملت على قيام الطائرات المدنية غير المسلحة برقابة جوية شديدة » .

وأيد الرئيس ايزنهاور ما صرح به وزيره فى مؤتمر صحفى عقد يوم ١١ مايو ، وكرر القول بأن جمع المعلومات (وهو ضرورة حيوية بغيضة) كان احتياطا ضد الهجوم المفاجىء الشامل ، وأوضح أن هذه العمليات منفصلة عن الاعمال التى تقوم بها « مصالح الحكومة العادية المنظورة » التى يتولى الاشراف عليها موظفون مسئولون فى منطقة الاعمال السرية .. وقال « ان لهذه الأعمال قواعد ووسائل اخفائها لأن غايتها التضليل والايهام » .

وفى تلك الاثناء بعثت الحكومة السوفييتية بمذكرات احتجاج رسمية للولايات المتحدة ولتركيا والباكستان والنرويج ، لأنها سمحت باستخدام أراضيها فى هذه العمليات ، وقالت الحكومة السوفييتية : « ان الاعمال المعادية التى قامت بها الطائرات الامريكية ، المرة بعد الاخرى ، فوق الاتحاد السوفييتى لم تكن نتيجة عمل قواد الولايات المتحدة العسكريين فى منطقة أو أخرى ولكنها تعبير عن (سياسة مدروسة) من جانب الولايات المتحدة » . وردت واشنجتون على ذلك قائلة « ان حكومة الولايات المتحدة لا تنكر أنها اتبعت مثل هذه السياسة لأغراض دفاعية بحتة ، ولكن ما تنفيه بقوة هو أن لهذه السياسة أية نوايا عدوانية ، أو أن رحلة الطائرة غير المسلحة « ى ـ ٢ » يوم أول مايو كانت تهدف للقضاء على الجهود المبذولة لنجاح مؤتمر رؤساء الحكومات المقبل فى باريس ..

وفى الاجتماع التمهيدى ، الذى حضره المستر خروشوف والرئيس « ديجول » ورئيس الوزراء « ماكميلان » والرئيس « أيزنهاور » ، وهو الاجتماع الذى عقد فى باريس ، أوضح رئيس الوزراء السوفييتى أنه اذا أعطت حكومة الولايات المتحدة تعهدا بأنها ستوقف اختراقها لحدود الدولة السوفييتية ، وأصدرت تصريحا تستنكر فيه «الاعمال الاستفزازية التى ارتكبت فى الماضى » وأكدت انها ستعاقب المسئولين مباشرة عن هذه الأعمال ، فانه ـ أى المستر خروشوف ـ مستعد للاشتراك فى المؤتمر « وبذل كل جهد للاسهام فى نجاحه » .

ورفض الرئيس أيزنهاور الاعتذار والوعد بعدم العودة الى هذه الاعمال ، وعلى أساس عدم قدرته على ربط خلفه فى البيت الابيض بأية عهود ، كان أبعد ما أمكنه أن يذهب اليه هو التصريح بأن هذه الرحلات

الجوية « قد أوقفت » ولن تستأنف فى أثناء الفترة الباقية من حكمه ٠ ولكن هذا لم يرض خروشوف ولهذا أنهى اجتماع القمة ٠

وعلى أثر ذلك طلبت الحكومة السوفييتية عقـــد جلسة غير عادية لمجلس الامن ، للنظر فى اتهام أن رحلة الطائرة « ى ـ ٢ » كانت « عملا عدوانيا » من جانب الولايات المتحدة ٠ وبعد محاولات طويلة استمرت خمسة أيام ، رفض الاتهام السوفييتى بسبعة أصوات مقابل صوتين ، على أساس أن ارسال طائرة واحـــدة غير مسلحة للتجسس فوق الاراضى السوفييتية لا يستدعى تقديم شكوى ، طبقا لميثاق الامم المتحدة ٠

كان أهم ما يسعى اليه المستر خروشوف الحصول على اعتـــذار علنى ، وهو ما كان يحتمه مركزه ٠ ولقد حصل عليه فعـلا من حكومات تركيا والباكستان والنرويج ، التى اعترفت بأن رحلات طيران الطائرات « ى ـ ٢ » تجرى من القواعد الامريكية الموجودة فى أراضيها ، ووعدت باتخاذ الخطوات المستطاعة لمنع استخدام أراضيها فى مثل هذه الاغراض ٠ ولكن فشل المستر خروشوف فى الحصـــول على الاعتـذار من الرئيس أيزنهاور لم يمنعه من الحصول عليه ٠ كما سنرى من قائد الطائرة « ى ـ ٢ » فى قاعة المحكمة بموسكو ٠

- ٢ -

صممت الطائرة « ى ـ ٢ » التى وصفت رســميا بأنهــا « طائرة استكشاف جوى فى المناطق الجوية العليا » فى سنة ١٩٥٤ لتستخدمها القيادة الجوية الاستراتيجية بالولايات المتحدة ٠ وكان مصممها « كلارنس جونسون » من اتحاد لوكهيد الجوى ، وهو مهندس جوى لامع تولى توجيه بناء الطائرات الامريكية النفاثة فى أثناء الحرب الاخــيرة ٠ وكانت غاية « جونسون » انتاج محرك يستطيع الوصول الى ارتفاع ٧٠ر٠٠٠ قدم أو أكثر من ذلك والبقاء على هذا الارتفاع دون خوف من تمكن الطــائرات « الميج » السوفييتية المقاتلة ، أو الصواريخ من اسقاط طائرات « ى ـ ٢ » فى أثناء قيامها بأعمال الاستكشاف ٠ وقد نجح « جونسون » فى تحقيق هدفه ٠ فقد كان طول جسم الطائرة ٥٠ قدما ، وكان جنـاحاها كبيرين لا يقل طولهما عن ٨٠ قدما ، وكانت مصنوعة من المعـادن الخفيفة ومن بينها (تيتانيوم) ووزنها وهى فارغة خمسة أطنان فقط ٠ وكانت تحمل نحو ١٠٠٠ « جالون » من الوقـــود المختبر المكرر تكريرا تاما والذى

لا يتبخر فى الارتفاعات الشاسعة ، وتستطيع أن تقطع في الرحلة الواحدة أكثر من ٣٠٠٠ ميل ، كما تستطيع الانزلاق الى مسافات طويلة. والواقع انها كانت زحافة مزودة بمحرك نفاث .

وبدأ انتاج طائرة « ى ـ ٢ » عام ١٩٥٥ وفى أواخر هذا العـــام تقريبا وضعت السلطات المختصة برنامجا لاستخدام هـــذه الطائرات ، وأعلن أن طائرات « ى ـ ٢ » ستستخدم للحصول على نماذج من الهواء من الارتفاعات العالية للبت فى موضوع الاشعاع الذرى ، واجراء أبحاث جوية » وكانت هذه القصة للتعمية » .. وفى أوائل عام ١٩٥٦ شـــكل سلاح الطيران الامريكى أول وحدة من طائرات « ى ـ ٢ » وكانت هـــذه الوحدة تعمل فى منطقة محظورة فى « نيفادا » .

وكان لا بد من عدم استخدام الطيارين العســـكريين حين الطيران فوق أراضى عدو مرتقب للقيام برحلات استكشاف فى وقت الســـلام ، ولذلك أعلنت اللجنة الاستشارية القومية انها ستستخدم طيارين مدنيين معينين بعقود مبرمة مع مؤسسة « لوكهيد » التى قررت تنفيذ « برنامج لاستكشاف طبقات الجو العليا بطائرات « ى ـ ٢ » استعارتها من سلاح الطيران » وكان هؤلاء الطيارون من المتطوعين الذين يتصفون بالمعـــرفة والمهارة فى قيادة الطائرات النفاثة .

وكان من بين الطيارين الذى وقع عليهم الاختيـــار حين بدء تنفيذ البرنامج شاب فى السابعة والعشرين من عمره اسمه « فرانسس جارى باورز » وكانت أسرته من ولاية كنتوكى الجنوبية وكان أبوه عاملا فى منجم للفحم أصيب فى حادث فاضطر للعمل اسكافيا (جزمجيا)، واعتادت أمه معاونة أبيه فى الحانوت ، وكانت تشتغل (غســـالة) أيضا ليمكن تهيئة العيش المتواضع للاسرة . وكان جارى الابن الوحيد فى الاسرة ، ولكن كانت له خمس أخوات تزوجن جميعـــا أشخاصا ينتمـــون لطبقة البروليتاريا ، اذ كان أحدهم صحفيا ، والثـــانى ساعى بريد ، والثالث كهربائيا ، والرابع اسكافيا كان يتولى أيضا قيادة سيارة نقـــل تلاميذ المدرسة المحلية . وكان والدا « جارى » يرغبـــان فى أن يصبح ابنهما طبيبا ، ولكن ارتفاع نفقات تعليم الطب وطول فترة التعليم عاقا جراى عن ذلك . وحينما غادر كلية ميليجان بالقرب من مدينة جونسون كان فى السن التى تقرب من سن الاستدعاء للخدمة العسكرية ، وقد قال فى ذلك ان من الصعب الحصول على عمل فى هـــذه السن ، ولذلك قرر الانتظار ريثما يستدعى ويلتحق بسلاح الطيران وأضاف جارى قائلا انه فعل ذلك لان الطيران كان يستأثر باهتمامه دائما .

وحينما انتهت فترة خدمته العســكرية ، كان يرجو أن يوفق فى الحصول على وظيفة طيار تجارى ، الا أنه كان قد جاوز سن الصلاحية لهذا العمل ولذلك سره الحصول على وظيفة طيران فى ادارة الابحـاث الجوية بأجر يزيد كثيرا على الاجر الذى كان سيمنحه فى وظيفة طيـار تجارى ٠

وجاز « باورز » الاختبار البدنى ، وأعطى ثوب طيران خاصا للطيران على ارتفاع شاهق ، وتم اختبار هذا الثوب عليه فى غرفة يماثل جوها جو طبقة عليا ، وقيل له بعدئذ : ان مرتبه سيكون ٢٥٠٠ دولار فى الشهر ، سيحجز منه ألف دولار ، كل شهر ، الى أن ينهى عقده بنجاح ، وقيل له أيضا انه سيغيب عن الوطن نحو ثمانية عشر شـهرا ، وان واجباته الاساسية هى « الطيران على طول الحدود السوفييتية وجمع أية معلومات رادار أو لاسلكية » وانه من « الجائز أن تكون هناك واجبات أخرى »

وفى أواخر شهر مايو ١٩٥٦ وقع « باورز » عقده مع ادارة الابحاث الجوية ، وكان اتفاقية خدمة نص فيها على تعرضه لأقصى العقوبات اذا أفضى — بلا ترخيص — بأية معلومات عن عمله الجديد ٠ وكانت العقوبات غرامه ١٠٫٠٠٠ دولار أو السجن عشر سنوات أو الاثنتين معا ٠ وبعد فترة من التدريب تحت اسم مستعار (قيل لنا أنه فى حالة وقوع حادث ، فلا يجوز بأية حال من الاحوال لأى أشخاص ليسوا أعضاء فى الوحدة أن يربطوا بين الحادث وبين اسم باورز) ، قيـل لباورز انه ألحق بوحدة خاصة اسمهـا (فصيلة ١٠ — ١٠) وان مكان عمله سيكون فى قاعدة « انكرلك » الجوية بالقرب من « اطنه » بتركيا ، ولم يسمح له باصطحاب زوجته معه ، لعدم وجود مساكن للمتزوجين فى القاعدة ٠

كانا « جارى وبربارا باورز » قد تقابلا وتزوجا فى العام السابق ، وكانت « بربارا » حينذاك فى أوائل العقد الثالث من عمرها ، وتعمل موظفة فى البحرية الامريكية بمرتب اسبوعى قدره ٥٥ دولارا ، بالبانى بجورجيا ، فى حين كان زوجها ضابطا بسلاح الطيران برتبة ملازم بمطار « تيرنر » القريب ٠ وكان من الطبيعى أن تشعر « بربارا » بخيبة الامل لانها لن تستطيع مرافقة زوجها الى الخارج ، ولذلك قررت أن تتبعه من بعيد ٠ وكان أقرب مكان استطاعت الوصول اليه هو اليـونان ، حيث استطاعت الحصول على وظيفة سكرتيرة بسلاح الطيران واعتاد «جارى» أن يطير من « أطنه » لمقابلتها مرة أو مرتين كل شهر ، وأخيرا استطاعت شركة « لوكهيد » أن تدبر لها الانتقال الى « أطنة » وقد عاش الزوجان فى منزل

بالمدينة أول الامر ، ولكن فصيلة (١٠ ـ ١٠) نظمت فيما بعد على شكل مقطورات فى القاعدة وفيما بعد قالت بربارا « كان من حسن حظنا أن استطعنا الحصول على المقطورة الاخيرة وكانت تشرف على منظر جبلى رائع».

وبالنسبة « لبربارا باورز » فان زوجها وغيره من رجال الفصيلة كانوا يقودون طائرات تدريب نفاثة للخدمة والنقل فى ألمانيا · « انهم لم يتكلموا كثيرا عما كان الرجال يفعلونه ـ فقد كان هناك سبعة طيارين مثل « باورز » فى انركرلك ـ ولكنى كنت أشعر دائما بأن مايفعله خطر».

صحيح أن طائرات التدريب وطائرات « ى ـ ٢ » كانت تنقل من مكان لآخر بمعرفة طيارين تابعين لفصيلة « ١٠ ـ ١٠ » ، وقد اعترف باورز بأنه نقـــل طائرات من « اطنه » الى أماكن مثل بودو ، وبشاور ، وويستبادن ، ولكنه قاد أيضا طائرات «ى ـ ٢» فى رحلات على طول حدود ايران ، وأفغانستان ، والاتحــاد السوفييتى ، ولقــد قال لمستجوبيه فى موسكو : « فى عام ١٩٥٦ كنا أكثر اهتماما بمنطقة البحر الاسود · وفيما بعد ، تركز الاهتمام فى الشرق · وقد قيل لى حين قيامى باحدى الرحلات اننى قد أشــــاهد اطـــلاق صاروخ ، وأعتقد انهم كانوا مهتمين باطلاق الصواريخ » ·

ولقد قال أحد الخبراء السوفييت ، الذين استدعاهم الاتهام ان طائرة «ى ـ ٢» مزودة بآلة تصوير ذات زاوية منفرجة خاصة تلتقط الصور من سبع فتحات ، ولها بعد بؤرى طويل وعدسات دوارة · وقال هذا الشاهد انه كان بآلة التصوير أفلام تكفى لالتقــاط ٤٠٠٠ صورة تغطى مساحة عرضها ١٢٥ ميلا وطولها ٢١٧٠ ميلا ، والواقع أن آلة التصوير كانت قوية بحيث تستطيع تمييز رأس المسمار على ارتفاع ستة أميال وتصوير عنوانات الصحف من ارتفاع تسعة أميال ، وتمييز آثار الاقدام فى الثلج من مسافة اثنى عشر ميلا ، الا انه من المشكوك فيه جدا أن باورز كان يعلم بهذه القدرات المذهلة فى مهمات التصوير الفوتوغرافى التى زودت بهـا طائرة «ى ـ ٢» · وكل ما استطاع أن يقوله بلهجة قاطعة هو أنه يدير الجهاز ويوقفه فى نقط محددة على خريطة الطيران · كما أنه لم ير أى فيلم من الافلام التى تم تحميضها ، الا بعد أسره ، نظرا لان (النجاتيف) كان يرسل الى واشنجتون لمعاملته وتقديره · وعلى كل حال لقد قدر ـ فى أثناء السنوات الاربع التى استخدمت فيها طائرات «ى ـ ٢» ـ أن هذه الطائرات عبرت وعادت لعبور حدود الاتحاد السوفييتى نحو ١٥٠ مرة، وليس من شك فى أن التفسيرات الناتجة من تحليل الاخصائيين المهرة

للمعلومات التى جمعت فى أثناء هـذه الرحـلات أعطت كبار المخططين العسكريين بواشنجتون فكرة حسنة جدا عن قوة الاتحـاد السوفيتى الدفاعية والهجومية • والواقع أنه من المحتمل أن الجزء الاكبر من الصور الجوية للجزء الاكبر من الاتحـاد السوفييتى التقط قبل اسقاط طائرة « باورز » ى ـ ٢ فى أواسط روسيا يوم أول مايو ١٩٦٠ •

فقبل ذلك بأيام قليلة ، وعلى وجه التدقيق يوم ٢٧ أبريـل ، وفى نحو الساعة السادسة مساء ، ذهب « جارى باورز» الى المقطورة وطلب الى زوجته أن تعد له وجبة كبيرة ، وكانت « بربارا » تعرف معنى ذلك •• كان معناه أن زوجها ذاهب فى احدى مهامه ، وكانت الشمس تغرب حينذاك فوق الجبال ، فقالت «بربارا باورز» لنفسها «سيكون الطقس مواتيا لرحلته» ومضت تعد له الطعام فى حين أخذ « جارى » يحزم مهماته • وأعـدت له « بربارا »وجبة كبيرة ـ ترموس مملوء بحساء البطاطس وآخر بالقهـوة وسكر وقشدة (بـكمية كبيرة) وبعض الحـلوى والزيتون ••• الخ •• وفيما بعد قالت بربارا لقد كانت هذه آخر وجبة أعددتها له » •

وقضت الزوجة الأيام التالية القليلةفى « لعب البريدج مع الفتيات والاستمتاع بأشعة الشمس » ثم جاءت الصدمة الأليمة ، ففى السـاعة الخامسة والنصف من صباح يوم٢ منمايو استيقظت « بربارا » على طرق فوق باب المقطورة • وسمعت أصوات بعض أصدقاء زوجها يقولون لها :

ـ ان لدينا أنباء سيئة لك يابربارا •• لقد فقد «جارى» واطلقنا طائرات بحث ولكنها لم تعثر عليه •

وصعقت «بربارا باورز» لانها كانت امرأة متقدة العاطفة ، فلا عجب اذن فى أنها فقدت وعيها بمجرد سماعها هذه الانباء المفزعة • وكان الشىء الذى تذكرته بعد ذلك أن طبيب القاعدة كان منحنيا فوقها وهو يحقنهـا ولكنها لم تعرف كم عدد الحقن التى أعطيت لها •

وطوال اليوم والليلة التاليين ظلت مستمرة بجانب جهـاز الراديو فى انتظار الأنباء • ولكن لم تكن هناك أنبـاء •• ثم جاء رئيس «جارى» وقال « لبربارا » انه يحسن بها العودة للولايات المتحدة والانتظار هناك •• فأسرعت تحزم مقتنيات قليلة وبدأت رحلتها عائدة الى ميلد جفيـل وهى مدينة صغيرة فى ولاية جورجيا حيث تقيم امها •

ووصلت الى مطار اتلانتا يوم الاحد ٨ من مايو ، وكان فى انتظارها مندوب عن اتحاد لوكهيد وعرض عليها أنيأخذها بسيارتهالى منزلهافقبلت

بسرور ، وفى الطريق تذكرت فجأة أن اليوم «عيد ميلاد أمها» فطلبت من السائق التوقف أمام أحد المتاجر ريثما تشترى هدية صغيرة لامها • ووقع بصرها مصادفة على صحيفة فى المتجر ، وكان العنوان الذى قرأته فى هذه الصحيفة مباغتا ، كما رأت صورة زوجها بجوار صورتها منشورتين فى الصفحة الأولى •

قالت بربارا فيما بعد : « كانت هذه أول مرة أسمع فيها ان طائرة جارى اسقطت وأنه أسير فى الاتحاد السوفييتى ، ولست أدرى كيف عدت الى السيارة » •

- ٣ -

طار فرانسيس جارى باورز من أطنه الى بشاور فى طائرة نقل تابعة لسلاح الطيران الأمريكى ، وكان بهذه الطائرة حوالى عشرين شخصا من موظفى الفصيلة ١٠ - ١٠ ومن بينهم القائد الكولونيل شلتون ، وقضى اليومين التاليين فى قاعدة بشاور يستعد برحلته بالطائرة ى - ٢ التى أحضرها طيار آخر الى بشاور فى مســـاء يوم ٣٠ من ابريل • وقد اطلعه الكولونيل شلتون على تفاصيل مهمته ،وقال باورز فيمابعد ان الكولونيل أبلغه انه « من المأمون جدا » أن يطير فوق الاراضى السوفييتية على ارتفاع ٦٨ر٠٠٠ قدم وأن وسائل الدفاع الجوى المحلية لا تستطيع اصابته • ثم حددت له أهدافا معينة لتصويرها ، وكان أحدها موقع الصواريخ فى تيورا تان شرق بحر ارال التى انطلق منها الماجـــور يورى جاجارين فى رحلته الأولى فى الفضاء قبل ذلك بأقل من عام• وكان هناك عدد آخرمن الأهداف من بينها قواعد اطلاق الصواريخ الغامضة المصنوعة على هيئة قبة شـــمال غرب شليابنسكوشمال وجنوب كيروف، وأخيرا كان عليهأن يلتقط صورا لقواعد السوفييت الجوية وقواعد الغواصاتفى منطقة مورمانسك والاركانجل

وقيل لباورز انه عند حدوث طارىء ، كوقوع خلل فى اجهزة الوقود أو الأكسجين فان عليه أن يعود الى بشاور اذا حدث الخلل أثناء الجزء الأول من الرحلة - والا فعليه أن يذهب الى بودو بأقصر طريق مستطاع - أما اذا كان «الطارىء خطيرا» فان هبوطه فى أى مطار خارج الاتحاد السوفييتى أحسن من هبوطه بداخله ، « أما اذا أرغم على الهبوط بداخـــل الأراضى السوفييتية فان عليه أن يدمر الطائرة » مستخدما الازرار الخاصة بذلك وعليه فى هذه الحالة أن يستخدم مظلة الهبوط فى النزول والانطلاق الى

أقرب حدود · وبعد أن تم اطلاع باورز على تفصيلات رحلته ، زود ببعض الادوات الخاصة ، فكانت هناك أولا الابرةالسامة التى قدمها له الكولونيل شلتون شخصيا وقال له ان « عليه استخدامها اذا قبض عليه وعذب ولم يستطع احتمال التعذيب وفضل الموت » · وزود أيضا بمسدس صامت ورصاص ، ووسائل اشعال النار واشارات الاستغاثة ، ومصباح كهربى يدوى ، وخنجر ، وقارب من المطـــاط الهوائى ، ومجموعة من الخرائط الطوبوغرافية للجزء الاوربي من الاتحاد السوفييتى ، وبوصلات ، ومنشار وسنارة ، وكمية من النقود ونفائس مختلفة كالساعات والخواتم · وأخيرا وبالاضافة الى معدات التصوير المعقدة التى سبق وصفها، وجهاز التسجيل لتسجيل الاشارات المتبادلة بين محطات الرادار السوفييتية على الارض ، كانت الطائرة مزودة بجهاز لعرقلة عمل أجهزة الرادار وذلك بايجـــاد « مجال خامل صناعى » ·· وقبل موعد بدء الرحلة بحوالى ساعتين ، ارتدى باورز ملابس الطيران الخاصة وعود نفسه على التنفس فى الارتفاعات الشاهقة وهى عملية بدنية شاقة ·

وحوالى الساعة السادسة والنصف صباحا بالتوقيت المحلى يوم أول مايو انطلق باورز من مطار بشاور ، وبعد دقائق قليلة عبر حدود باكستان، وبعد ذلك بحوالى نصف ساعة ، عبر نهر أوكسس وطار فوق الاراضى السوفييتية ، ومع أنه سار على طول الحدود السوفييتية مرات عدة قبل ذلك ، الا أن تلك كانت أول مرة تغلغل فيها فى الفضاء السوفييتى ، وكما اعترف فيما بعد فان فكرة وجوده فوق الاتحاد السوفييتى جعلته يشعر « بالقلق والخوف » (انه شيء لا أحب أن أفعله كل يوم) ·

ومضى كل شيء على مايرام فى بادىء الأمر ، وكانت أجهزة الملاحة والتصوير تؤدى عملها كأحسن ما يكون ، وتم تصوير موقع الصواريخ شرقى بحر أرال والأهداف العسكرية والصـــناعية الأخرى المحددة على خريطة الطيران · واستمرت الرحلة لأكثر من ١٣٠٠ ميل طبقا للتخطيط الموضوع لها · ثم لعب الحظ السيء دوره ضد الطيار فبغير أن يدرى شيئا التقطتمحطات الرادار الارضية خط سير الطائرة وتتبعتها منذ لحظة عبورها الحدود الباكستانية السوفييتية · وكانت طائرة ى ـ ٢ تقترب حينذاك من مدينة سفرولوفسك فى قلب الاتحاد السوفييتى تقريبا ·

وقبل الساعة التاسعة صباحا بقليل بتوقيت موسكو ـ أى بعد رحلة الطائرة ى ـ ٢ من بشاور بحوالى ثلاث ساعات أو ثلاث ونصف ، صدر الامر لبطارية المدافع المضادة للطائرات المحلية فى سفرولوفسك باسقاط

الطائرة • ولقد قال قائد البطارية فى التقرير الرسمى الذى قدمه « عندما دخلت الطائرة فى نطاق النار على ارتفاع أكثر من ٢٠ر٠٠٠ متر أطلق صاروخ واحد وأدى الى تدمير هدفه » •

أما رواية الطيار فكانت أكثر تفصيلا بالطبع •• قال : على حين غرة ، سمعت نوعا من الانفجار الأجوف ورأيت لهبا برتقالى اللون . وفجأة أخذت الطائرة تهوى وأظن أن جناحيها وذيلها بدأت فى السقوط ، ولعل الطائرة لم تصب اصابة مباشرة ولكن الانفجار حدث قريبا منها ولذلك لم تصب الا بشظايا الصاروخ •• وعندما بدأت الطائرة فى السقوط كنت ملصقا باللوح الأوسط وعجزت عن استخدام المنجنيق • ففتحت المظلة وفككت السيور وخرجت من الطـــائرة ففتحت مظلة النجاة فى الحال •• »

وعند محاكمته قال باورز انه عجز عن اســتخدام مقعده الطارد نظرا لتأثير قوة الجاذبية بداخل الطائرة الهاوية ، ولو استطاع ان يفعل ذلك لامكنه تشغيل الجهاز الخاص بتدمير الطائرة فى مثل هذه الحالات الطارئة ولحال بذلك دون وقــوع اجـزائها الهامة ومعداتها فى ايدى السوفييت • ويبدو انه قام بصراع عنيف للخروج من الطائرة نظرا لانه نسى فى لحظة الهياج أن يقطع مواسير توريد الاكسجين ، وعندما نجح اخيرا فى الخروج كانت الطائرة على ارتفاع ١٤ر٠٠٠ قــدم • ومع أن مظلة النجاة فتحت على الفور (كيف ؟ لست ادرى ، لأننى لم اجذب شيئا) كانت اللحظة مرعبة بالنسبة لباورز .. وفيما بعد قال لزوجته « كانت تلك اول تجربة لى مع مظلة النجاة وارجو الا تتكرر مرة ثانية »

وهبط باورز بسلام الى الأرض بعد ان تجنب الاصطدام بسلك كهربى عالى الفولت . ولكن هبوطه لم يخف على سكان المنطقة ، واسرع اربعة عمال كانوا قد سمعوا الانفجار ورأوا المظلة الهابطة ، الى نقطة هبوط باورز . وكان اول القادمين بيتر اسابين وهو جندى ســابق وضحية حرب ، وبادر بافراغ الهواء من المظلة لمنعها من سحب باورز مسافات طويلة . وبعد دقائق قليلة اقبل ثلاثة آخرون هــم الرفيق سورين ، وشريمينسيتى وشوزهاكين الذين انعمت الحكومة السوفييتية عليهم باوسمة فيما بعد « لبسالتهم » فى هذه المناسبة . وبينما كان اسابين يساعده على التخلص من المظلة ، رفع الآخرون خوذته ، وسماعتيه وقفازه ، ثم تحدثوا الى باورز بلغتهم فســألوه « من أنت ؟ ومن أين

انت ؟ وماذا حدث لك ؟ فاجابهم باورز باللغة الانجليزية التى كانوا جميعا يجهلونها . فهزوا رءوسهم نفيا . ومالبثوا ان ادركوا انه غريب واجنبى مما جعلهم يلزمون جانب الحذر . وبادر احدهم فجرده من مسدس طويل الماسورة ، ثم قادوه الى سيارة كانت تقف على مقربة . وبينما كانوا يستقلون السيارة اذ رأى احد الرفاق الخنجر الذى كان « باورز » يحمله ، فجرده منه . وعلى أثر ذلك انطلقت الجماعة الى أقرب قرية سوفييتية . وفى الطريق أتى « باورز » باشارات تدل على أنه يرغب فى الحصول على شراب ، فتوقفوا وقدموا له كوبا من الماء وحينما طلب لفافة تبغ قدموها له. وكانت السيارة متربة من الداخل فكتب شرميين احرف فوق التراب فأومأ « باورز » برأسه مؤمنا . وسئل أيضا بالاشارة عن عدد الطيارين فأشار اليهم : انه واحد . وحينما وصلوا الى القرية وجدوا فى انتظارهم اثنين من رجال أمن الدولة .

وفيما بعد ، وفى اليوم نفسه نقل « باورز » جوا الى موسكو ، وفى المساء أودع فى زنزانة بسجن لوبيانكا الرهيب بشارع وزرزنسكى . وفى اليوم التالى ، ولدهشته الشديدة ، اخذوه فى جولة بموسكو ، قال لزوجته فيما بعد انه استمتع بها كثيرا (ان هؤلاء القوم فخورون كل الفخر بعاصمة بلادهم وهى مدينة جميلة) . وبعد ذلك بأسبوعين أخذوه لرؤية بقايا طائرته التى وضعت فى الحديقة الرئيسية بالمدينة ليراها الشعب ، وهى حديقة جوركى التى لا تبعد كثيرا عن الكرملين .

وفى تلك الأثناء تولى موظفو لجنة أمن الدولة السوفييتية ومكتب النائب العام استجواب الأسير ساعات طويلة كل يوم ، وكانوا يعملون طبقا لتعليمات مستر خروشوف ومجلس الوزراء . ولقد اشتهر سجن لوبيانكا فى الماضى بأنه مكان « تعذيب » المسجونين السياسيين ، ومع أن « باورز » لم يعامل مثلما كان نزلاء زنزانات هذا السجن التعساء يعاملون فى عهد ستالين. الا أنه احتجز فيما يشبه «الحبس الانفرادى» لمائة يوم ويوم ، قبل أن يقدم للمحاكمة . ولم يسمح له بأن يقابل أحدا فى اثناء هذه الفترة سوى الموظفين السوفييت والمحامى . وكان يستجوب باسهاب عن أهداف رحلته وغيرها من التفاصيل ، الا أنه ليست هناك أدلة على أن هذا الاستجواب اتخذ أى طابع غير انسانى ، أو أن السجين نفسه عومل معاملة غير انسانية فى أثناء الفترة السابقة على المحاكمة .

وفى الوقت المناسب قدم « باورز » للمحاكمة طبقا للمادة الثانية

من قانون العقوبات السوفييتى ، وتشــمل هذه المادة المحاكمة عن « المسئولية الجنائية عن التجسس » وغيرها من « الجرائم الخطرة ضد الدولة » . وحينما سئل السجين اعترف بأنه مذنب فى العبارة التالية :

« أعترف بأننى مذنب من حيث اننى قمت بالطيران فوق الأراضى السوفييتية وفوق المناطق التى حددت على الخريطة ، وأدرت وأوقفت الأدوات اللازمة للأجهزة الخاصة المركبة فى طائرتى .. وذلك بغية جمع المعلومات عن محطات الاذاعة والرادار فى الأراضى الســوفييتية وعن اماكن الصواريخ فيما أعتقد »

وكان هناك تصريحان آخران أدلى السجين بهما فى أثناء استجوابه وأثارا اهتمام المحققين ، هما : « أعلم اننى سأحاكم فى محكمتكم ، لــكن اذا اتفق وعدت الى وطنى فسأحاكم هناك أيضا ، ولكن ذلك لا يقلقنى كثيرا لأن الأرجح اننى لن أعود الى الوطن » . وصرح مرة أخرى بمــا يلى : « لقد خدعنى رؤسائى ، فانى لم أتوقع مطلقا أن ألقى معاملة طيبة كهذه هنــا » .

وفى يوم ٢٦ من مايو ، وبعد أن قضى فى سجن لوبيانكا زهاء اربعة أسابيع سمح له بكتابة رسالة لزوجته . فقال لها انه يحصل على طعام أكثر من كفايته وينام فترات طويلة (صحيح اننى كنت فاقد الشهية فى الأسبوع الأول اما الآن فاننى فى أحسن حال) على الرغم من استمرار التحقيق والاستجواب . وكان الغرض من هــذا بث الطمأنينة فى نفس « بربارا باورز » وغيرها من أعضاء أسرته خشية أن يكون قد قر فى اذهانهم أن السجين يستجوب من غير هوادة أو رحمة بالليل والنهار ، وانه يحرم من النــوم ، وهو ما كان مأثورا أيام ســتالين ... وكان السجين يحصل أيضا على قدر من الرياضة ، بل لقد سمح له (بأخذ حمام شمس) ذات يوم ، كما سمح له بالقراءة والتدخين حسبما شاء ، وبالجمــلة كانت معاملتهم له أحســن مما كان يتوقع ، وان كان من الطبيعى أن ينتابه القلق بسبب المحاكمة الوشيكة ، وبالأخص بعد أن قيل له أن المادة الثــانية من قانون العقوبات الســوفييتى تنص على تطبيق عقوبات بالسجن تتراوح بين سبع سنين وخمس عشرة سنة ، والاعدام فى بعض الأحايين ..

قال « باورز » فى رسالته لزوجته : « اننى لا أعلم اى عقوبة منها ستطبق على ، وكل ما أعلمه اننى لا أحب الموقف الذى وضعتك فيه »

واختتم « باورز » رسالته لزوجته بلهجة أكثر مرحا اذ قال : انك حرة الآن ، ولكني لا أعلم الى متى ستدوم هذه الحرية ... لكن الزمى الحذر ، فقد نتمكن من شراء منزل فى أحد الأيام ، فان امتلاك منزل فكرة سارة ، وبالأخص اذا رحت أفكر فى ذلك ، وأنا قابع فى زنزانتى هنا .

وبعد شهر سمح له بكتابة رسالة ثانية لزوجته ، ولكنه لم يجد انباء جديدة تذكر يبلغها لها : « لم يتغير شيء منذ كتبت لك فى المرة الاخيرة ، فانني مازلت أجهل ماذا سيحدث لى ، أو متى تتم محاكمتى ، وما زلت اقوم بجولاتى اليومية واحصل على نصيب كبير من اشعة الشمس ، ولو انني كنت اتمنى لو حدث هذا وأنا اسير معك على احد الشواطىء ... انها الشمس نفسها ولكنها كانت تبدو احسن كثيرا قبل أن يحدث هذا كله » ..

ومرت ثلاثة اسابيع اخرى قبل أن يتمكن « باورز » من أن يقول لزوجته ان التحقيق قد انتهى ، وانه تقرر البدء فى محاكمته يوم ١٧ من اغسطس وهو يوم عيد ميلاده الواحد والثلاثين ، وأن فى استطاعتها وابويه أن يمضوا فى خطتهم للحضور الى موسكو بهذه المناسبة ، واضاف « باورز » بأن الحكومة ندبت محاميا للدفاع عنه : « وقد تحدثت اليه عدة مرات ، وانى أشعر بأنه سيبذل قصارى جهده من اجلى » .

— ٤ —

ـ أيها المتهم باورز ، هل تفهم الادعاء الموجه ضدك ؟

ـ نعم ..

ـ هل تعترف بأنك مذنب ؟ .

ـ نعم . اعترف بأننى مذنب .

ـ بهذا الحديث الذى دار بين رئيس المحكمة والمتهم الواقف فى قفص الاتهام بدأت المحاكمة التى اثارت أعظم اهتمام دولى منذ انتهاء محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج ، قبل ذلك بثلاث عشرة سنة .

بدأت المحاكمة يوم ١٧ من اغسطس ١٩٦٠ فى بهو الأعمدة بدار النقابات المهنية التى كانت من قبل ناديا للنبلاء الروس بموسكو ، وهى

مبنى فاخر من مبانى القــرن الثامن عشر فى قلب المدينة غير بعيد عن الكرملين والميدان الأحمر .

وكان رئيس المحكمة اللواء القاضي «فيكتور ف. بوريسوجلبسكى» وهو محام كفء مهذب فى أوائل العقد السادس من عمره قضى معظم حياته العلمية فى مكتب المحامى العام بالجيش السوفييتى . وكان عليه أن يعامل المتهم بمنتهى الأدب والاعتبار طوال محاكمته .

وكان مساعداه اثنين من ممثلى الشعب بالملابس العسكرية أيضا ، أحدهما « ديمترى ز . ثوروليف » وهو من ســلاح المدفعية ، والآخر « الكسندرا . زخاروف » من سلاح الطيران السوفييتى .

وتولى الاتهام فى القضية « الكولونيل رومان أ. رودنكو » المدعى العام بالاتحاد السوفييتى ، وهو رجل عرف خارج الاتحــاد السوفييتى بأنه أقدر محام جنائى سوفييتى تولى قيادة فريق الاتهام السوفييتى فى أثناء محاكمات مجرمى الحرب فى نورمبرج .

واخيرا ، وبالأضافة الى موظفى المحكمة من مترجمين وكتبة ، كان هناك محامى المتهم « ميكائيل ا. جرنييف » الذى ندب خصيصا للدفاع عن المتهم ، وكان يجلس بالقرب من قفص الاتهام أمام مكتب صغير يشابه المكتب الذى جلس اليه النائب العام ، وكان معروفا بكفايته التامة فى عمله وبالأخص لأنه اسهم بدوره فى محاكمات نورمبرج .

وشهد المحاكمة نحو ٢٥٠٠ شــخص من بينهم أعضاء فى الهيئة الدبلوماسية ، ومراسلون عن الصحف الأجنبية ، وكبار زوار الدولة ، ومجموعة كبيرة منتقاة من المواطنين السوفييت . وفى الناحية المضادة من القاعة ، ووراء حاجز قصير جلس والدا المتهم المستر والمسزاوليفر باورز ، وزوجة المتهم « بربارا » وطبيب الأسرة ، واثنان من المحــامين الأمريكيين ، كمستشارين لأسرة « باورز » وان لم يستطعا الاسهام الا فى اجراءات المحاكمة الاولية طبقا للقانون السوفييتى .

وبعد افتتاح الجلسة بلحظات قليلة ، أمر رئيس المحكمة باحضــار المتهم . وبعد لحظة شخصت أبصار جميع الموجودين فى قاعة المحكمة الى الشــــاب الذى دخل الى قفص الاتهــــام . كان « فرانسيس جارى باورز » يبدو أحسن حالا مما كان بعض الموجودين يظنون . صحيح انه كان نحيفا قليلا ، وكانت البذلة الزرقاء التى زودته السلطات السوفييتية

بها فضفاضة قليلا نتيجة للتوتر العاطفى الكبير الذى عاش فيه الا انه كان يبدو ممتلئا حيوية .

وكان أول مافعله السجين حين دخوله الى قفص الاتهام هوالتطلع حوله باحثا عن زوجته ، ولكنه لم يكن يعرف اين جلست ، ونظرا للوهج الشديد الذى كان ينبعث من المصابيح المتألقة ، فانه لم يستطع رؤيتها ، الا أنه ماكادت تمضى لحظات قليلة ، حتى لوحت « بربارا » له بيدها ، ولكنه لم يستطع رؤيتها وكان يبدو حزينا يائسا فى تلك اللحظة .

وبعد اتمام الاجراءات الاولية ، وبعد ان قرأ الكاتب قائمة الاتهام المطولة ، وهى عملية استغرقت اكثر من ساعة ، بدأ النائب العام بماقال عنه أنه سؤال المتهم ، والواقع انه كان استجوابا يسبق سؤال الدفاع للمتهم واذا قارنا ماحدث فى تلك المحاكمة بما كان يحدث فى المحاكمات، فقد كان تدخل رئيس المحكمة قليلا ، وقد ترك لجانبى الاتهام والدفاع مهمة تولى القاء الأسئلة على المتهم .

وراح الكولونيل «رودنكـو» ينتقل بالمتهـم بين تفاصيل رحلته المشئومة خطوة فخطوة .

سأله : كانت طائرتك مزودة بأجهزة تصوير الاستكشاف الجوى. فما هى التعليمات التى أعطيت لك ؟

ـ لم تصدر لى أية تعليمات معينة لادارة الاجهزة . كان على أن أدير وأوقف هذه الاجهزة على حسب ما هو مبين على الرسم .

ـ الأرجح انك كنت تعرف الغرض من ادارة ووقف هذه الأجهزة ؟

ـ كان فى استطاعتى أن أتكهن بذلك .

ـ أكبر ظنى انك لم تشك فى ان الطائرة كانت طائرة استكشاف منذ لحظة بداية رحلتك ؟

ـ نعم .. لم أشك فى ذلك .

ـ لقد وجدت فى طائرتك معدات جمع المعلومات اللاسلكية واجهزة لتسجيل مختلف محطات الرادار السوفييتية . أليس الامر كذلك ؟

ـ قيل لى ان بالطائرة اجهزة تسجيل ، ولكنى لا أعرف ماذا كان شكل معظم الأجهزة باستثناء مارأيته هنا .

فقال النائب العام وهو يطرق المكتب بقلمه لتأكيد مايقوله :

ــ ولكنك تلقيت تدريبا يكفى لأن تعرف أن هذه المعدات صممت خصيصا لرحلات للتجسس ؟

واضطر المتهم للاعتراف بذلك ..

وكانت المصـــابيح الوهاجة المثبتة فوق آلات تصوير التليفزيون قد بدأت تؤلم عينى « باورز » فتحول الى هيئة المحكمة وطلب ابعادها قائلا : انها تسبب لى صداعا .

وفى التو أصدر رئيس المحكمة الأمر اللازم فقال « باورز » : هذا أحسن .

ومضى الكولونيل « رودنكو » يسأل : هل تنكر أنك انتهكت حرمة المجال الجوى السوفييتى مخالفا بذلك القانون ؟

ــ لا أنكر ذلك

ــ لقد كان هذا التدخل خاصا بجمع معلومات للتجسس .

ــ أظن ذلك .

ــ قلت هنا وفى أثناء التحقيق الأولى أنك أدرت الأجهزة وأوقفتها عند نقاط محددة ؟

ــ فعلت ما أشار الرسم به .

ــ من غير أن تعلم ماهية الجهاز ؟

ــ لم أر الجهاز مطلقا .

فقال الاتهام ، وهو يلقى نظرة مخيفة فى اتجاه هيئة المحكمة :

ــ اذن كان يمكنك أن تضغط بالسهولة نفسها على زرار فتطلق قنبلة ذرية ؟

وهنا بدا على « باورز » كأنه سقط فى الفخ . وقال : يجوز ولكن هذه الطائرة ليست من الطراز الذى يحمل مثل هذه القنابل ويلقيها .

وسادت همهمة بين الحاضرين دلت على أن « باورز » ضرب ضربته الاولى فى هذا اليوم .

وانتقل الكولونيل « رودنكو » بعد ذلك الى نقطة هامة جدا ، وهي الارتفاع الذى كان عليه « باورز » حينما أسقطت طائرته · فقال «باورز» : كانت الطائرة على أقصى ارتفاع ·· نحو ٦٨٫٠٠٠ قدم ·

ـ وكيف وقع الحادث ؟

ـ كنت قد أتممت دورة وبدأت أنطلق فى خط مستقيم ، وبعد نحو دقيقة سمعت ، وأظن أننى شعرت أيضا ، بصوت انفجار أجوف صادر من الخلف ورأيت وهجا برتقالى اللون ·

وأضاف «باورز» ان ذلك حدث جنوب سفرولوفسك بأميال قليلة · ومضى يقول انه لم يستطع استخدام المقعد الطـــارد · وحينما أصبحت الطائرة على مسافة نحو ٣٣٫٠٠٠ قدم من الارض حاول استخدام المقعد بلا جدوى ، فلما أصبح على ارتفاع ١٤٫٠٠٠ قدم تقريبا استخدم المظلة الهابطة ·

وأردف «باورز» انه حينما اصيبت الطـــائرة «ى-٢» كانت تؤدى عملها على نحو طبيعى تقريبا ·

سأله «رودنكو» : ماذا كانت التعليمات التى تلقيتها بشأن الهبوط الاضطرارى فى أراضى الاتحاد السوفييتى ؟ ·

ـ كنت قد تلقيت تعليمات بأنه اذا تبين لى أنه من الضرورى جدا الهبوط فى أراضى الاتحاد السوفييتى ، فان على أن أدمر الطائرة باستخدام أزرار وأجهزة معينة ، وان أفلت من الأسر ، وبمساعدة (حقيبة الحياة) أمضى الى أقرب حدود ·

ـ هل زودت الطائرة بوسائل خاصة لتدميرها ؟ ·

ـ نعم · هذا ماقيل لى ··

ـ تدميرا تاما لايخلف أية آثار ؟ ·

ـ لست أدرى ماذا كان سيحدث لو أننى ضغطت على الأزرار ؟·· كل ما قيل لى هو أن اضغط عليها ·

وانتقل الكولونيل « رودنكو » بعد ذلك الى الأجهزة الخاصة التى وجدت مع «باورز» وبالأخص المسدس والابرة السامة ·

ـ ما الغرض من تزويدك بمسدس صامت بعشر رصاصات ؟ ·

ـ للصيد .

ـ ألهذا الغرض اعطوك أيضا طلقات عيار ٢٨٥ ؟ .

ـ نعم ..

ـ ان ما نعلمه أن الصيد يتم عادة بالبندقية .

ـ من الصعب حمل بنادق صيد فى هذه الطائرة .

فقال الكولونيل «رودنكو» بسخرية لاذعة : نعم ، بالأخص فى هذه الطائرة التى أعدت لأغراض التجسس .

فقال المتهم : أظن أن المسدس الذى أعطى لى لم تكن له علاقة بأغراض الرحلة .

ـ من الذى أعطاك الابرة السامة ؟ .

ـ الكولونيل «شيلتون» حينما أطلعنى على تفاصيل الرحلة فى بشاور .

ـ ولأى غرض ؟

ـ اذا أسرت وعذبت ولم أستطع احتمال التعذيب وفضلت الموت ، كنت سأستخدمها .

ـ معنى ذلك أن رؤساءك وجهوك فى هذه الرحلة بألا تنقذ حياتك ؟ .

ـ كنت أنا الذى سأقرر استخدام الابرة أو عدم استخدامها .

ـ ولكنهم اعطوك الابرة السامة ؟

ـ نعم .

ـ أرادوا منك نسف الطائرة وقتل نفسك ومحو جميع الآثار ؟

ـ لا . لم يقولوا لى أن أقتل نفسى .

ـ ولكنهم اعطوك الابرة لتقتل نفسك ؟

ـ اذا عذبت .

وبدت الدهشة على وجه المدعى العام ازاء هذه الاجابة . وسأله : هل قيل لك انهم سيعذبونك فى الاتحاد السوفييتى ؟ .

ـ لست اذكر أنهم قالوا لى ذلك ، ولكنى توقعته .

ـ وهل عذبت ؟ ٠

ـ لا ٠

ـ وكيف عاملك المحققون ؟ ٠

ـ عاملونى أرق معاملة ٠

وحينما انتهى الكولونيل «رودنكو» من أسئلته ، نهض المحـــامى «جرنييف» لسؤال موكله ، وقد صاغ اسئلته ليبين أن «باورز» ينتمى الى اسرة امريكية عاملة فقيرة ، وأن غايته من الالتحاق بهذه الوظيفة مع ادارة المخابرات المركزية هو الحصول على المال للوفاء بديونه ، وأنه تصرف طبقا لما قضت به الأوامر الصادرة اليه من غير أن يعلم شيئا عن الاجهزة الخاصة التى كان يستخدمها فى طائرته ٠

وفى مرحلة مبكرة طلب الدفاع من المحكمة ترخيصا بعرض الصور الفوتوغرافية ، التى حصل عليها ، من والدى «باورز» والتى تبين المنزل الذى عاش فيه وجوانب من حياته المنزلية ، فرخصت المحكمة له بذلك ٠

سأله : ما الذى عاد عليك به عملك مع المخـــابرات المركزية من الناحية المادية ؟ ٠

ـ أتاح لى فرصة الوفاء بديونى ، والعيش فى سعة نسبية وادخار بعض المال للمستقبل على أمل أن أبتاع منزلا وأنشىء لنفسى عملا مستقلا عن والدى ٠

ـ هل كنت ملما بالأجهزة الخاصة الموجودة فى الطائرة ؟ ٠

ـ لا ٠ لم أر أى جهاز من هذه الاجهزة وهو يوضع فى الطائرة أو يرفع منها ٠ وكل ما أعلمه عنها هو أن أتبع التعليمات الخاصة بها والمبينة على الرسم ٠

ـ هل كنت تعلم أيا من النتائج المترتبة على رحلتك الاستكشافية ؟

ـ لم تبلغ الى أية نتائج عن رحلاتى ، ولم أكن أعلم هل الأجهزة تؤدى عملها كما ينبغى أو لا ٠ الا حسبما تشير به اضواء الاشـــارات الموجودة فى المقعد ٠

وهنا ذكر المحامى «جرنييف» موكله بأنه قال فى التحقيق السابق على المحاكمة انه تردد فى تجديد عقده لفترة أخرى مع المخابرات المركزية وسأله : لماذا ترددت ؟ ٠

فأجاب باورز : للشكوك التى ساورتنى · ان من الصعب الايضاح ولكن من الأسباب التى دعتنى لهذا التردد أن الوظيفة تحطم الاعصاب كما أن الطيران على ارتفاعات شاهقة وبملابس خاصة يجهد الجسم · وبالاضافة الى ذلك فقد ساورنى احساس ـ لست ادرى كنهه ـ وعلى أية حال لم ارتح للعمل الذى كنت أؤديه ـ ولو اتيح لى وقت للبحث عن عمل آخر لفعلت ولكنى لم أجد هذا الوقت ·

ـ هل أسفت لأنك جددت عقدك ؟

ـ حسنا ·· من الصعب شرح الاسباب ·

ـ ولماذا أنت آسف الآن ؟ ·

ـ ان موقفى الآن لايسر · اننى لم أسمع كثيرا عن انباء العالم ، ولكنى نهمت أنه كان من النتائج المباشرة لرحلتى هذه عدم عقد مؤتمر القمة والغاء زيارة الرئيس ايزنهاور ، وأعتقد أن توترا شديدا ساد العالم، وانى لشديد الاسف لانه كان لى ضلع فى ذلك ·

وكان هذا هو ما ترقبته المحكمة ·· الاعتذار الذى فشل خروشوف منذ شهرين ، فى الحصول عليه من الرئيس الأمريكى ، أو وزير خارجيته·

ـ٥ـ

وفى اليوم التالى من المحـاكمة كان المتهم يبـدو أكثر استرخاء واطمئنانا فحينما رفعت الجلسة فى اليوم السابق استطاع «باورز» ان يرى زوجته وأن يتبادل الابتسامات معها قبل أن يقوده الحرس الى زنزانته وكان يبدو عليه أنه أصبح أكثر ثقة بعد أن انتهى محاميه من القاء أسئلته عليه ·

ـ حينما وقعت عقدك مع المخابرات المركزية ، هل كنت تعلم أنك ستقوم برحلات طيران فوق أراضى الاتحاد السوفييتى ؟ ·

ـ لم أكن أعلم ذلك حين وقعت العقد ·

ـ ومتى سمعت بذلك لأول مرة ؟ ·

ـ بعد توقيع العقد بستة أسابيع أو سبعة·· ثم قيل ان هذا سيكون

جزءا من واجباتي ، الا انه ثبت أن نظام الرادار السوفييتي أحسن مما كان يعتقد من قبل ، وقيل لى انه من المحتمل أن نقصر رحلاتنا على طول الحدود السوفييتية فقط ٠

ـ ماذا قال الكولونيل «شيلتون» لك بالضبط عن سلامة الطيران فوق الأراضي السوفييتية ؟ ٠

ـ قال لى ان هذه الرحلات مأمونة تماما ؛ وان الشيء الوحيد الذى محتمل حدوثه هو خلل فنى فى الطائرة ٠

هل أعطيت من قبل ابرة سامة ، كتلك التى حملتها فى اثنــــاء رحلتك يوم أول مايو ، اعنى فى الرحلات السابقة ؟ ٠

ـ لا ٠ كانت هذه أول مرة ٠

ـ هل اطلعك الكولونيل « شيلتون » على كيفية استخدامها ؟ ٠

ـ نعم ٠

وحينما جلس المحامي جرنييف ، استأذن المدعى العام «رودنكو» المحكمة فى اعادة سؤال المتهم لأنه ، يريد استيضاح نقاط كثيرة ٠ فأذنت المحكمة له ٠

سأله : حينما انطلقت بطائرتك من بشاور يوم أول مايو ، ماهى الدول التى طرت فوقها ؟ ٠

فأجاب باورز : جزء صغير من الباكستان ، وجزء صــــغير من افغانستان ، والاتحاد السوفييتى ٠

ـ وبعبارة أخرى ، فانك انتهكت حرمة المجال الجوى لأفغانستان ؟

ـ اذا لم يكن هناك ترخيص سابق بذلك ، أكون قد انتهكت هــذا المجال ٠

ـ ألم تعط السلطات الافغانية مثل هذا الترخيص ؟ ٠

ـ لم تعطه لى شخصيا ٠

ـ ألم يقل لك ضابطك الاعلى شيئا عن ذلك ؟ ٠

ـ لا ٠

ـ الا تكون قد اعتديت بذلك على سيادة دولة افغانستان المحايدة ؟ ٠

ـ اذا لم تعط السلطات فصيلتى ترخيصا بذلك ، فالجواب ٠ نعم ٠

ـ وهل حصلت فصيلتك على أى ترخيص بالطيران على حدود الاتحاد السوفييتى ؟ ٠

ـ ليست لدى فكرة عن ذلك ٠

وهل حصلت فصيلتك على أى ترخيص بالتغلغل فوق الأراضى السوفييتية ؟ ٠

ـ لا أظن ذلك ٠

فقال الكولونيل «زودنكو» وهو يرمى المتهم بنظرة صارمة : لا تظن! ألا يحسن أن تعطينا اجابة قاطعة ؟

ـ لو أخذ هذا الترخيص لكان ذلك على مستوى سلطة أعلى منى ، وبالتالى لما عرفت شيئا عنه !

وهنا صرف المدعى العام النظر عن هذه النقطة بالتلويح بيده ٠ وقال :

ـ لو كان هناك ترخيص كهذا لما كنت تقف اليوم فى هذا القفص٠

فقال «باورز» وهو يتأمل المدعى العام ويشترك فى الضحك الذى أثارته اجابته التالية :

ـ هذا هو سبب افتراضى انه لم يكن هناك ترخيص ٠

أما النقطة التالية التى استدعت ايضاحا ـ ولعلها كانت أهم نقطة فى المحاكمة كلها ـ هى الارتفاع الذى كان «باورز» يطير عليه حينما اسقطت الطائرة ٠٠٠ واستأنف المدعى العام اسئلته حول هذه النقطة فقال «باورز» انه عبر حدود الاتحاد السوفييتى على ارتفاع يبلغ نحو ٦٦ر٠٠٠ قدم ، وانه استمر فى الارتفاع كلما خف وزن الوقود وأصبحت الطائرة أخف وزنا ٠

ـ ما اقصى ارتفاع بلغته ؟ ٠

ـ نحو ٦٨ر٠٠٠ قدم ، وربما أكثر أو أقل قليلا ٠

ـ هل كنت على ارتفاع ٦٨٫٠٠٠ قدم وأنت تحلق فوق منطقة سفرولوفسك ؟ ٠

ـ نعم ٠

ـ وهل أصابك الصاروخ السوفييتي وأنت على هذا الارتفاع ؟ ٠

ـ أصابني شيء وأنا على هذا الارتفاع ٠

ـ أتقول انك أصبت بشيء ؟

فأجاب باورز : لم تكن لدى أية فكرة عما أصابني ، لأنني لم أره ٠

ـ ولكن ذلك حدث على هذا الارتفاع ؟٠

ـ نعم ٠

وأخيرا قدم المدعى العام للمتهم نداء مطبوعا بأربع عشرة لغة مختلفة عثر عليه بين مقتنيات الطيار ، مع النقد السوفييتي والنقود الذهبية وغيرها من النفائس ٠ وكان النص الروسى الذى قرأه القاضى كما يلى :

« انني امريكى لا أتكلم الروسية ٠ اني بحاجة الى الطعام والمأوى والمساعدة ، لن أرتكب أى أذى ٠ وليست لدى نوايا شريرة ضد شعبكم ٠ فاذا ساعدتمونى فسأكافئكم على هذه المساعدة » ٠

وجوابا على أسئلة اخرى من الكولونيل «رودنكو» قال «باورز» انه لا يعلم من الذى أعطاه هذه الوثيقة ولكنه يظن أن الاشخاص الذين عاونوه على ارتداء ثياب الطيران هم الذين وضعوها كما وضعوا أشياء أخرى فى جيبه ٠

ـ أكانت هذه الاشياء كلها لرشوة الشعب السوفييتى ؟ ٠

ـ بل لمساعدتى بأية طريقة للخروج من الاتحاد السوفييتى ٠

ـ أقول مرة أخرى ٠٠ أكانت للرشوة ؟

ـ لو استطعت للجأت للرشوة ، ولو استطعت لابتعت طعاما بالنقود لأننى كنت سأضطر الى المشى ١٤٠٠ ميل ، وبعبارة أخرى كنت سأستخدم النقود والنفائس بأية طريقة تساعدنى ٠

فقال الكولونيل «رودنكو» بلهجة تدل على الارتياح : ولكنك وجدت بالطبع أنك عاجز عن استخدام النقود لرشوة المواطنين السوفييت ، فقد

جردك أول الأشخاص السوفييت الذين قابلتهم ، من اسلحتك ، وسلموك للسلطات ·

فقال السجين : لم أحاول رشوتهم ·

فقال الكولونيل «رودنكو» وسط عاصفة من التصفيق : أشعر بأن محاولتك لم تكن تنجح ·

فأجاب «باورز» وهو يشترك فى الضحك : أظن ذلك أيضا ·

وحينئذ القى رئيس المحكمة ، وعضواها الاسئلة التالية على المتهم:

قال الرئيس : هل كنت تدرك أنك ، بالتغلغل فى المجال الجوى للاتحاد السوفييتى ، تعتدى على سيادة اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ؟ ·

فأجاب السجين : نعم ، كنت أدرك ذلك ·

ــ ولماذا وافقت ؟

ــ لقد أمرت بأن أفعل ذلك ·

ــ هل تظن انك قدمت لبلادك خدمة طيبة أو سيئة ؟

ــ أعتقد أنها سيئة جدا ·

ــ هل خطر ببالك أنك باقتحامك الحدود السوفييتية قد تنسف مؤتمر القمة ؟ ·

ــ حينما تلقيت أوامرى عن هذه الرحلة لم أكن اعرف التاريخ وكان مؤتمر القمة بعيدا جدا عن تفكيرى ، ولهذا لم أفكر فيه ·

ــ ألم يخطر ببالك أن مثل هذه الرحلة قد تثير نزاعا مسلحا ؟

ــ من واجب الاشخاص الذين أرسلونى التفكير فى هذه الأمور ، أما مهمتى فهى تنفيذ الأوامر ·

ــ هل أنت آسف لأنك قمت بهذه الرحلة ؟ ·

ــ نعم ، كل الأسف ·

ولم يلق عضوا المحكمة أسئلة كثيرة على المتهم ، اذ ساله الجنرال

«زخاروف» من سلاح الطيران عن تجاربه فى الطيران ، فأجاب السجين بأنه ركب الطائرة «ى-٢» نحو ٥٠٠ ساعة ، وأقل من ذلك فى الطائرات المقاتلة ٠

ـ ماذا كانت خططتك العملية في أثناء طيرانك في المجـــال الجوى السوفييتى اذا اتفق أن قابلت طائرات مقاتلة سوفييتية ؟

ـ قيل لى انه ليس هناك خطر من ذلك ؛ وقيل لى أيضا ٠ اننى قد أقابل مقاتلة سوفييتية ، وقد رأيت فعلا أكثر من طائرة ، ولكن على ارتفاع منخفض ٠ لم استطع تحديد نوعها لأننى رأيت أثرها فقط ٠

واعترف «باورز» ايضا بأنه استخدم بوصلة لاسلكية ٠ وحينمـــا سئل : هل استعنت بخدمات أية محطـــــة اذاعة أرضية فى الاغراض الملاحية ؟ أجاب بأنه «تدخل» فى اثنتين أو ثلاث منها ٠٠ وقال « اذا لم تخنى ذاكرتى فان احداهما بالقرب من شلبايتسك ؛ والأخريين بالقرب من ستاليناباد ٠

وسأل الجنرال فوردايف ، من المدفعية ، المتهم عن الأجهزة الخاصة الموجودة بالطائرة «ى-٢» ومدى المام الطيار بقدراتها ، فأجاب باورز : لقد تعلمنا كيف نقود الطائرات فقط ، وكيف ندير الاجهزة ، وبعبارة أخرى ، لقد تعلمنا كيف نستخدم المهمات الموجودة فى غرفة القيـــادة ولكننا لم نصارح بشىء عن طبيعة المهمات ، ولقد علمت مصـــادفة بأن بالطائرة آلات تصوير ، ولكنى لا أعلم شيئا عن حجمها ٠

ـ متى عرفت بنوع معدات الاستكشاف التى ركبت فى طائرتك ؟

ـ لم أكن أعلم شيئا عن المهمات الموجودة فى طائرتى ، فقد ركبت سرا ، وأظن أن ذلك كان حين اعداد الطائرة للرحلة ٠

ـ هل كنت تعلم ، ايها المدعى عليه باورز ، نوع معلومات التجسس التى تستطيع الحصول عليها فى الاتحاد السوفييتى بوســـاطة الآلات والأجهزة المركبة فى طائرتك ؟ ٠

ـ بالتكهن فقط ٠ لم يحدثنى أحد عن ذلك ، ولم أكن أعلم شـــيئا عن قدرات الاجهزة ٠ كنت أعلم أنها تستخدم لجمع المعلومات ، ولكن أية معلومات وما مقدارها ما لم تكن لدى أية فكرة عنها ٠

وبعد ذلك ادلى الرجال الأربعة ، الذين شاهدوا هبوط مظلة النجاة

خارج سفرولوفسك وجردوا «باورز» من سلاحه وسلموه لسلطات الأمن ، بشهاداتهم وكانوا جميعا يرتدون ثيابا متماثلة ــ بذلات زرقاء اللون حسنة الكي مفتوحة عند العنق ، وقمصان بيضاء ، وأحذية سوداء وكانوا جميعا متحدثين بارعين ، وقد سردوا القصـــة كأنهم قد كرروها مرات كثيرة من قبل ٠ وقد اجمعوا على أن «باورز» لم يقاومهم مطلقـــا وأنه رافقهم فى هدوء تام ٠

وحين انتهى الشهود من الادلاء بشهاداتهم ، سأل القاضى السجين : هل لديك أية ملاحظات ؟

ــ أحب أن أعبر عن تقديرى لهؤلاء الرجال جميعا ؛ للمعونة التى قدموها لى فى ذلك اليوم ٠ فهذه أول فرصة تعرض لى لأشكرهم وأعرب لهم عن تقديرى العظيم ٠

وانقضى باقى اليوم فى الاستماع الى أقوال الخبراء الشهود الذين وصفوا بالتفصيل جميع الأجهزة التى وجدت اما مع الطيار أو فى الطائرة كما اجمعت لجنة من ثلاثة مهندسين عسكريين ، كانت قد فحصت بقايا الطائرة ، على عدم وجود أية علامات مميزة على الطائرة ٠ ولكن السجين لم يوافقهم على ذلك ٠

ــ هل يمكن وضع العلامات المميزة فوق السطوح المطلية ثم ازالتها فلا يتأثر الطلاء من ذلك ؟ ٠

فأجاب الخبير : هذا ممكن نظريا بالطبع ٠

فقال باورز : اننى ألقى هذا السؤال لأن الطائرة بقيت فى «انكرلك» عدة شهور ، ولقد كان بكل طائرة رأيتها هناك علامات مميزة ، ولذلك فاننى لا أوافق اطلاقا على أنه لم تكن بهذه الطائرة علامات مميزة ٠

فقاطعه رئيس المحكمة : من حقك ان توافق أو لاتوافق ، ولـــكن الخبراء استنتجوا ــ على أساس فحص طبقات الطلاء ــ انه لم تكن بهـــا علامات مميزة ولم تكن هناك مثل هذه العلامات حينما شاهدت الطائرة بنفسك فى المعرض ٠

فقال باورز : ان ما أقوله هو أننى واثق من أنه كانت على الطائرة بعض العلامات المميزة قبل الرحلة ٠ وعلى كل حال فاننى لست خبيرا ٠

فعاد الخبير يقول : هناك احتمال من ناحية المبدأ ٠

وقال الخبير الثاني ، وهو الاستاذ جليب ايســـتومين ، الخبير فى التصوير الفوتوغرافى ، والذى عهد للجنته المكونة من عشرة رجال بفحص آلات التصوير والأفلام التى وجدت بالطائرة «ى-٢» ، انه بفحص الأفلام السلبية أمكن تقدير التقاطها من ارتفاع يتراوح بين ٠٠٠ر٦٥ و٠٠٠ر٦٨ قدم وأنها غطت مساحة من شمال الحدود السوفييتية مع افغانستان الى قرب سفرولوفسك٠ وقال هذا الخبير ان الطائرة كانت مزودة بفيلم شديد الحساسية مصمم خصيصا للدراسات الهوائية من ارتفاعات شاهقة وأن هذا الفيلم يتفوق من نواح كثيرة على ذلك الذى يستخدم من مناطيـــد «التجسس» الامريكية (طراز ١٩٥٦) وقد بينت الصور مراكز السكان والمنشآت الصناعية والعسكرية والمصـــانع ومحطات الكهربا والمخـــازن والمناجم و « مختلف وسائل المواصلات » والبطاريات المضادة للطائرات ٠

وقال خبير الاسلحة ان من رأيه أن مسدس السجين لم يكن سلاحا رياضيا ولكنه صمم «لاطلاق النار بلا صوت على الاشخاص فى حالتى الهجوم والدفاع » وهنا قاطعه «باورز» ليقول ان المسدس أعطى له «للصيد فقط» وأنه أخذه معه لهذا الغرض ٠ وأردف : «من سوء الحظ أن أحدا غيرى لايعلم أننى لا استطيع أن أقتل شخصا حتى لأنقذ حياتى ٠٠ اننى ماكنت لأستطيع ذلك » ٠

وللمرة الثانية قاطع رئيس الجلسة السجين قائلا : انك تدرك من غير شك أنه من الصعب الصيد على ارتفاع ٠٠٠ر٦٨ قدم ٠

فأجاب السجين : نعم ، أعرف ذلك ٠ ولكننى كنت سأستخدم المسدس فى حالة الطوارىء عند الهبوط ٠

وقال خبير كيميائى انه استخدم الابرة المسمومة فى حقن كلب ، وبعد تسعين ثانية توقف نبضه ، وما لبث أن مات فى غضون ثلاث دقائق وقد أجريت التجربة نفسها على جرذ أبيض ، فظهر عليه أثر السم بعـد عشرين ثانية ، « وهكذا تبين أن السم فتاك سريع التأثير جدا » ٠

وكان آخر شهود ذلك اليوم الكولونيل «ايفان زادانوف» المتحدث باسم لجنة من ستة خبراء عسكريين شكلت فى أثناء الفترة السابقة على المحاكمة لدراسة الخرائط والصور التى وجدت فى حطام الطائرة ٠ فقال ان هذه الخرائط والصور لم تدع مجالا للشك فى عقول أعضاء اللجنـــة فى أن رحلة الطائرة «ى-٢» كانت لاغراض الاستكشاف البحتة ٠ وختم الشاهد شهاداته بقوله : لقد التقطت صور الجزء الاكبر من الطريق من

غرب طشقند حتى سفرولوفسك ، وبالأخص المطارات وأهداف أخرى معينة التي تعتبر المعلومات الخاصة بها أسرارا عسكرية للاتحاد السوفييتي.

وقال القاضي ، موجها الحديث للسجين : أتريد أن تلقى سؤالا على هذا الشاهد ، أو : هل لديك أية ملاحظات على اكتشافات اللجنة ؟ .

فأجاب السجين بصوت منخفض وهو خافض الرأس : لا .

-٦-

خصص صباح اليوم الثالث والأخير للمحاكمة للمرافعات .

وقد استغل المدعى العام البدين المناسبة استغلالا تاما.فتكلم بصوت عميق مجرد من العاطفة ، وكان يؤكد أقواله أحيانا بالطرق بقلمه فوق المكتب وكان يتوقف أحيانا ليجفف جبهته بمنديل أبيض كبير .. وقال النائب العام ان ايزنهاور ، رئيس الولايات المتحدة ، ونيكسون ، وكيله ، ووزير الخارجية «هيرتر» أكثر اجراما من السجين لانهم أدلوا بتصريحات رسمية ، لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العلاقات الدولية قالوا فيها « ان رحلات الطيران العدائية التي قامت بها طائرات التجسس الامريكية فوق الأراضى السوفييتية انما نفذت بناء على أوامر الحكومة والرئيس أيزنهاور شخصيا المباشرة ، وأنها من سياسة الولايات المتحدة الرسمية المدروسة » . ووراء هذا كله شبح وزير الخارجية السابق المرحوم جون فوستر دالاس و «دعاة الحرب بالبنتاجون » .

وقال الكولونيل « رودنكو » ان محاكمة الجاسوس الامريكى الحالية: الطيار «باورز» تكشف القناع عن جرائم لم ترتكب بمعرفة المدعى عليه «باورز» فقط ،ولكنها تكشف القناع ايضا عن الاعمال العدوانية الاجرامية للدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة ، فهم الملهمون الفعليون والمنظمون للجرائم البشعة الموجهة ضد سلام الشعوب وأمنها .

واستطرد المدعى العام : لقد تبين مرة أخرى فى أثناء هذه المحاكمة أن قوات الرجعية في الولايات المتحدة لاتبالى بالوسائل التى تستخدمها فى الصراع ضد قوات السلام ، وأنها تطأ بأقدامها القواعد الاولية للقانون الدولى ، وتعتدى على السيادة القومية للدول الاخرى باتباع سياسة « حافة الحرب » التى أفلست .

ان هذه الدوائر الرجعية العدوانية تتخذ من كثير من دول حلف شمال الاطلنطى قواعد عسكرية لها ، وتحتفظ دائما بطـائرات محملة بالقنابل الذرية والهيدروجينية فى الجو ، وتصرح بعزمها على استئناف تجارب الأسلحة الذرية تحت الأرض ، وقد تآمرت مع حكومة «اديناور» الباحثة عن الثأر لأخذ الأسلحة النووية ، وتعارض باصرار اجراءات نزع السلاح العالمى وتدمير الصواريخ والاسلحة النووية ٠

ان الدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة ـ اذ تحاول نشر سياسة «حافة الحرب» تسير فى طريق الاستفزاز الخطر ، ولهـذا كانت الاغارة العدوانية التى قام بها المدعى عليه «باورز» يوم أول مايو ١٩٦٠ نموذجا خطرا من هذه السياسة ٠

وبعد أن أسهب النائب العام السوفييتى فى مهاجمة حـكومة الولايات المتحدة لأنها لم تعتذر لخروشوف عن حادث الطائرة «ى-٢» وبذلك نسفت مؤتمر القمة ، انتقل للحديث عن الاتهامات الموجهة للسجين التى اعتبرها ثابتة وغير قابلة للنقض من وجهـة نظر قانون العقوبات السوفييتى،ومع ذلك فقد استعرض النائب العام الأدلة بالتطويل على حسب ما يقتضيه القانون السوفييتى من ضرورة اثبات الاتهام ضد المتهم حتى ولو اعترف بأنه مذنب ٠ وقال الاتهام ان «باورز» ليس جاسوسا عاديا ولكنه مجرد مدرب تدريبا خاصا ، وهو ليس أداة مسـلوبة الارادة فى أيدى «البنتاجون» الامريكى وادارة أبحاث الفضاء الامريكية ، وانما هو مجرم خطر أقدم على فعلته لدوافع وضيعة مرتزقة ٠ تلك هى حقيقة المدعى عليه «باورز» ولو كان سادته قد شنوا حربا عالمية جديدة لكان الرجال من أمثال «باورز» هذا ، هم الاكثر استعدادا لان يكونوا أول من يلقى القنـابل الذرية والايدروجينية على أرض السلام ، كما فعل رجال مثل «باورز» القوا أول قنابل ذرية على المواطنين المسالمين فى مدينتى «هيروشـيما» و «ناجازاكى» العاجزتين ٠

اقتربت ساعة استماع المجرم لحكم المحكمة ، وأبدى النائب العـام «رودنكو» أمله فى أن يكون هذا الحكم « تحذيرا صارما» لجميع من يتبعون سياسة الحرب الباردة والتجسس العدوانية ، ولجميع من يحاولون ـ مثل باورز ـ نسف مبادىء السلام والاعتداء على شرف الاتحـاد السـوفييتى وكرامته ٠

وختم النائب العام مرافعته قائلا : ايها الرفاق القضاة : ان جميع

الملابسات تدعونى لمطالبة المحكمة بفرض أقصى عقوبة على المدعى عليه « باورز » .

ثم توقف بحركة مسرحية حينما رأى المتهم يتوقف بدوره عن العبث بقلمه وينثنى الى المترجم ويفضى اليه ببضع كلمات ، وفى الطرف الآخر من قاعة المحكمة قبضت «بربارا باورز» بعنف على السور الحديدى الموجود امامها .

واستطرد الكولونيل «رودنكو» : ولكنى ـ حيال الندم الذى أبداه المتهم أمام المحكمة السوفييتية ـ بسبب الجريمة التى ارتكبها ـ لا اطالب باعدامه ، وانما أطلب من المحكمة أن تحكم عليه بحرمانه من الحرية خمسة عشر عاما .

وبعد استراحة قصيرة استأنفت المحكمة جلستها لسماع مرافعة الدفاع .

وبدأ « جرنييف » مرافعته بلهجة هادئة ، فأشار « الى الموقف الصعب المعقد» الذى وجد نفسه فيه بوصفه محاميا عن المتهم ، وأكد أن واجبه المدنى المهنى يحتم عليه تولى هذه المهمة نظرا لان القانون السوفييتى يمنح كل متهم حق الحصول على المساعدة القانونية ، وقال ان هذه المهمة تنطوى على قيام الدفاع بتقديم كل ما قد يكون فى مصلحة المتهم للمحكمة لتنظر فيه . ولما كان « باورز » قد اعترف بأنه مذنب ، فان الدفاع لن يهاجم الحقائق ، ولا الاتهامات الموجهة اليه ، ولا وجهة نظر الاتهام فى القضية .. وقال « ليس هناك أدنى شك فى أن هيئة قضائية ممتازة كهيئتكم قد توافرت لها التجارب والحكمة التى تمكنها من التفرقة بين الحقيقة والزيف ، وهذا هو ما يجعلنى أتوقع بكل ثقة قبولكم للادلة التى قدمها باورز لكم بوصفها أدلة صحيحة » .

وبدأ الدفاع يتدفق فى مرافعته مؤكدا الاهمية الدولية للقضية .. قال أيها الرفاق القضاة : لقد ارتكب « باورز » جريمة رهيبة ضد الاتحاد السوفيتى وكان من الواجب أن ينضم اليه سادته ، غير المنظورين فى قفص الاتهام وعلى رأسهم « آلان دالاس » والعسكريون الامريكيون وجميع قوات العدوان المفزعة التى تحاول اشعال نار حرب عالمية أخرى ... ومع ان « باورز » هو المرتكب للجريمة ، الا أنه ليس المجرم الاساسى بغض النظر عن ان القضية سميت باسمه اليوم .

ومع أن « جرنييف » اعترف بأن موكله ارتكب الجريمة مسوقا الى ذلك بأوامر رؤسائه ، الا انه لم يكن على اتصال بأحد من هؤلاء الرؤساء غير الكولونيل « شيلتون » ٠

واستطرد الدفاع قائلا : ان هؤلاء الرؤساء لم يصارحوا « باورز » بالخطط التى رسموها حتى حينما أرسلوه لارتكاب الجريمة ، بل انهم خدعوه عامدين حينما أكدوا له أن رحلته فوق الاراضى السوفيتية مأمونة أمانا تاما ولا تنطوى على أية مجازفة ٠ وطلب الدفاع من المحكمة أن تضع فى اعتبارها ــ حين تقدير العقوبة ــ مخالفة المتهم لأمر الكولونيل « شيلتون » بتدمير الطائرة حين اضطراره للهبوط ، والانتحار بالابرة المسمومة التى قدمها له الكولونيل نفسه ، وطلب الدفاع من المحكمة ايضا ان تقدر الشهادة الامينة الصريحة التى أدلى بها « باورز » فى أثناء التحقيقات السابقة على المحاكمة ٠ وختم مرافعته قائلا : لست أعلم ان كان « باورز » قد أفضى بالحقيقة كلها أو انه لم يفض بها الا أنه لا شك فى أن ما قاله صحيح ٠

لقد كانت الصورة ، التى حاول هذا المحامى البارع أن يرسمها فى اذهان سامعيه ؛ صورة طيار شاب ساذج اقحم فى « مغامرة سياسية خطيرة واسعة النطاق » بسبب أحوال الحياة فى أمريكا الرأسمالية «بما فيها من البطالة الواسعة النطاق والأخلاق البرجوازية السائدة هناك، والتى تتميز بالفردية القوية والجشع » ٠ لقد وقال الدفاع ان عبارة « الدولار القوى » هى التى أفسدت موكله ٠

واختتم الدفاع مرافعته قائلا : أيها الرفاق القضاة : « ان بلادنا قوية على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخها ، ولن يستطيع دعاة الحرب سواء أكانوا أمريكيين أم غير أمريكيين أو الاثنان معا أن يذلوا أعناقنا أو يجعلونا نحنى رءوسنا أمامهم وهذا هو السبب فى مطالبتى لكم باصدار حكم رحيم عن ذلك الذى طالب به النائب العام ٠ ولسوف يضيف حكمكم مثلا جديدا ٠ الى الامثلة التى لا حصر لها على انسانية العدالة السوفيتية ، ويوضح التباين الكبير بين الموقف الذى وقفه سادة « باورز » : المخابرات المركزية والقوى الرجعية الحاكمة فى الولايات المتحدة ، التى ألقت به الى موتة معينة ورغبت فى موته »

واستغرقت مرافعة المحامى جرنييف ثلاثة أرباع الساعة ، وقد أحدثت مرافعته أثرا عميقا فى المستمعين جميعا ٠ وعلى أثر ذلك قال

القاضى للمتهم ان الكلمة الاخيرة أصبحت له ، وحينئذ نهض « باورز » وقرأ التصريح الموجز التالى الذى كان قد اعده من قبل :

« استمعتم الى جميع أدلة القضية . ولا ريب فى انكم قررتم العقوبة التى ستوقع على . ولقد أدركت اننى ارتكبت جريمة خطيرة . وأدرك أنه لابد من أن أعاقب عليها » .

اننى أرجو المحكمة أن تزن جميع الأدلة ، وألا تنظر بعين الاعتبار الى ارتكابى جريمة فحسب . وانما أيضا الى الظروف التى دفعتنى لذلك .

وارجو المحكمة ايضا أن تدخل فى حسابها أن أية معلومات سرية لم تصل الى غايتها . فقد وقعت كلها فى أيدى السلطات السوفيتية .

انى أعلم أن الشعب السوفيتى يعتبرنى عدوا ، وفى استطاعتى أن أفهم ذلك ، ولكننى أحب أن أؤكد أننى لا أشعر ، ولم أشعر ، يوما بأية عداوة للشعب السوفيتى .

اننى أناشد المحكمة الا تحكم على كعدو ، ولكن كمخلوق آدمى ليس عدوا للشعب الروسى ، ولم يقدم لأية محاكمة ، ويشعر بندم شديد وأسف عميق لما فعله .. وشكرا .

ورفعت الجلسة للمداولة ...

وعادت هيئة المحكمة للاجتماع بعد أربع ساعات واربعين دقيقة . ونطق الجنرال بريسوجلبسكى بالحكم . وطبقا للاجراءات السوفيتية نهض جميع من فى المحكمة فى حين كان رئيس المحكمة يقرأ الحكم من ورقة امامه :

بعد استعراض الادلة بايجاز ، والطعن فى الولايات المتحدة بلغة أكثر اعتدالا من اللغة التى استخدمها الكولونيل رودنكو ، أعلن القاضى أن باورز ارتكب جريمة خطيرة « وفى رأى المحكمة انه ثبت أن الطائرة « ى ــ ٢ » ملك لسلاح الطيران الامريكى ، وأن « باورز » عميل لادارة ابحاث الفضاء الامريكية وقد اعترف « باورز » نفسه بأنه أدرك ، حينما اخترق المجال الجوى السوفيتى ، أنه اعتدى على السيادة القومية لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، وانه طار فوق أراضيه فى مهمة تجسس غايتها الانسانية معرفة وتحديد أماكن اطلاق الصواريخ

.. وقد اعتبرت المحكمة غزو الفضاء « عدوانا اجراميا على مبدأ القانون الدولى المقبول من الجميع » على حين أن الاعتداء على هذا المبدأ المقدس يخلق تهديدا مباشرا بوقوع نزاع عسكرى « وأن الرحلة دبرت عمدا لنسف مؤتمر القمة بباريس ، وزيادة حدة التوتر الدولى ، وزيادة تأجج الحرب الباردة ، وفى هذا كانت أمريكا ، المجرمة الرئيسية ، يعاونها فى اجرامها كل من تركيا وايران والباكستان والنرويج نظرا لانه لم يكن من المستطاع القيام بهذه الرحلة من غير أن تقدم هذه الدول قواعدها لهذا الغرض » .

واختتم القاضى قراءته قائلا : وفى الوقت ذاته وزنت المحكمة ظروف القضية ، ونظرت بعين الاعتبار لاعتراف « باورز » بذنبه باخلاص وما أبداه من ندم مخلص ، وما اتصفت به المبادىء الاشتراكية من انسانية ، ولذلك حكمت المحكمت على « فرانسيس جارى باورز » بالحرمان من الحرية عشر سنوات على أن يقضى السنوات الثلاث الاولى منها فى السجن »

وقوبل قرار المحكمة بتصفيق استمر دقيقتين . وعلى أثر ذلك اقتيد السجين الى غرفة مجاورة حيث سمح لأبويه وزوجته بمقابلته لأول مرة منذ وقع فى الاسر .

وفيما بعد ، وفى اليوم نفسه أصدر السكرتير الصحفى للبيت الابيض بواشنجتون تصريحا جاء فيه أن الرئيس أيزنهاور ، الذى قيل انه تتبع المحاكمة باهتمام ، يستنكر الدعاية السوفيتية التى أحاطت بموضوع الطائرة « ى ـ ٢ » وقسوة الحكم الذى صدر ضد باورز .

الفصل السابع

الدومينكيون وأسرة داروموند

- ١ -

يقع طريق نابليون ، وطريق وادى نهر « يورانس » أسفل قرية البابن باللور فى جنوب فرنســا ، وتوجد بين الطريقين والنهر مزرعة يطلق عليها « لاجراند تير » ولكنها أبعد ماتكون عن الضيعة الكبيرة التى يوحى بها اسمها . فبيت المزرعة نفسه بناء أصفر مقبض ، والارض التابعة له شريط صغير مجاور للنهر به أشجار زيتون وبرسيم ، والاخير يستخدم كعلف لحيوانات المزرعة . ويوجد وراء هذا الشريط الضيق فى الارض ، خط السكة الحديد ، والنهر الذى توجد فوقه قنطرة تبعد ميلا عن المزرعة . وهناك ممر بين القنطرة وطريق نابليون ، فى حين انه على مسافة ياردات قليلة من اتصال الارض بالطريق الرئيسى توجد شجرة توت . وعند هذه النقطة بالذات كانت أسرة انجليزية من ثلاثة اشخاص تقوم برحلة سياحية فى فرنسا بسيارتها من طراز « هيلمان » فى صيف سنة ١٩٥٢ ، وقررت الاسرة أن تضرب مخيمها هناك فى ليلة ٤ من أغسطس ، ولقد أراد القدر أن تصبح هذه الليلة قاتلة بالنسبة للسائحين الانجليز ولسكان المزرعة القريبة جميعا .

وكان الزائرون : السير جاك ، والليدى درموند ووحيدتهما اليزابيث وكانت فى العاشرة من عمرها .

وكان السير « جاك » حينذاك فى الواحدة والستين من العمر ، وكان عالما ممتازا فى علم الأغذية وأستاذا سابقا للكيمياء العضــوية بجامعة لندن ، ولقد أصبح فى أثناء الحرب كبير خبراء التغذية فى الحكومة ، وادى اعمالا لا تقدر بثمن فى تكوين أعظم الاطعمة تغذية فى وقت الحرب

من دائرة الاطعمة الضيقة التى كانت موجـودة وقتذاك ، كمـا منـح « نيشان » الفروسية لخدماته الجليلة ، وكانت زوجته من المهتمات أيضا بشئون التغذية ، وقبل نشوب الحرب بقليل وضعت مع زوجها كتابا فى الموضوع بعنوان « طعام الرجل الانجليزى » الذى أثبت أنهما يقدران أهمية الطعام المعد اعدادا علميا حسـنا . ولقد صرح السـير « جاك » ذات مرة بأن بريطانيا تنتج أحسن الخضراوات فى العالم ولكنها تطهوه اسوأ طهو .

وبعد الحرب عين مديرا للابحاث العلمية بمعامل «بوتس» الكيميائية فرحل مع اسرته للاقامة بالقـرب من توتنجهـام ، وفى أوائل عام ١٩٥٢ اصيب بمرض خطير ، فلما شفى منه قرر قضاء فترة النقاهة فى فرنسا، وتقدم صديق قديم للسير «جاك» هو الاستاذ «جاى ماريان» الذى ابتاع لنفسه فيـلا ، يقضى الصيف فيهـا بفيلفرانش ، بدعـوة لأسرة درموند للاقامة عنده ، فعبرت الاسرة القنال يوم ٢٧ من يوليو وانطلقت جنـوبا عبر ريمس ، واكس لوبان ، وتوقفت فى «دان» لتناول الطعام ، وحينئذ رات ملصقة فى الفندق تعلن أن مبارزة للثيران ستحدث يوم الاثنين التالى (٤ من اغسـطس) كجزء من المهرجان السنوى ، وابدت « اليزابيث » الصغيرة لهفة كبيرة على رؤية المبارزة ووافق ابواها ، وبعد أن قضوا عطلة آخر الاسبوع مع أصدقائهم فى فيلفرانش عادوا الى «دان» وبعد المبارزة بدءوا رحلتهم عائدين الى فيلفرانش . وكان الوقت قد تأخر لوصـولهم الى غايتهم قبل هبوط الظلام ، ولذلك قرروا التوقف وضرب خيمتهم بعد مغادرتهم «دان» بوقت قصير . وكان المكان الذى وقع عليه اختيـارهم رقعة صغيرة من الارض التى توجد بها شجرة التوت المؤدية الى القنطرة القريبة من مزرعة لاجراند تير .

واخرجوا حقائب نومهم من السيارة ، كما اخرجوا طعاما لعشائهم ، وبينما كانت الاسرة تعد طعامها ، اذ مر بهـا كهل معـه كلب وقطيع من الأغنام ، وكان هذا الكهل رأس الأسرة التى تقيم ببيت المزرعـة القريب واسمه «جاستون دومينيكى» وفى أثناء مروره تقدمت الصغيرة (اليزابيث) وربتت ظهر عنزة ، ولكنها لم تخاطب الكهل . وبعد أن انتهت أسرة درموند من تناول عشائها وتهيأت للنوم هبط الظـلام ، وكانت ليـلة بلا قمر فى بدايتها . ولكن القمر مالبث أن طلع فملأ الكون ضوءا وبهاء .

من المحتمل الا يتمكن أحد من تبويب الاحداث التى وقعت فى الثلاث او الأربع الساعات التالية تبويبا دقيقا . والمحقق انه فى نحو السـاعة

الواحدة صباحا ، دوت فى الفضاء أصوات عدة طلقات نارية تردد فى الوادى صداها .

وبعد الساعة السادسة صباحا بقليل ، كان عامل بأحد المصانع القريبة من سان اوبان ، اسمه «جان ـ مارى اوليفيه» عائدا الى منزله بدراجته البخارية بعد أن ادى نوبته الليلية ، فاستوقفه رجل كان يلوح بيديه فى خبل ، وكان هذا الرجل يقف قريبا من المكان الذى نامت فيه أسرة درموند ، وصاح الرجل « لقد عثرت على جثة • وسمعت بعض الطلقات » .

وبعد سكتة قصيرة أردف : من الجائز أن أشخاصا آخرين قتلوا ، اذهب وأبلغ الشرطة . .

وتبين أن الشخص الذى تطوع بهذه المعلومات هو جوستاف دومينيكى ابن جاستون العجوز ، ولقيت اثتغاثته استجابة سريعة ، اذ بادر راكب الدراجة بالاسراع بالذهاب الى أقرب مركز للشرطة وكان فى أورسون على مسافة أميال قليلة على الجانب الآخر من الوادى ، وبعد قرابة ساعة وصل شرطيان الى لاجراند تير ، حيث قابلهما جوستاف الذى مضى بهما أولا الى جثة ملقاة بجوار النهر . وكانت جثة اليزابيث درموند . . . كانت الفتاة الصغيرة ممددة على ظهرها وبدا كأنها نائمة لولا الجرحان العميقان الموجودان في جبهتها والدم الذى نزف من أنفها وأذنيها وكانت ميتة كأبويها . فقد عثر على جثة الليدى درموند تحت غطاء بجوار سرير المعسكر بالقرب من السيارة ، فى حين اكتشفت جثة السير جاك على الجانب الآخر من الطريق الرئيسى عند قاعدة عمود كهرباء • وكانت جثته مخبوءة جزئيا تحت فراش آخر خيل كأنه ألقى فوق الجثة • • • كان الاب والام قتيلين بالرصاص ، فى حين هشم رأس اليزابيث درموند بأداة ثقيلة •

كان يبدو أنه ليس هناك دافع لهذه الجريمة البشعة التى راح ضحيتها ثلاثة من السائحين البريطانيين الابرياء ، ومع أن محتويات السيارة وملابس الضحايا كانت مبعثرة ، الا أن نقود الأسرة ونفائسها لم تمس . وعثر الشرطيان على بطاقة السير «جاك» فى احدى الحقائب فعرفا منها شخصيته وعنوانه ، وفى التو اتصلا تليفونيا بشرطة النجدة فى مرسيليا وبالقنصلية البريطانية فى نيس . . وفى ساعة متأخرة من النهار وصل المفتش « ادمون سايبل » ومساعدوه ، الى لور •

وفى تلك الاثناء كان عمدة القرية قد طلب من الطبيب المحلي فى أوريسون فحص الجثث ، فقال انه يعتقد أن القاتل أطلق الرصاص أولا على السير جاك درموند . الذى قتل بطلقين ناريين اخترق احدهما كبده فى اثناء ترنحه عبر الطريق من موقع المخيم . أما الليدى درموند فيحتمل انها قتلت فى اثناء نومها ، بثلاث رصاصات اطلقت فى منطقة القلب ، ومن ناحية اخرى لم يعثر فى جثة اليزابيث درموند على أثار طلقات نارية ، باستثناء خدش فى احدى الاذنين ، وعلى عكس جثتى أبويها : لم تكن جثتها متصلبة مما يدل على أن موتها حدث بعد موت أبويها بفترة من الوقت .

ونقلت الجثث الى المشرحة بعد الظهر ، ولذلك لم يرها مفتش الشرطة فى مواقعها الاصلية حين وصوله من مرسيليا . صحيح أن الشرطيين بحثا عن آثار أقدام ، الا أنه يبدو أنهما لم يبذلا جهدا لابعاد المتطفلين عن المنطقة ولذلك اختلطت آثار اقدامهم بآثار أقدام المجرم . بيد انه على الرغم من هذه العراقيل الاولية كان المفتش « سايبل » واثقا من أن القاتل سوف يكتشف سريعا ، وسرعان ماحصل المحققون على أدلة فى شكل طلقين ناريين فارغين وآخرين غير مستعملين عثر عليهما فوق الأرض بالقرب من مسرح الجريمة ، ورأى احد مساعدى المفتش قطعة من الخشب طافية على سطح النهر تبين انها جزء من سلاح نارى ، وأعقب ذلك اكتشاف السلاح الذى تنتمى اليه قطعة الخشب . وكانت قرابينة من سلاح الجيش الامريكى أمكن استخراجها من قاع النهر . فأدخل فيها الطلقان اللذان لم يستخدما وتبين أنهما من طلقاتها . وأدى فحص السلاح الى أن «دبشك» القرابينة قد تهشم وأنه أصلح بدون اتقان بسلك حديدى وبلوحة رقم دراجة من الالومنيوم .

واخذ رجال الشرطة فى استجواب أفراد أسرة دومينيكى المقيمين فى المزرعة فأعاد جوستاف عليهم القصة التى سبق أن رواها للشرطيين عن كيفية اكتشافه الجريمة . قال انه سبق أن رأى أسرة درموند فى نحو الساعة الثامنة من مساء اليوم السابق حينما دعى لمشاهدة انهيار حدث فى الارض عند خط السكة الحديد ، ولاحظ أن الاسرة تستعد لقضاء الليل . وأضاف انه دهش لان هؤلاء السائحين لم يهتموا باستبدال ثيابهم فى مكان قريب جدا من الطريق العام . وبعد أن أبلغ نبأ انهيار الارض للسلطات عاد الى المزرعة وآوى الى فراشه وفى نحو الساعة الحادية عشرة سمع صوت دراجة بخارية توقفت عند المزرعة وصوت شخص يتحدث الى ابيه من خلال الباب . فانصرف للنوم ، ولكنه استيقظ

في نحو الساعة الواحدة حينما سمع بضع طلقات نارية . وكان قد لاحظ الوقت لأن طفله وزوجته استيقظا بدورهما . واضاءت زوجته «ايفيت» النور لتعطى الطفل زجاجة . ومضى الشاهد يقول ان الطلقات أفزعته ولكنه لم يجرؤ على النظر من النافذة ، كما انه لم يستطع النوم ثانية . وفى نحو الساعة الخامسة والنصف صباحا استيقظ من نومه كعادته ومضى فى الطريق ليرى ان كان انهيار الارض قد زاد فى اثناء الليل او انه لم يزد . وبعد أن قطع جزءا من المسافة تولاه الفزع حينما رأى جثة الفتاة الصغيرة ملقاة بالقرب من حافة جسر السكة الحديد . فركض عائدا الى الطريق للاستغاثة . وكانت أول وسيلة نقل مرت به سيارة تحمل أرقاما هولندية فتركها تمضى ، وبعد ذلك بدقائق وصل المسيو اوليفيه فاستوقفه وطلب اليه البحث عن رجال الشرطة ثم عاد الىالمزرعة وانتظر وصول الشرطة .

وكانت قصة جاستون العجوز ، والد جوستاف ، مشابهة الى حد كبير لقصة ابنه . قال أيضا . انه رأى أسرة درموند تستعد لقضاءالليل حين عودته بأغنامه الى المزرعة ، وقد ذهب بدوره مبكرا الى فراشه ، ولكنه استيقظ على صوت دراجة بخارية وراكبها الذى قال له شيئا باللغة الايطالية ، ولكنه لم يفهم ماقال وحينئذ انصرف الزائر . وقال جاستون انه عاد الى فراشه بعد ذلك ولكنه استيقظ ثانية على صوت طلقات نارية ظن أن اللصوص أطلقوها . وفى نحو الساعة الرابعة استيقظ وقاد قطيعه الى مرعاه على الجانب الآخر من المزرعة بعيدا عن مكانمخيم أسرة درموند ، وأضاف الشاهد أنه لم يعرف شيئا عن جرائم القتل الا بعد أن عاد الى المزرعة فى الصباح وسمع الانباء من جوستاف .

ولقد صدق المحققون قصة جاستون ، التى رواها حين سيره مع مفتش الشرطة فى اتجاه موضع الجرائم ، لان جاستون كان معروفابحسن سمعته فى المنطقة وبخاصة انه سبق أن عاون السلطات فى القبض على مجرم خطر من غير معونة . وفى تلك الاثناء وصل جاستون والمفتش الى شجرة التوت – وهنا نطق جاستون بكلمة ، فى لحظة عدم احتراس ، ادهشت المفتش أعظم دهشة . قال «هنا سقطت السيدة » . ثم صاح فجأة « انها لم تتألم » وبادر يصحح نفسه فقال : « اعتقد أنها لم تتألم بالنسبة لما حل بها » .

لقد كان تأخر المفتش « سايبل » فى الوصول الى « لور » فرصة مواتية لأسرة دومينيكى وأصدقائها للتحدث عن الموقف فيما بينهم .

وسرعان ما اقتنع المفتش بأنهم يعرفون عن جريمة قتل «لاجراند تير» أكثر مما يصرحون به .. وقال المفتش للصحفيين الذين كانوا يطالبونه بتصريح : ان القاتل بيننا ، وهو يراقبنا الآن .. اننا نعرف وجهه ولكننا لانعرف اسمه .

- ٢ -

كان جاستون دومينيكى ، عميد الاسرة ، مزارعا كهلا صلب العود اقتصد نقودا جعلته يشترى مزرعة «لاجراند تير» قبل ذلك بعشرين عاما ولكنه لم يعرف له أبا نظرا لانه كان ابن سفاح ، أما أمه التى حمل اسمها فكانت من أصل بيدمونتى واشتغلت خادمة فى قصر العدالة فى «دان» حيث ولد ، وحيث شاء القدر أن يحاكم ، وهو متهم بالقتل ، بعد مولده بسبعة وسبعين عاما . وكانت هيئة الكهل تدل على الكبرياء بسبب الشيب الذى اشتعل به رأسه وشاربه ، ولكن خطوط فمه كانت رقيقة وصلبة ، فى حين تجسمت فى عينيه نظرات الشك والارتياب . وكان جاستون رجلا سريع الغضب ، ولهذا كان يعامل أسرته بتهور وطغيان . أما زوجته « مارى » التى كان يطلق عليها « السرونيه العجوز » والتى أنجبت له تسعة أطفال فكانت كهلة محطمة تعودت طاعة زوجها من غير سؤال .

وكان جوستاف هو الوحيد من ابنائهما الذى عاش معهما ومعه زوجته فى المزرعة . وكان على العكس من أبيه الذى نشأ مكافحا صلب المراس فقد كان كسولا مهملا ضعيف الخلق والشخصية ، خاضعا خضوعا تاما لسيطرة زوجته القوية الشخصية ، كما كان عاجزا دائما عن قول الصدق . أما الابن الاكبر كلوفيس ، فكان يشتغل (عامل فلنكات) فى السكك الحديدية ، وكانت لهما ابنة أخرى متزوجة من عامل فى السكك الحديدية ايضا اسمه كيلوه وابنة أخرى «مدام برين» متزوجة من مزارع ولها ابن اسمه روجر يعمل صبى قصاب .

وفى الايام والاسابيع التى اعقبت هذه الجريمة المروعة ، استجوب المفتش « سايبل » ورجاله جميع أفراد أسرة دومينيكى ومعارفهم ، علاوة على عدد الذين تقدموا من تلقاء انفسهم محاولين القاء بعض الضوء على المأساة ، ومن بين هؤلاء رجل أعمال يونانى من مرسيليا اسمه «باناپوتو» ادعى أنه كان شاهد رؤية لجريمة القتل الثلاثية . وقد قال هذا الشاهد انه كان يمر بسيارته من أمام «لور» فى نحو الساعة الواحدة

والدقيقة العاشرة صباحا حينما حدث خلل بمصباحى سيارته الاماميين فأوقف السيارة لاصلاح الخلل على مسافة تبلغ نحو مائتى ياردة من مزرعة اسرة دومينيكى ، وفجأة سمع صياحا وسلسلة من الطلقات النارية ثم رأى رجلا يركض عبر الطريق وهو يضم احدى يديه الى صدره ، فى حين تعقبه رجل آخر يحمل شيئا فى يده اليسرى . وكان الرجل الثانى يرتدى قميصا قصير الأكمام وسراويل قاتمة اللون ، ولكن «بانايوتو» لم يستطع رؤيته بوضوح كاف للتعرف عليه ؛ ولكن مارآه افزعه الى درجة انه لم ينفق أى وقت فى المنطقة وانما ركب سيارته ومضى بها فى الطريق بأسرع ماأمكنه ومن غير أنوار .

وكان الشاهد الثانى ، الذى اثبتت شهادته أهميتها الكبرى للشرطة ، رجلا مرتفع الصوت اسمه « بول ميليه » كان يشتغل (عامل فلنكات) مثل كلوفيس دومينيكى ، وكان شخصا قوى النفوذ فى المنطقة لانه كان شيوعيا بارزا وكان واحدا من قادة (الماكويز) فى أثناء فترة المقاومة ومازال يحتفظ بمدفعين (استتن) فى مطبخ منزله . ولقد قال للشرطة انه بعد حدوث الجريمة بوقت غير طويل ، افضى جوستاف دومينيكى باعتراف هام جدا امامه وأمام أفراد من اسرة دومينيكى ، فقد قال ان جوستاف قال : « ان ذراع الفتاة الصغيرة الأيسر تحرك وانا أنظر اليها . . كانت لا تزال تتأوه وكان صوت الحشرجة لا يزال ينبعث من عنقها » .

وكان هذا التصريح قاطعا بالنسبة لما ارتاب المفتش «سايبل» فيه منذ البداية ، وذلك ان اليزابيث درموند الصغيرة لم تمت فى الوقت الذى مات فيه أبواها ، ولكنها ماتت بعدهما بوقت طويل ، اى بعدة ساعات ، كما دل على أن جوستاف دومينيكى لم يفض فى أثناء أقواله الاولى بكل ما كان يعرفه عن هذه المأساة المؤلمة .

ومن جهة اخرى كانت هذه الاقوال تتعارض مع ما قاله جاستون الكهل الذى اوقع نفسه فى تناقض جديد حينما قال : « لقد رايت بنفسى جثة الطفلة فى نحو الساعة السادسة صباحا . وكانت جد متصلبة ولا بد انها كانت قد ماتت قبل ذلك بساعات كثيرة » . . فهذا القول لا يتلاءم مع قصة جاستون السابقة التى ادعى فيها انه استيقظ صباح يوم الجريمة وذهب بقطيع أغنامه فى الاتجاه المضاد لموقع مخيم اسرة درموند . الا أنه ــ حينما نفتت الشرطة نظره لهذا التباين ــ تدخلت زوجة ابنة «ايفيت» فى الأمر قائلة « ينبغى الا تعيروا أهمية كبرى لما

يقوله هذا الكهل – لان ذاكرته مضطربة . ففى الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم كان يعنى بأغنامه ، ولم ير جثة الفتاة الصغيرة الا بعد ذلك بوقت طويل » .

وكلما كان رجال الشرطة يزيدون من استجواب افراد اسرة دومينيكى كان يزيد التناقض والتضارب فى أقوالهم . فطبقا لما قاله « أوليفيه » راكب الدراجة البخارية الذى استوقفه جوستاف دومينيكى عند مسرح الجريمة – فقد برز جوستاف من خلف سيارة اسرة درموند مباشرة ، ولهذا كان من المستحيل الا يرى جثتى الأبوين من هذا المكان. ومع ذلك فقد قال جوستاف أول الأمر انه رأى جثة اليزابيث فقط ، وحينما ووجه بهذا التناقض صحح جوستاف اقواله الاصلية قائلا : « لقد تذكرت الآن أننى – بعد ان رأيت جثة الفتاة الصغيرة – ادركت أن الشخصين الانجليزيين قد قتلا أيضا ، وهذا هو سبب فزعى وسبب عودتى الى المزرعة بعد مقابلة اوليفيه ، وانتظارى بها حتى وصل رجال الشرطة .. لقد جعلنى الفزع ، الذى ركبنى بسبب ما رأيت ، أشك فى سلامة عقلى ، اذ اضطرب كل شىء فى ذهنى وانتابنى الارتباك حتى مرضت فعلا » .

وكان الاخطر من ذلك قول ميليه أن اليزابيث درموند كانت على قيد الحياة حينما عثر جوستاف عليها ، واذ اشتد ضغط الشرطة عليه اعترف جوستاف بصحة هذا القول فى حضور « ميليه » بعد أن أنكره مرات قبل ذلك وكان هذا الاعتراف مبررا لاعتقال السلطات لجوستافه واتهامه « بأن تقاعس عن مديد المعونة لشخص معرض لخطر الموت » .

وقدم جوستاف دومينيكى للمحاكمة عن هذا الاتهام فى « دان » ولم يستدع الاتهام والدفاع شهودا . أما القاضى فقال « يكفينى اضطراب جوستاف نفسه » .

وبدأ جوستاف كلامه قائلا : انه ذهب لرؤية انهيار خط السكة الحديد فى الساعة الخامسة من صباح يوم ٥ من أغسطس » وحينذاك رأيت جثة الفتاة الصغيرة .. وحركت ذراعها » .

فسأله القاضى : اى ذراع ؟

– اليسرى .. وخيل الى أنها تأوهت أيضا .

– وماذا فعلت حينئذ ؟

ـ ناديت راكب الدراجة البخارية « أوليفيه » وطلبت منـه أن يذهب للبحث عن رجال الشرطة .

ـ ماذا قلت له بالضبط ؟

ـ قلت له انه توجد جثة على ضفة النهر .

ـ ولكنك قلت ان الطفلة كانت تتحرك .. والجثة لا تتحرك كما تعلم ؟

فبدا الاضطراب على وجه جوستاف ، وغمغم : لم أكن اعلم ...

وتوقف عن الكلام . فسأله القاضي :

ـ كان عليك حينذاك أن تبعث فى طلب طبيب .

ـ لم أدر ذلك .

فحدج القاضي جوستاف بنظرة تنطوى على الصرامة والغضب، وقال له :

ـ ألست رجلا ؟ انك فى الثالثة والثلاثين من عمرك ولا تبدو عليك أية علامة على العته ، ومع ذلك فانك لم تفعل شيئا مطلقا من أجل الطفلة التعسة . بل انك لم تستدع لها طبيبا ؟

فقال جوستاف وعلى شفتيه ظل ابتسامة : كلا ، ولكنى أرسلت فى استدعاء الشرطة .

وأردف القاضى : ولم تفكر أمك وزوجتك فى استدعاء الطبيب مع أن لكل منهما أطفالا ؟

فأجاب جوستاف بصفاقة : لا يا سيدى الرئيس !

وهنا تدخل وكيل النيابة لتأييد اسئلة القاضى .

قال للمتهم : لقد اعترفت بأنك فى ليلة ٤ ـ ٥ من اغسطس ـ سمعت بضع طلقات نارية ، من الواضح انها صدرت من بندقية صيد ، وأنك لم تحاول معرفة ماذا كان يحدث .

فأجاب جوستاف بصوت منخفض : نعم .

ـ واعترفت أيضا بأنك قلت لزوجتك ان شيئا مالابد قد حـدث

للأنجليز ، الذين رأيتهم يعسكرون حين مجيئك فى الليلة السابقة ، ثم استسلمت للنوم بعد ذلك ؟

فعاد جوستاف يقول : نعم .

وهنا قال محامي المتهم : ان القانون الذى يحاكم موكله طبقا لنصوصه أصدرته حكومة فيشي لارغام المواطنين الفرنسيين على مساعدة الالمان الذين كانوا يتعرضون لهجوم رجال المقاومة ، ولم يقصد به اطلاقا أن يطبق على حالات من أى نوع آخر . وعلى اية حال : لماذا لم يوجه الاتهام نفسه الى رجل الاعمال اليونانى « بانايوتو » الذى ادعى انه كان يمر بمسرح الجريمة فى الوقت الذى كانت هذه الجريمة ترتكب فيه ؟

وحكمت المحكمة على جوستاف بالسجن شهرين ودفع مبلغ صغير من مصاريف المحاكمة . وقد فسر اعتدال الحكم النسبى رسميا بانه كان نتيجة نظافة سجل المتهم . والظروف الأخرى التى أحاطت باتهامه وايدت محكمة الاستئناف الحكم وكان معنى ذلك الافراج فورا عن جوستاف ، لأنه كان قد قضى شهرين فى السجن .

- ٣ -

ومر نحو عام قبل ان تحدث تطورات جديدة فى القضية . ففى يوم ١٤ من نوفمبر ١٩٥٣ أفضى بتصريح مثير جدا .. وكان هذا التصريح ذروة سلسلة من الأحداث بدأت بتتبع شاهد جديد هام . وكان هذا الشاهد تاجرا متجولا اسمه « جاك ريشار » صرح بأنه مر بمسرح الجريمة فى نحو الساعة السابعة صباح يوم ٥ من أغسطس ورأى سيدة ملقاة على الأرض ومغطاة (ببطانية) بجوار السيارة ، فظن أن أحد الرحالة البريطانيين كان نائما هناك ، فمضى فى طريقه . ومع ذلك ، فحينما اقبل الشرطيان من اوريسون ، كانت جثة الليدى درموند ممددة بزاوية بالنسبة للسيارة ، ولذلك فمن الواضح أن شخصا كان هناك فى تلك الاثناء وحرك الجثة .

ودفع هذا التطور المفتش « سايبل » لتجديد جهوده والبدء بسلسلة جديدة من الاستجوابات « والمواجهات » ولقد قال « روجر بيرين » صبى القصاب وابن أخت جوستاف للشرطة انه رأى فى ليلة

الجريمة وقبل حدوثها ؛ الليدى درموند واليزابيث تحضران الى بيت المزرعـة ومعهمـا دلو وطلبتـا ماء . وفى ذلك الوقت كان أفراد اسرة دومينيكى قد انكروا انكارا تاما انه لم يحدث بينهم وبين الأسرة المقتولة اى اتصـال .

ثم ادلى جوستاف بعد ذلك بأقوال جديدة ، قال انه سمع صيحات استغاثة وقت ارتكاب الجرائم ، وانه لم يبق فى غرفته ، كما أكد من قبل ، ولكنه نهض مرتين وزار مسرح الجـريمة . وفى احـدى هاتين الزيارتين حرك جثة الليدى « درموند » (ليرى ان كانت لاتزال على قيـد الحياة) .

واخيرا انهار جوستاف على كتف المفتش ، وبدأ يبكى . فبـذل المفتش قصارى جهده للتهوين عليه ، وأخيرا اعترف جوستاف .

قال باكيا : لقد قتلهم ابى.. قال لى ذلك فىالساعة الرابعة صباح ذلك اليوم .

وبعد قليل تأيد هذا الاتهام بمـا قاله اخـوه كلوفيس : ما دام جوستاف صارحك فلم يعد هناك سبب يحملنى على اخفاء الحقيقة عليك بعد الآن .

وجاء اعتراف جاستون نفسه متوجا لهذه الاقوال . قال انه ذهب لرؤية انهيار الارض وتوقف بجوار شجرة التوت حينما كانت الليدى درموند تهم بخلع ثيابها ثم بدأ يغازلها ، وهنا جاء زوجها فقتلهما معا فى لحظة ثورة عاطفية. قال « كانت جريمة حب » وبعد أن قتلالزوجين مضى يبحث عن اليزابيث التى كانت قد هربت فى اتجاه ضفة النهر ولم يكن يملك رصاصا ولذلك قتلها «بدبشك» البندقية . وحينما عاد الى المنزل قابل جوستاف الذى سمع الطلقات والصيحات ، فقال له : لقد قتلت الانجليز . فالزم الصمت ولن يعرف أحد الحقيقة .

وعلى اثر ذلك غادر جوستاف المنزل وذهب الى مسرح الجريمة لرؤية الجثث ، وكانت اليزابيث لا تزال على قيد الحياة .

وفى ساعة مبكرة من الصباح جاء كلوفيس دومينيكى الى المزرعة وهو فى طريقه الى عمله وبناء على نصيحة « ايفيت » وافق الاخوان على ترديد قصة واحدة عن اكتشاف الجريمة .

وبعد القبض على جاستون دومينيكى رسميا واتهامه بقتل أسرة

درموند ، أخذ الى مسرح الجريمة « لاعادة تمثيل كيفية ارتكاب الجريمة » جريا على العادة المتبعة ، وهنا أدهش المحققين بمفاجأتين، أولاهما السرعة التى ركض بها فى أثناء تمثيله كيف طارد اليزابيث . كانت سرعة غير عادية بالنسبة لكهل فى سنه . وثانيتهما أنه حينما وصل الى القنطرة حاول أن يثب من فوقها الى الماء ، ولكن شرطيا والقاضى المحقق استطاعا الحيلولة دون اتمام محاولة الانتحار المتعمدة هذه ، اذ امكنهما أن يجذباه من طرف سترته فى آخر لحظة ..

وغمغم جاستون وهو يلهث : على اية حال ينبغى أن أموت فى المنزل .

- ٤ -

بدات محاكمة جاستون دومينيكى متهما بقتل السير جاك والليدى درموند وابنتهما اليزابيث ، بمحكمة الجنايات بمدينة « دان » يوم ١٧ من نوفمبر ١٩٥٤ . وكان رئيس المحكمة القاضى الصارم « مارسيل بوكويه » يعاونه عضوان ومحلفون يتألفون من سبعة رجال . وتولى الاتهام وكيل النيابة « كاليكست روزان » فى حين تولى الدفاع عن المتهم المحامى « اميل » أما المحامى « كلود ديلورم » فحضر المحاكمة بالنيابة عن ام الليدى درموند المسز ويلبراهيم .

وطبقا للاجراءات الجنائية الفرنسية ، اشتملت قائمة الاتهام المكتوبة ، التى بدأ كاتب الجلسة فى قراءتها ، على موجز للحقائق التى اعتمد الاتهام عليها فى اثبات القضية . وعند نقطة « اعادة تشكيل » الجريمة ، جاء فى قائمة الاتهام ما يلى :

« فى أثناء تمثيل الصراع الذى حدث بينه وبين السير جاك درموند ، قال المتهم ان خصمه أمسك (بدبشك) البندقية بيده اليمنى لينتزعها منه . وقال ان الطلق الأول انطلق نتيجة لذلك فأصاب السير جاك فى يده واضطره الى ترك البندقية ، وهذا التفسير يطابق مطابقة تامة ما وجده الطبيب الشرعى الذى عثر على ثلاثة جروح فى يد السائح الانجليزى اليمنى ، واتضح أنها حدثت من طلق نارى » .

ولو أن جاستون دومينيكى باعترافه ، جاء الى المحكمة معترفا بانه

مذنب لسهلت مهمة الاتهام نسبيا ، ولكن جاستون كان قد عدل عن اعترافه وقال انه غير مذنب وصاح :

ــ ليس هناك مايثقل ضميرى . اننى لا ألوم نفسى على شىء .

وزاد جوستاف من تعقيد القضية أمام الاتهام حينما سحب اقواله عن ابيه وادعى انه لم يدل بهذه الاقوال ، الا لان رجال الشرطة ضربوه وعذبوه .

وحينئذ بدأ رئيس المحكمة يستجوب المتهم الواقف فى قفص الاتهام ، وكان استجوابه عبارة عن سلسلة طويلة من الأسئلة حول الاقوال الكثيرة المتناقضة التى ادلى بها للسلطات فى أثناء التحقيق السابق على المحاكمة . فحينما سئل عن « القرابينة » مثلا ادلى جاستون بانه هو الذى عثر على قطعة الخشب المحطمة تحت راس اليزابيث .

فقال القاضى : انك كاذب يا جاستون دومينيكى لان الشرطة هى التى عثرت على قطعة الخشب وليس أنت .

فقال جاستون باضطراب : لعلنى اخطأت فى ذلك . الواقع أننى لا أستطيع تذكر الحقيقة الآن .

فأردف القاضى : ان القاء البندقية فى جزء عميق من النهر كان يتطلب معرفة المكان الصحيح بالضبط ، ولهذا كان من الضرورى السير نحو عشرين ياردة على طول ضفة النهر .. اليس كذلك ؟

فأجاب جاستون : لا . لقد كان الجزء العميق من النهر مواجها مواجهة تامة للمكان الذى وجدت فيه جثة الفتاة الصغيرة .

فقال القاضى معقبا : انه لامر غريب . هذه اول مرة تقول هذا فيها !!

فقال جاستون وفكه يرتعش : على كل حال لم أكن انا الذى القيت البندقية فى النهر .

ــ اذا كنت تعرف ذلك من قبل ، فعليك ان تتكلم الآن .

ولكن السجين ظل صامتا وهو يحدق فى وجه القاضى .

فسأله القاضى : الم تر البندقية من قبل حقا ؟

فاجاب جاستون بشىء من التأكيد : لا . لم أرها لا فى منزلنا

ولا فى منزل كلوفيس بل اكثر من ذلك ، اننى لم أر أمريكيين يتوقفون بمزرعتنا عند التحرير !

فقال القاضى بجفاء : اذن لا ريب فى أن مزرعتك هى الوحيدة فى المديرية الشمالية التى لم يتوقف الجنود عندها ؟

وحينما عرض عليه القاضى أقوال ابنه جوستاف عن اعترافه الاول له ، انكرها جاستون بترفع ، وصاح وهو يقبض على سور القفص : هذا غير صحيح .. لقد كذب جوستاف .

وفيما بعد قال جاستون انه كرر اعترافه بسبب الطريقة التى استبقاه رجال الشرطة بها مستيقظا طول الليل وهم يمطرونه بوابل من الأسئلة . واضاف : كان ينبغى الا يفعلوا ذلك برجل فى مثل سنى . ولقد افقدونى صوابى .

ومضى قائلا فى اصرار انه كان نائما فى فراشه بالمنزل طول الوقت.

فقال القاضى : ولكنك اعترفت بأنك مذنب تسع مرات !

ــ كلا ياسيدى الرئيس .. انك ترتكب غلطة كبيرة .

وهنا تدخل المحامى بوتوك قائلا : لكن تذكر أنه سحب اعترافه سبع مرات على الأقل !

وأخيرا وجه القاضى الى جاستون سؤالا عن الاقوال التى ادعى انها صدرت بحضور ابنه الآخر كلوفيس بعد أن تشاجر مع زوجته : لقد قتلت ثلاثة أشخاص فاذا دعت الضرورة فسأقتلك .

فصاح جاستون بغضب : هذا كذب صراح : فاننى لم أقل شيئا كهذا .

وهكذا استطاع المتهم أن يتشبث بموقفه حتى تلك اللحظة، موهما المستمعين بأنه مزارع عجوز محترم بلبلت فكره المأساة المروعة التي حدثت بالقرب من مزرعته وما لقيه من تعذيب على أيدى الشرطة .. وفى اليوم الثانى من المحاكمة ، انحسر القناع عن جانب أكثر فظاعة من أخلاقه حينما قال انه يتهم حفيده « روجر بيرين » بأنه القاتل : « انه هو ، ولا ريب أن كلوفيس هو الذى أعطاه البندقية » .

كان هذا هو ما قاله جاستون للشرطة فى أثناء احدى مرات استجوابه ، وقد اعترف فى المحكمة بأنه قال ذلك ، واضاف انه ليس

واثقا من ذلك . اذ قال للقاضي : هناك شك في ذلك .. على كل حال انني بريء .

فقال القاضي : ولكني لم اقل انك مذنب . ولكنني أبلغك فقط ما قاله كلوفيس .

فقال جاستون : لا يا سيدى الرئيس . انك توحى باستمرار بانني كنت القاتل ولكني اقول لك ثانية انني بريء .

ـ اذن لماذا اتهمك كلوفيس ؟

ـ لست أدري . لقد كنا صديقين دائما .

ـ ثم اندفع يشى بمختلف افراد اسرته ، وختم اتهامه قائلا :

ـ حينما جاءت الشرطة للقبض على ادركت انه وقع على الاختيار لأحل محل شخص آخر ، وهذا هو السبب في وجودى هنا الآن .

واعقب استجواب المحكمة للمتهم استدعاء مختلف انواع الأطباء الشهود الذين اكدوا اكتشافاتهم السابقة ومن بينها اكتشافهم أن اليزابيث ماتت بعد موت ابويها بساعتين او ثلاث ساعات . ثم اعقبهم الاستاذ « جاى مريان » وزوجته اللذان نزلت أسرة درموند فى ضيافتهما غداة المأساة .

وكانت قد سرت شائعات قوية بأن للجريمة صلة ما بحركة المقاومة ، فسأل القاضي ، الأستاذ «مريان» هل كان السير جاك درموند قد جاء يوما الى فرنسا فى اثناء الحرب ؟

واجاب الاستاذ : اننى واثق من انه لم يأت ، ذلك لأنه كان من المستحيل أن تتخلى الحكومة البريطانية عنه ، فضلا على أنه كان متقدما في السن بحيث يستحيل أن يهبط بمظلة النجاة ، فضلا على أن معرفته باللغة الفرنسية كانت اولية .. لقد كنت أعرفه حق المعرفة ، ولذلك فانني واثق من أنه لو كان قد جاء الى فرنسا فى ذلك الوقت لحدثني بذلك بعد الحرب .

وجوابا على اسئلة أخرى القاها القاضي ، سرد الاستاذ «مريان» كيف انه وزوجته زارا مسرح الجريمة، فيما بعد ، مع القنصل البريطاني، وكيف ان جاستون ظهر فجأة وعرض عليهم أن يطلعهم على كل شيء واتى من الحركات ما يدل على انه يتوقع الحصول على أجر مقابل خدماته

كدليل . وحينئذ أمر القاضى جاستون بالوقوف وسـأله : هل رايت الشـاهد من قبل ؟

فأجاب المتهم : نعم ، انى أعرف هذا السيد ، فقد طلب منى ان اطلعه على الاماكن التى وجدت الجثث فيها ، ولكن ما يقوله لكم الآن كذب ، لأن مزارعى هذه المنطقة لا يطلبون أى تعويض حينما يقدمون معلومات لاى شخص عن أى شىء .

فقال الاستاذ مريان : بالعكس ، لقد حاولت التخلص من هـذا الرجل لكى اختلى بالقنصل .

واكدت المسز ماريان ما قاله زوجهـا : فقالت للمحكمة : لقـد دنا منا متظاهرا بانه شخص هام . ولقد صعقت لان دليلا يطلب اجرا .

وللمرة الثانية أمره القاضى بالوقوف ، واعترف جاستون بانه عرف فى المسـز ماريان السيدة التى زارت المزرعة يوم تشييع الجنازة .

فقال القاضى : ارايت انلك ذاكرة قوية فقد عرفت هذين الزوجين جيدا على الرغم من أنك لم ترهما الا لحظات قلائل منذ عامين ؟

فصاح جاستون ، وهو يشير الى الشـــاهدة باصبعه : اننى لم اطلب نقودا من احد .

فقالت المسـز ماريان : صحيح انه لم يطلب فعلا اية نقود، ولكنه أوضح بتصرفاته انه يتوقع الحصول على نقود .

وهنا لوح المتهم بقبضة يده نحو السيدة الواقفة فوق منصـة الشهود وصاح : انك كاذبة .

ووثب المحامون واقفين معترضين ملوحين بأيديهم ، فقال القاضى بصوت عال مطالبا بمراعاة النظام :

ــ اجلس يا دومينيكى انها لفضيحة حقا .

وبعد هذا الحادث المؤسف ، تعاقب كثيرون للادلاء بالشـهادة : « بانايوتو » رجل الأعمال اليونانى ، وأوليفيه ، ومختلف رجال الشرطة، وسائقا سيارتى نقل مرا بمسرح الجريمة بعد نحو سـاعة من ارتكاب الجرائم ، وايدت شهادتهما أن شخصا حـرك الجثث فى تلك الاثناء . وما كاد جاستون يرى حفيده «روجر بيرين» حتى ثارت ثائرته وصرخ :

– اننى اعرف انه لص · انه يصطاد فى غير الموسم أيضـا ·· ان لدى من الأسباب القوية ما يحملنى على الريبة فى أمره .

وأعقب ذلك جدل قانونى حول ما اذا كان من الضرورى مطالبة الشهود من أفراد اسرة دومينيكى بأداء القسم القانونى . واخيرا قرر القاضى انه لاضرورة لذلك لانهم لم يكونوا شهودا اجبـاريين ، بحـكم القانون الفرنسى .

وكان اول شاهد من اسرة دومينيكى يدلى بشهادته بلا قسم ، زوجة المتهم . مارى «السردينة العجوز» التى بلغت الخامسة والسبعين من عمرها .. وكانت ترتدى السواد وقد لفت شعرها الاشيب (بشال) اسود من ذلك الطراز الذى ترتديه الفلاحات وبدت محطمة متداعية . وقد تمسكت بالرواية التى سردتها على مسامع رجال الشرطة من انها لم تسمع شيئا طول الليل غير نبـاح الكلب حينما مر راكب الدراجة البخارية بالمنزل ، ومضت تقول انها كانت فى ساحة منزل المزرعة تجمع الخشب حينما جاء جوستاف وابلغها باكتشاف الجثث .

فسألها القاضى : الم تفكرى فى الذهاب لرؤية الفتاة الصغيرة، فان لك لأحفادا تحبينهم بلا شك ؟

فخفضت «مارى» من راسـها وأجابت : لا .. لم افكر فى ذلك مطلقا .

ومضت تقول لهيئة المحكمة : ان زوجهـا لم يعاملها يوما معاملة سيئة ، وانها لم تكن غير سعيدة معه مع أن زوجها سبق أن صرح بأنه لم يحبها . وقالت انه لم يكن ينقصها شيء ، بل لقد افتقدته حينمـا ذهب عنها .

وحينئذ سأل القاضى جاستون : هل لديك أسئلة تريد أن توجهها لزوجتك ؟ فسألها سؤالا واحدا :

– حينما ابصرتنى اعود للمنزل فى ذلك الصباح ، هل كانت على سراويلى بقع من الدم ؟

فأجابت مارى باخلاص : لا ، كانت سراويلك نظيفة جدا .

وجاء دور « ايفيت » زوجة جوستاف ، التى قالت انها كانت مع (حماتها) حينما جاء جوستاف الى ساحة المنزل وتحدث عن اليزابيث درموند التعسة .

سألها القاضي : هل جال بخاطر أى منكما الذهاب لمعرفة ما اذا كان في استطاعتكما أن تفعلا شيئا لمساعدة الفتاة الصغيرة التعسة ؟

فأجابت ايفيت بثبات : لا .

وهنا حان دور ولدى المتهم : كلوفيس وجوستاف .

سرد كلوفيس كيف انه لزم الصمت في بادىء الامر ، الا انه حينما قال رجال الشرطة له ان جوستاف اعترف لهم بأن جاستون صارحه بارتكاب جرائم القتل ، ايد فى النهاية حقيقة اعتراف ابيه ..

فسأله القاضي : وما زلت متمسكا بتأييداتك الآن ؟

فأجاب كلوفيس : نعم .

ـ يجب ان تدرك ما لتصريحك هذا من اثر . انني اعلم انك فى موقف مؤلم فحينما يتهم ابن اباه بمثل هذه الجريمة المروعة ، ينبغى ان يكون دائما تام الثقة بما يقول . ومن ثم فانى أسألك مرة أخرى . هل انت متمسك بتأكيداتك ؟

وتحول كلوفيس الى المحلفين بهدوء ، واجاب بلهجة رزينة : نعم ـ انني متمسك بها .

وكانت الرواية ، التى سردها جوستاف فى موقف الشاهد ، مختلفة الآن اختلافا تاما عما قال كلوفيس .. قال :

ـ ان أبى برىء . انه لم يقتل الانجليز .

فقاطعه كلوفيس : أبى مذنب ، واقسم على ذلك . انه القاتل .. لقد قال لى ذلك .

فصاح جاستون : ايها الوغد الكاذب .

وصاح كلوفيس بدوره : انها الحقيقة !

فمضى جاستون يقول : أيها اللص التعس .

فصاح كلوفيس : لقد كنت لصا ، قبلما اكون انا لصا !

فصرخ جاستون من قفص الاتهام : كاذب !! كاذب !! كاذب !!

وفى تلك اللحظة وثب كيلات ، احد ازواج بنات جاستون ، واقفا

وامسك بجاستون من ياقة سترته وهزه بعنف وصاح : انظر الى ٠٠ انك تعرف كل شيء عن البندقية .

وقاطعه المتهم : ان كلوفيس كاذب. لقد اصلح البندقية ، ووضع شريطا معدنيا حولها .

ثم تحول الى ابنه الاكبر ، الذى ظل واقفا فى قفص الشهود . وهتف :

ـ انك تعلم من اين جاءت البندقية ٠٠ فقل الصدق مرة فى حياتك٠

ولم يستطع جوستاف التعس أن يقول أكثر مما يلى : انى لا أعلم شيئا ، ان أبى برىء ٠ وهذا كل ما أعلمه ٠

وحينما غادر جوستاف قفص الشهود ، تصاعدت فى قاعةالمحكمة صيحات المستمعين :

ـ أيها الوغد .

واختلط الحابل بالنابل ، وصاح المتهم بأعلى صوته : البندقية ! البندقية ! سأخبركم اين كانت البندقية فعلا ، ولكن هـذا السؤال عن مكان البندقية لم يحل ، لان القاضى قرر فى تلك اللحظة الحاسمة أنه من مصلحة النظام العام أن يرفع الجلسة .

ـ ٥ ـ

لم يبق شيء بعد ذلك فى هذه المحاكمة غير العادية غير الاستماع لمختلف المرافعات : ولكن قبل القـاء هذه المرافعات النهائية ، حدثت مصادمات بين المتهم وابنه ، كما استدعى بعض أفراد اسرة دومينيكى للادلاء بشهاداتهم ، ولكن ذلك لم يؤد الى ظهور أية حقـائق جديدة ٠ وكان آخر من ادلى بشهادته ابن اخى المتهم ، واسمه ليون دومينيكى الذى رباه جاستون العجوز ٠

قال هذا الشاهد : من رأيى أن عمى لا يستطيع ارتكاب مثل هذه الجريمة .

وقال المحامى « ديلادم » للمحلفين ، بالانابة عن ورثة درموند :

ـ أرجو أن تعيدوا السلام الى ضفاف نهر ديورانس ، التى لطخت بدم اسرة درموند .

وهتف : ان من واجبكم ادانة هذا الرجل الذى اعترف اكثر من مرة بأنه ارتكب الجريمة المثلثة .

وتردد صدى هذه الكلمات فى المرافعة القوية التى ألقاها الاتهام ، حينما قال :

— ان الاتهام الذى يوجهه ضد جاستون دومينيكى هو انه تصرف كوحش لحظة واحدة فى حياته .

وسخف الاتهام الاقتراح « الخيالى » بأن للجريمة صلة بحركة المقاومة ، أو بأعمال رجال المخابرات ، وقال : انها جريمة اقترفها جاستون دومينيكى وحده ، وهو رجل قوى الشكيمة استطاع انتزاع الطاعة والخوف من كل فرد فى اسرته تقريبا .. ومضى الاتهام يقترح أن السير جاك درموند ما كاد يرى شبح المتهم فى ضوء القمر وهو يحمل بندقيته حتى أخطأ فظنه لصا ، فانقض عليه وحاول انتزاع البندقية منه . لست أعلم كم عدد الرصاصات التى أطلقت وكل ما أعلمه انه فى تلك الليلة ان رجلا ليس من هذه البلاد ظن أن رجلا آخر لص ، وأن الرجل الآخر لم يفهم أن الأول كان مذعورا . ثم اطلقت الرصاصة الاولى واعقب ذلك ما تعرفونه « لقد قتل الزوجان درموند وطوردت ابنتهما وقتلت (بدبشك) البندقية . ولعله يمكن تبرير قتل اثنين من البالغين فى ثورة غضب ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يغفر له قتل طفلة صغيرة .

وختم الاتهام مرافعته قائلا : كما أن جاستون دومينيكى لم يبد أية شفقة نحو الطفلة الانجليزية ، فانني اطالبكم بألا تبدو اية شفقة نحوه .

ونهض الدفاع ، وحذر المحلفين من أن ينخدعوا بنظرية الاتهام التافهة . ثم تحدث عن الوحشية التى قتلت بها اليزابيث درموند .

فقال : لو جال بخاطرى لحظة ان المتهم هو الذى ارتكب هذه الجريمة النكرة لما قبلت الدفاع عنه .

واستند الدفاع عن المتهم الى ثلاث نقاط فى دفاعه هى : انعدام الدافع ، والتحقيق الأولى الذى أجراه رجال الشرطة مع المتهم واستمر ثلاثا وعشرين ساعة ، وكراهية اسرة دومينيكى لعميدها . ومرة أخرى ناشد الدفاع «ايفيت» وجوستاف أن يتقدما ويقولا الصدق . قال :

ـ بحق الرحمــة يا جوستاف ، اذا كنت مجـرما فتكلم . فاذا فصلت سكين المقصلة راس ابيك فى أحد الأيام فلسوف يجمد الدم الذى يجرى الآن فى عروقك .. اذا كنت تعرف شيئا ياجوستاف فتقدم وقله.

ولكن ايفيت وجوستاف بقيا على جمودهما .. فاستطرد الدفاع:

ـ ايها السادة المحلفون . هل ستطالبون بحيــاة هذا الكهل لأن الحيوانات الضارية ترفض الكلام ؟ ان هذا الكهل جاهد طوال حياته لتربية اولاده تربية صحيحة ، فاذا كان لديكم أى شك فدعوه يفيــد من هذا الشك . احذروا من التردى فى هاوية الظلم لأن هذا افظع شيء فى العالم . لا تكونوا شركاء لاولئك الذين حاولوا القاء ابيهم الى التهلكة والموت .

وسأل القاضى المتهم : هل تريد أن تقول شــيئا . فقال هــذا باقتضاب :

ـ لقد انقضى على عام وأنا فى السجن.. اننى لست قاتلا ، ولكننى رجل صريح ومخلص .. اننى برىء .

وعلى اثر ذلك اختلى المحلفون للمداولة ..

وصدر قرارهم بادانة المتهم فى الاتهامات الثلاثة .

وحينئذ نطق القاضى بالحكم على المتهم بالاعدام بالمقصلة .

واستمع المتهم للحكم فى جمود وحينما كان يغادر قاعة المحكمــة تحت الحراسة وقع بصره على ابنه كلوفيس فصاح : ايها الكلب القذر.

فتحول كلوفيس الى مراسلى الصحف وقال : أن ابى مذنب ، ولن أتراجع فيما قلت .

ولكن وزارة الداخلية الفرنســية أوقفت تنفيذ الحكم على المتهم واستبدلت به الأشغال الشاقة المؤبدة .

وفى يوليو ١٩٦٠ ، وبعد أن قضى جاستون دومينيكى ست سنوات فى السجن أفرج عنه لكبر السن ، اذ كان قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر فى ذلك الوقت .

وظل جاستون دومينيكى مصرا على براءته، وحاول اعادة التحقيق فى القضية ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح .

الفصل الثامن

مازوركفتش ـ غلام كراكاو العابث

- ١ -

كان فلاديسلاو مازوركفتش بولنديا احترف القتل على نطاق واسع نسبيا ، وقد ارتكب مجموعة منوعه من الجرائم الاخرى تتراوح بين السرقة والتزييف والاتجار في السوق السوداء • وبعد انقضاء ثلاثة عشر عاما على ارتكابه جريمته الاولى ، وعام على ارتكابه آخر جرائمه قدم أخيرا للمحاكمة أمام محكمة كراكاو • ولقد اكسبت طبيعة جرائمه ومداها وغيرها من الاعمال الاجرامية الاخرى محاكمته شهرة واسعة جاوزت حدود بلاده بولندا •

وكان « فلاديسلاو » حسن الهيئة في الثامنة والاربعين من العمر وكان ضابطا سابقا ، متزوجا • وحينما بدأت محاكمته اعترف بأنه مذنب في قائمة الجرائم المطولة التي سجلت ضده واشتملت على ست جرائم قتل ، وشروعين في قتل ، وكان هذا المجرم يتصف بالقسوة والعنف اللذين اتصف بهما من تعاملوا مع المحتلين الالمان في أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولهذا لم يتهيب الاعتراف بأنه قتل وسرق للكسب ، ومع ذلك فقد قال متباهيا انه لم يرتكب أية جريمة ضد وطنه بولندا وحاول تبرير سلوكه بأن ضحاياه كانوا جميعا أعداء المجتمع ، ولهذا فان في موتهم خيرا للبلاد •

انحدر مازور كفتش من أسرة محترمة ، وتلقى تعليما حسنا ، ومن المحقق أنه كان على صلات اجتماعية حسنة استغلها في الاستغلال في حياته الاجرامية • وحينما غزا الالمان بولندا في شهر سبتمبر ١٩٣٩ كان مازوركفتش ضابطا احتياطيا في الجيش الالماني ، فاستدعى للخدمة العسكرية مع مئات غيره ولكنه سرعان ما تمكن من الافلات من هذه الخدمة

حينما ادعى أنه مريض بالتهاب في الحنجرة ٠ ومنذ ذلك الحين وهو يتردد على مقاهى كراكاد ونواديها الليلية حيث اشـــتهر باسم « الكابتن » ، ومالبث أن تورط فى سلسلة من عمليـــات النقد غير المشروعة ، وزيف « شهادة عمل » جاء فيها أنه يعمل حلاقا فى القيادة العامة «للجستابو» بكراكاو ، وقد حصل على هذه الشهادة بمعاونة ضابط من «الجستابو» كان قد اشترك معه فى بعض صفقات السوق السوداء ، وكانت هذه الشهادة بمثابة جواز أمن أتاح له العمل كمتجر فى السوق السوداء من غير تدخل من جانب سلطات الاحتلال ، وكان الى جانب عبثه واستهتاره مقـــامرا خطرا ٠ فقد خسر فى جلسة «بوكر» واحدة ٥٠٠ جنيه انجليزى بفندق كراكاو ٠

وفى مارس ١٩٤٣ ارتكب أولى جرائمه الخطيرة حينما حاول أن يقتل شخصا اسمه تاديوز برومر ، كان مختبئا من النازى ، وذلك بأن قدم له (سندويتشا) مطعما « بسيانيد البوتاسيوم » الا أنه من حسن حظ هذا الضحية ـ وكان معه ٢٠٠ دولار طمع مازوركفتش فيها ـ انه ماكاد يقضم لقمة صغيرة حتى أدرك أن السندويتش مسمم فبادر بتناول ترياق أنقذ حياته ٠ أما جريمته التالية فكان ضحيتها رجل اسمه فيكتور زارزكى ، وكان معه ١٢٠٠ دولار ، وقد نجح مازوركفتش فى قتله بأن قدم له قدحا من الشاى محتويا على محلول قوى من السيانيد ، وشرب زارزكى من هذا السم قدرا يكفى للقضاء عليه ٠

وكان مازوركفتش يملك سيارة ومسدسا فى ذلك الحين ٠ فلم يتردد فى استخدامهما لتحقيق مآربه ٠ ففى شهر يوليو ١٩٤٥ ، وبعد تحرير بولندا ، استصحب شخصا اسمه فلاديسلاو برابلسكى فى نزهة بسيارته، لابرام صفقة نقد ، وفى أثنـــاء الرحلة أطلق رصاصـــة على مؤخر رأس برابلسكى أردته قتيلا ، ثم ألقى بجثته فى نهر فستولا بعد أن جرده من مائتى دولار كان يحملها ٠

وبعد ذلك بثلاثة شهور ، أحاق المصير نفسه بجوزيف توماسفيسكى وحصل مازوركفتش من وراء جريمته هذه على ٢٢٥ر٠٠٠ زلوتايس ، وفى هذه المرة ، واجه مازوركفتش متاعب ، ففى أثناء عودته من مسرح الجريمة التى بالجثة فى أحد الحقـــول ، ولكنه ضل طريقه وسقط بسيارته فى حفرة ، واتفق مرور أحد المزارعين ، فساعد مازوركفتش فى اخراج سيارته الى الطريق ٠ ولكن المزارع لاحظ وجود بعض بقع دموية على سلم السيارة،

فساورته ، هو وعابر سبيل آخر ، الريبة فى الامر فالتقطا رقم السيارة وأبلغا الامر للشرطة ٠

واستدعى رجال الشرطة مازوركفتش وطالبوه بتفسير ، ومع انه ألقى القبض عليه فانه استطاع الافلات من توجيه أى اتهام رسمى اليه ، اذ أقنع امرأة اسمها « اجنيزبسكاريس » بأن تقسم أنها كانت معه فى سيارة وقت مقتل توماسفيسكى ، وانهما كانا فى طريقهما لزيارة أحد الاديرة ، وأيد شاهد مزيف آخر ، هو الاب بوتوكرناى هذه الرواية ٠ وعلاوة على ذلك فان الضابط الذى حقق القضية ، الكابتن جاسكو ، كان صديقا للمتهم ، وقد أجرى التحقيق معه بين زجاجات « الفودكا » التى دفع مازوركفتش ثمنها ، وأخيرا قرر ضابط الشرطة المرتشى انه لاوجه لاقامة الدعوى ضد مازوركفتش فأطلق سراحه ٠

وما لبث مازوركفتش أن عاد الى مهنته القديمة ٠ ففى مايو ١٩٤٦ قتل شخصا اسمه جرزى دى لافوه ، بعد أن جرده أولا من خاتم خطوبته الذهبى وساعته و ١٠٠٠ دولار ٠ كانت معه ، والقيت الجثة والمسدس الذى ارتكبت به الجريمة فى نهر الفستولا ٠

وبعد ذلك بعدة أعوام ، أى فى عام ١٩٥٤ ، طلبت أرملة دى لافوه ـ التى كانت تعلم أن مازوركفتش شريك لزوجها فى صفقـــات الســـوق السوداء ولكنها كانت تجهل أنه قاتله ـ من مازوركفتش العناية بمبلـغ ٦٣٥ دولارا كانت معها وحليها ، اذ يبدو أنها كانت جزءا من صفقة سوق سوداء ، وان السيدة كانت تخشى تفتيش رجال الشرطة لمسكنها حيث كانت تعيش مع أختها ، فيصادرون هذه الاشياء ٠

ووافق مازوركفتش ، ولكن رواج السوق السوداء كان قد بدأ فى الفتور فى تلك الفترة نظرا لتوافر السلع فى الحوانيت ، وحرص الشرطة على تطبيق القانون ٠ ومهما يكن من أمر ، فقـــد بدأ مازوركفتش ينفق النقود ، كما باع الحلى وأنفق الجميع فى احتيـــاجاته اليومية ، وحينما سألته مدام دى لافوه أن يعيد لها نقودها وحليها دعاها الى حظيرة سيارته مدعيا انه أخفى النقود والحلى هناك ٠ وبمجرد وصولها ، أخرج مسدسه وأطلقه على مؤخر رأسها فقتلها ، ثم دفن جثتها فى حفرة كان قد أعدها تحت الارض ٠ وبعد ســـاعات قليلة جاءت أخت مدام دى لافوه ، وكان اسمهـــا صوفيا سكوفا ، وكانت تعلم بأمر صفقات الاسرة فى السوق السوداء ٠٠ جاءت الى الحظيرة لترى ما حدث لاختها فقتلها المجرم أيضـا

ودفنها بجانب أختها ، ثم صب على الجثتين مقدارا من الاسمنت المسلح ٠ وبعد ذلك سطا على مسكن الاخت وسرق ما خف حمله وغلا ثمنه ٠

وأخيرا جاءت الجريمة التى قضت على مازوركفتش ، فقد طلب من متجر آخر فى السوق السوداء ، اسمه ستافسلاو لويوزفسكى ، أن يرافقه بسيارته الى الجبال القريبة من كراكاو ، للتحدث فى صفقة ساعات ذهبية وحين عودتهما ، وكانت السيارة تسير فى معبر غير مطروق ، أوقف مازوركفتش السيارة وكان رفيقه نائما فى مقعدها الخلفى، ولذلك لجأ المجرم الى طريقته المفضلة وهي « تصفية » منحية مرتقبة ، فأطلق الرصاص على مؤخر رأسه ٠ ولكن المحاولة فشلت هذه المرة لان الرصاصة استقرت فى جمجمة لويوزفسكى ٠ ومن العجيب انها لم تقتله بل لم تعجزه وكان من الطبيعي ألا يدرك لوبوزنسكى أن الرصاص أطلق عليه ، ولو ان صوت الطلق افزعه كما أحس بشىء يؤلمه فى مؤخر رأسه ٠ وادعى مازوركفتش أنه أطلق صاروخا صينيا على سبيل المزاح ٠ وظن لويوزفسكى ان الامر لا يعدو جرحا سطحيا فرافق مازوركفتش الى كراكاو حيث ذهب الى أحد المستشفيات فحقنوه بمصل مضاد للتيتانوس ٠

وكان لوبوزفسكى يقيم فى وارسو ، وأصر على المضى فى رحلته الى هناك ، وشجعه مازوركفتش على ذلك ظنا منه أنه لن يصل الى منزله حيا ، ولكن ضحيته لم يفعل ذلك فحسب ، وانما راح يؤدى أيضا أعماله العادية لعدة أيام ، وأخيرا شكا من صداع شديد وذهب الى المستشفى لاجراء فحص بالاشعة ، وشد ما كانت دهشة الطبيب حينما كشفت الاشعة عن وجود رصاصة محشورة فى قاع الجمجمة ، واستخرجت هذه الرصاصة وعرضت على المريض الذى بهت بدوره ٠

وما ان اكتشف مازوركفتش حقيقة ما حدث حتى بعث بمحاميه الى لوبوزفسكى ، وكان المحامى من الاشخاص الذين تحيط بهم الريبة ، وهو بعينه المحامى الذى ساعد مازوركفتش فى الاجراءات العقيمة التى اتخذت ضده بعد مقتل توماسفسكى قبل ذلك بعشرة أعوام ٠ ونصح المحامى لوبوزفسكى بالتزام الصمت لمصلحته والا فان أى اجراء قانونى سيتخذ سوف يكشف للشعب عن نشاطه غير المشروع فى السوق السوداء ٠

ولكن لوبوزفسكى رفض الاذعان لهذا التهديد ، وابلغ الشرطة . فالقى القبض على مازوركفتش وفى هذه المرة لم يفرج عن مازوركفتش الا حينما أحاط الجلاد عنقه بحبل المشنقة ٠

- ٢ -

أثارت محاكمة مازوركفتش اهتماما كبيرا فى طول البلاد وعرضها ، فخصصت الصحافة البولندية الشيوعية ثمانين مراسلا لحضور المحاكمة ؛ كما خصصت لها أعمدة مستقلة • ولقد دفع بعض المتفرجين مبالغ كبيرة وصل بعضها الى ما يعادل مرتب عامل لمدة ثلاثة شـــهور ، لدخول قاعة المحكمة المكتظة • وكلما تقدمت المحاكمة زاد تدفق سيل الشكاوى التى تلقتها السلطات والتى يتهم فيها مرسلوها مازوركفتش بأنه مسئول عن خمسين جريمة قتل أخرى لم تكتشف حقيقتها ، بالاضافة الى جرائم القتل الست التى اشتملت عليها قائمة الاتهام • فقـــال المتهم معقبا على ذلك بتواضع « ان الناس ينسبون الى أشياء كثيرة ، ولكننى لم أرتكب غير ثمانى جرائم قتل ولذلك أرجو تصحيح الامور »

ولم يبد مازوركفتش أى ندم على ما اقترفته يداه من جرائم ؛ وكان موقفه طوال الاربعة عشر يوما ، التى استغرقتها المحاكمة ، يوصف بعدم المبالاة • فبعد أن قرأ الكاتب للمحلفين الاقوال التى أدلى المتهم بها فى أثناء التحقيقات التى أجريت قبل المحاكمة ، واعترف المتهم فيهـــا بجرائمه ، اعترف الدفاع بأن موكله كان يعانى من مرض انشطار الشخصية ، وأنه غير مسئول عن أعماله ، فرد الاتهام على ذلك معارضا وقال « ان المتهم كان متمتعا بكامل قواه العقلية طول الوقت ، فأيدته المحكمة فى قوله» • والواقع أن رأى الاتهام قد تأيد بسبب رسالة كتبها مازوركفتش حديثا وهو فى السجن الى صديق ، وقال فيهـــا : « اننى مازلت بصحة جيدة ، ولكننى أعانى فقط من آلام بذراعى ، وأكبر ظنى اننى أصبت بالروماتيزم لتقدم سنى ، لكن لا تصدق الروايات السخيفة التى تردد عن اعتلال صحتى فاننى فى حالة طبيعية » •

وكان أول شاهد « تاديوز برومر » ، وهو ضابط سابق بالمدفعية ، حاول مازوركفتش قتله بالسم سنة ١٩٤٣ ولكنه لم ينجح فى محاولته •• قال للمحكمة : انه رافق السجين الى قرية صغيرة بالقرب من كراكاو بغية اتمام بعض أعمال مع السجين أدت الى ضياع ٢٠٠ دولار من الشاهد • ومضى يشرح كيف أن مازوركفتش قدم له (ساندويتشا) قضم منه جزءا صغيرا ، وفى الحال شعر بدوار غريب فركض الى أقرب مزرعة حيث قدم له أحد المزارعين عدة أكواب من اللبن ، وبهذا أفلت من الموت بمعجزة ؛ ونظرا لان النازى كانوا يطاردونه فقـــد كان يعيش تحت اسم مستعار ، ولذلك فانه لم يجرؤ على شكوى المتهم بمحاولة قتله فى ذلك الحين ، وقد

خطر له بعد التحرير أنه قد يصعب عليه الابلاغ عن الجريمة نظرا لانقضاء وقت طويل على ارتكابهـــا ، ولانه ظن أن مازوركفتش ينتمى الى الشرطة السرية البولندية الرهيبة ، ولذلك لم يفعل شيئا ٠

وكانت الشاهدة الثانية سيدة « مالجورزاتا بيلانسكا » وهى زوجة سابقة لرجل اسمه ستانسلاوكورتا ٠ قالت «ان منزل أسرتها كان فى أثناء الاحتلال الالمانى — وكرا للمقامرة يتردد عليه كثيرون من بينهم السجين ، وفيكتور زرزكى ، وكان الاخير يخسر باستمرار ، وانها تذكر انه اقترض ذات ليلة مبلغا كبيرا من النقود من عدة أصدقاء ثم انصرف ٠ ولكنه لم يعد ثانية كما انها لم تره بعد ذلك ٠

وقال الشاهد التالى فرانسيز جرابوفسكى ، انه كان جارا للمتهم ، وذكر أن مازوركفتش كان دائمـــا مهذبا معاونا ، وكثيرا ما كان يبتاع الحلوى للاطفال المحليين ٠

وأضاف ان المتهم لم يقسم أبدا ، كما انه لم يكن سكيرا عربيدا ، ولم يكن يبدو عليه أى شىء يدل على أنه مجرم أو قاتل ، ومع ذلك فقد بدأ الناس يرهبون هذا الجار الودود ، وبالاخص بعد أن اكتنفته الريبة فى حادث مقتل جوزيف توماسفسكى ٠ الا أن أحدا لم يحرك ساكنا لابلاغ السلطات عنه ، نظرا لما كان يبدو من أن جميع أصدقائه ومعارفه كانوا متورطين فى معاملات بالسوق السوداء ، ولهذا رأى الجميع أنه من الخير لهم التزام الصمت التام ٠

ولم يستطع المزارع الذى ساعد مازوركفتش فى اخراج سيارته من الحفرة ورأى بقع الدم على سلم السيارة ، ولا الكثيرون غيره الذين كانوا موجودين عند مسرح الجريمة فى ذلك الوقت ، الجزم بأن مازوركفتش كان قائد هذه السيارة ٠ الا انه كان من حسن الحظ أن اثنين منهم التقطا رقم السيارة وابلغاه للشرطة فى الوقت المناسب ٠ وشهدت فلاحة بأنهـــا جمعت بضع قصاصات من الورق ألقيت من النافذة وقد ســـاعدت هذه القصاصات فى التعرف على شخصية القتيل توماسفسكى ٠

أما الشـابة ابنزسكاريس ، التى جعلهـــا المتهم تروى قصة مزيفة تثبت براءته ، فقد تقدمت للمحكمة للادلاء بشهادتها ، فروت كيف انها ذهبت مع مازوركفتش فى سيارته مرتين الى دير اسمه « الورينا » لشراء تفاح ، وبعد اكتشاف جثة توماسفسكى بوقت قصير جاءها مازوركفتش وطلب اليها أن تقول — اذا دعت الضرورة لذلك — ان من بين الايام التى

ذهبا فيها معا الى الدير يوم ٢٥ اكتوبر ١٩٥٣ ، ونظرا لانها لم تستطع أن تذكر تواريخ الرحلات بالدقة ، فقد وافقت • وقد تأيدت هذه المناشدة بزيارة قامت بها زوجة المتهم ، هيلينا مازوركفتش لها ، وقالت الشاهدة ان زوجها كان في يوم وقوع هذه الجريمة ـ في طريقه الى القيادة العامة السرية للحركة البولندية السرية ومعه أوراق هامة ، وانه من المهم جدا أن تقول الآنسة ريس انها كانت مع مازوركفتش في ذلك اليوم ، والا فمن المحقق أن يقبض على عدد من مقاتلي حركة المقاومة مع زوجها • ونظرا لان الشاهدة نفسها كانت عضوا في حركة المقاومة فقد وافقت على أن تفعل ماطلب منها • وفعلا أدلت بالشهادة التي طلبت منها في أثناء التحقيق الذي أجرى عقب مقتل توماسفسكي • واضافت الشاهدة أنها فعلت ذلك بحسن نية مع ادراكها بأن ما فعلته كان خطأ فاحشا ، وانها شعرت بأسف عميق لذلك •

وأدى نظر الاتهامات الخاصة بمقتل جرزي دي لافوه وزوجته وأخت زوجته الى الاستماع لشهادة عدة شهود آخرين اذهلت أقوالهم المحكمة ، فقد ألقى أخو القتيل ضوءا هاما على الكيفية التي كان الناس يعيشون بها في كراكاو في ظل الاحتلال الالماني • ووصف الاثاث العتيق الذي كان موجودا في منزل أخيه وقال ان جرزي دي لافوه وزوجته كانا يعيشان عيشة بذخ واسراف ، وقال انه يذكر انه رأى هناك ذات مرة ماسة كبيرة وعدة قضبان ذهبية الى جانب كمية كبيرة من أوراق نقد الدولارات من فئة ١٠٠٠ و ٥٠٠ دولار • وبعد اختفاء أخيه لم تبذل أية محاولة جادة للعثور عليه •

ووصف صديق للأسرة كيف ان مازوركفتش كان يغازل مدام دي لافوه ، وكيف انه كان يصحبها في سيارته للنزهة في الريف والاستماع للأغاني الريفية • وقالت أخت أخرى ، هي جوستافا سوبولفسكي ان مازوركفتش قال لها ان أختها ـ كزوج اختها ـ اضطرت للسفر للخارج فجأة • فأجابته ، كيف يمكن أن ترحل أختي للخارج على هذا النحو ؟ ان الغسيل ما زال منشورا فوق الحبل ، والغلاية معدة للغليان فوق الموقد » •

وقالت احدى الجارات ، واسمها أنا أوليكوا ، انها سمعت أن مازوركفتش من كبار رجال الشرطة السرية ، وكانت تعرف أنه يحتفظ بنفائس معينة من بينها بعض الماسات مخبأة في أنبوبة معجون أسنان ، وأنه رفض أن يعيدها الى مدام دي لافوه حينما طلبت استردادها • وقالت

الشاهدة للمحكمة ان الشرطة سألتها عن السيدة المختفية وان مازوركفتش زارها بعد ذلك ليعرف منها ما قالته للمحققين ، وأنها لاحظت فى أثناء هذه المقابلة انه كان مضطربا ٠

وفى اليوم الثامن من المحاكمة حدثت ضجة كبرى فى قاعة المحاكمة حينما تقدم ستانسلاو لوبوزفسكى المعروف بـ «الرجل الذى خدع الموت» وهو فى السادسة والثلاثين من عمره وظل يحمل رصاصة فى جمجمته مدة اثنتين وسبعين ساعة ، لرواية قصته المدهشة ٠٠

قال انه قابل المتهم لأول مرة فى وارسو عن طريق بعض الأصدقاء ٠ وذكر له مازوركفتش فى هذه المناسبة أن صديقا بحارا أحضر معه من الخارج عددا كبيرا من الساعات الذهبية تقدر قيمتها بنحو ثلاثة آلاف جنيه استرلينى ٠ وقال لوبوزفسكى : انه اهتم بالأمر وأبدى رغبته فى شراء الساعات ، ولكنه لم يكن مستطيعا حينذاك أن يدفع أكثر من خمسمائة جنيه استرلينى ، وحينئذ ادعى مازوركفتش أن الساعات موجودة عند أخت البحار فى كراكاو ، ودعا لوبوزفسكى للمجىء الى كراكاو ومقابلته هناك ٠

وسافر لوبوزفسكى الى كراكاو ، وذهب لمقابلة السجين ، وعهد اليه بالمبلغ لأنه كان يخشى حمل مثل هذا المبلغ الكبير فى جيوبه ٠ وذهب مازوركفتش للبحث عن أخت البحار ولكنه فشل فى العثور عليها ، وهو أمر ليس بالمستغرب لأنها كانت شخصية خيالية ٠ وفى تلك الأثناء ، طلب مازوركفتش من ضيفه النوم على سرير رحلات فى حظيرة السيارة ، وحاول التخلص منه فى أثناء الليل ٠ فقد استيقظ لوبوزتسكى فجأة على صوت عال ٠ وحينما فتح عينيه رأى مازوركفتش واقفا بالقرب منه ، وصرح له مضيفه بأن عابر سبيل ألقى نوعا من الصواريخ الصينية فى الحظيرة (الجراج) ، بل انه أراه بعض أجزاء من علبة كرتون محترقة قال انها جزء من الصاروخ الصينى ، وفى اليوم التالى دعا مازوركفتش ضيفه للذهاب فى رحلة بالسيارة الى الجبال الواقعة جنوب كراكاو ، وأنهما ذهبا معا الى زاكوبين ، وهى مصيف جبلى معروف ٠ وفى أثناء الرحلة تولى لوبوزنسكى القيادة ، ونظرا لأنه كان قائدا ممتازا فقد قال له مازوركفتش « انك رجل شجاع ، فلعلى اضطر الى ادخال الفزع فى قلبك ثانية باستخدام صاروخ صينى » ٠

وحينما نزل الاثنان فى فندق زابوكين احتسيا مقادير كبيرة من الخمر ، ثم كرا عائدين الى كراكاو فى المساء ٠ ونام لوبوزنسكى فى المقعد

الخلفي للسيارة وللمرة الثانية استيقظ على صوت فرقعة عالية ، وفي هذه المرة نجح مازوركفتش في اصابة رأسه ، وحينما تبين انه أصيب بجرح بسيط في رأسه ،قال له مازوركفتش انه أطلق صاروخا صينيا على سبيل المزاح · واذ أدرك الشاهد أن شيئا غير عادي يحدث ، ولو أنه لم ير شيئا عن الحادث نفسه ، أمر مازوركفتش بايقاف السيارة ، وجلس هو الى عجلة القيادة وقاد السيارة الى الحظيرة في كراكاو ·

وحين عودتهما حاول مازوركفتش الاسراع بالرحيل بدعوى أن حياته في خطر · وحينما ضغط عليه الشاهد ليتكلم انفجر باكيا واعترف بأن قصة الساعات مختلقة من أساسها ، وأنه اقترض نقود لوبوزنسكي للتغلب على بعض مصاعبه المالية وكان رأس لوبوزنسكي قد بدأ يؤلمه في ذلك الوقت ، فطلب من مازوركفتش أن يذهب به الى أحد المستشفيات حيث يعرف طبيبا هناك . ولكن الطبيب كان بالخارج حينما وصلا الى المستشفى ، ولذلك ذهب لوبوزنسكي الى العيادة الخارجية حيث ضمدوا له الجرح وأعطوه حقنة مضادة للتيتانوس · وبعدئذ اقترح لوبوزنسكي أن يقود السيارة بنفسه الى وارسو مصرا على الاستيلاء على ضمان لنقوده التي اقترضها مازوركفتش · ونظرا لأن مازوركفتش كان يعتقد أن أي شخص في مثل حالة الشاهد لا يمكن أن يتمكن من الوصول الى وارسو وهو على قيد الحياة فانه لم يبذل أية محاولة لاستبقاء لوبوزنسكي ·

ولكن الجريح استطاع الوصول الى وارسو · أما ما حدث بعد عودته فسبق أن ذكرناه ، فقد استخرجت الرصاصة التي كشفت عنها الأشعة بنجاح من جمجمته وقبض على مازوركفتش متهما بالشروع في القتل ·

- ٣ -

وحينما أشرفت المحاكمة على الانتهاء استدعى الاتهام طبيب الأمراض العقلية ، كارول سبت ، كخبير شاهد · ومع أنه اعترف بأن جميع شهود الاتهام شهدوا بأن السجين رجل عادي العقل وبالتالي مسئول عن أعماله ، الا أنه اقترح سؤال أفراد آخرين من أسرة المتهم وأصدقائه عن رأيهم في المتهم ·· ووافقت المحكمة على طلب الاتهام ·

ولقد بدا أن كلا من والد السجين وزوجة أبيه يعتبران المتهم شخصا غير عادي بسبب طفولته غير المستقرة ، وما كان لجنون أمه من تأثير عليه · فحينما كان في العاشرة من عمره هربت أمه مع رجل آخر وطلقت من

أبيه ، الا أنها انتحرت غداة زواجها الثانى لاسباب غير معروفة وذلك بأن شربت سما • وقالت زوجة أب المتهم ان مازوركفتش كان غلاما صعبا عند تربيته ، اذ كان يكثر من الكذب • وكانت تقارير دراسته سيئة ، وكانت قراءاته المحببة روايات الجيب •

ومن ناحية أخرى تحدثت أخته عن المساعدة المالية التى اعتاد تقديمها لأسرته فى أثناء الاحتلال الالمانى حتى لقد اعتبرته زوج أبيه زوجا مثاليا لابنتها ، وبعد الافراج عنه فى قضية نوماستيسكى أقام حفلا لأقارب الميت ـ وأضافت الشاهدة أنها لا تعتقد ان شخصا مذنبا يمكن أن يفعل ذلك •

وقال شاهد آخر ، هو الدكتور تونونبسكى ، وكان يقيم فى شقة واحدة مع المتهم ، انه لم يكن هناك أى شذوذ أو غرابة فى سلوك مازوركفتش ، وانما كان دائما رجلا جادا متزن العقل ليس فى تصرفاته أى شذوذ •

الا أنه اعترف بأن مازوركفتش كان كثيرا ما يتغيب شهورا فى أماكن مثل زاكوبين وسوبوت على شاطىء بحر البلطيق ، وكان يدعى أنه يذهب الى هذه الاماكن لشراء قطع غيار لصفقات السيارات التى يبرمها •

وعلى أثر انتهاء الشهادات سأل القاضى السجين : هل لديك ما تريد أن تقوله ؟ وشد ما كانت دهشة الجميع حينما أعلن المتهم أنه يريد سحب اعترافه بأنه مذنب لانه غير مذنب ، وقال انه وقع الاعتراف بالجرائم التى اتهم بارتكابها لانهم قالوا له انه اذا لم يوقع الاعتراف فانه سيقدم للمحاكمة ، على كل حال ، على أساس الأدلة الملابسة الموجودة ضده ، وفى هذه الحالة سوف تمس المحاكمة أشخاصا آخرين ومن بينهم زوجته وأخته • ومضى يقول « ان كل هذه الأقوال خيالية ، لقد كتبتها لأننى فهمت أن الاعتراف الذى انطوت عليه سيجعل الأمور أقل تعقيدا بالنسبة لى » • وختم المتهم كلامه بانكار ذنبه بقوة ، وكرر أنه لم يقتل أحدا فى حياته كلها •

ونهض الاتهام وطالب برأس المتهم ، ولكن الدفاع قال ان بولندا تنظر موضوع الغاء عقوبة الاعدام ، وأنه يحسن بالمحكمة أن تكون البادئة بضرب المثل للمحاكم الأخرى لانهاء تطبيق هذه العقوبة •

ولكن المحكمة لم تأخذ برأى الدفاع ، وأدانت المتهم فى جميع الاتهامات التى وجهت له وحكمت باعدامه •

الفصل التاسع

القواد والبغى

١ ـ الفريدو مسينا فى لندن

ـ ١ ـ

عندما كتب برناردشو تمثيليته « الكريهة » حول موضوع الدعارة « مهنة مسز وارن » حوالى نهاية القرن الماضى ، كان يسعى للفت الأنظار الى شر اجتماعى أطلق عليه انه أقدم مهنة فى العالم .. ففى مكان ما من خلفية الصورة يوجد دائما شخص مخيف يعمل « حاميا » للبغى ، ينظم لها عملها ويستولى على كسبها ولا يقدم لها منه غير ما يمكنهـــا من شراء ثيابها وطعامها ودفع ايجار غرفتها أو « ماخورها » بلغة البغايا العامية ، وهو المكان الذى تأخذ اليه عملاءها .. ويعيش « الحامى » عادة مع البغى، الا انه اذا لم يشاركها « ماخورها » ـ وهو ما يحرص دائما على الا يفعله فانه ـ برغم صرامةالقانون الانجليزى فى بعض النواحى المتعلقة بالدعارة ـ من الصعب جدا اثبات انه يعيش كلية أو جزئيا من كسبها كبغى .

فى أحد فترات السنوات الثلاثينية من القرن الحالى وصل خمسة اخوة اسمهم مسينا الى لندن بعد أن سبقهم أبوهم اليها . ونظرا لانهم جاءوا أصلا من مالطة فانهم لهذا كانوا رعايا بريطانيين برغم انهم ينحدرون من سلالة ايطالية .. وراح الجميع يجمعون أرباحا طائلة من استغلال البغايا اللائى كانوا يسيطرون عليهن واللائى سهلت حالة « الاظلام » وغيرهـــا من أحوال الحرب عملهن بما فى ذلك رغبـــة رجال القوات الامريكية الذين كانوا يقضون عطلتهم فى لندن فى « قضاء وقت لطيف » وأثناء فترة الانتعاش التى أعقبت انتهـاء الحرب ، استمرت أعمال أسرة مسينا فى الازدهار برغم ما كانوا يتعرضون له من انتكاسات من حين

لآخر . وقد انجلت حرب جرت بالموسى والمدى ضد عصابة منافسة بسبب بعض البغايا المحميين في منطقة بوند ستريت عن الزج بأحد الاخوة في السجن لمدة ثلاث سنوات لأنه أصاب أحد الأشخاص بجرح خطر . وعلى اثر ذلك عينت بعض صحف الاحد مخبريها لاجراء التحريات فكانت النتيجة الكشف عن بعض وجوه نشاط الاخوة الشائن، وذكرت أسماء الاخوة جميعا بالاضافة الى سلسلة من البغايا كن على اتصال بهم : هرميون هندن « مارسيل » ، سيسى كوهين ، « نيفين » ، جورجيت بورج وغيرهن .. وكان من نتيجة هذه الدعاية غير المرغوب فيها ان عمد أحد الاخوة الأبعة وهو الفريدو مسينا الذى يعتبر أخطر اخوته الى تغيير اسمه سرا فى يونيو ١٩٥٠ فأصبح يدعى الفريد مارتن .

كان الفريدو مسينا وشهرته الفريد مارتن مالطليا أصلع الرأس فى الخمسين من العمر معتل الصحة ـ كان مصابا بالدرن الرئوى وارتفاع ضغط الدم ـ ولكن هذه العقبات لم تمنعه من استغلال الجسد البشرى فى شكل الأنثى بحذق وبراعة . وكانت لغته الانجليزية ضعيفة ـ ولا عجب فانه كان أميا وان كان فى استطاعته أن يحرر شيكا سليما ، ومع هذا فانه لم يحاول انكار عجزه عن كتابة الشلنات والبنسات فى أى شيك يكتبه ، ولهذا اضطر الى مطالبة البائع بكتابة الرقم فى الشيك يوم أن اشترى غرفة مائدة من متجر هارودس .. واذا قيل ان له مهنة مشروعة فانها مهنة بائع الجواهر لأنه احترفها فترة من الزمن فى بلجيكا ، ولكنه لم يكن معروفا فى هاتون جاردن بعد وصوله الى لندن قادما من بلجيكا عام ١٩٣٩ ، ولو انه كان معروفا الى حد ما فى أجزاء معينة من مايفير ولم يكن هناك شك أيضا فى انه كان ـ قبل مجيئه الى انجلترا ـ يشتغل بتجارة الرقيق الأبيض عن طريق الاتصال بمدن مثل باريس ومدريد والدار البيضاء . أما زوجته التى تزوجها فى أسبانيا عام ١٩٣٥ وأصبح يقيم منفصلا عنها ، فكانت بغى بوند ستريت المعروفة باسم « مارسيل » وفى تلك الأثناء كان الفريد يعيش مع بغى أخرى هى مسز هرميون هندن منذ سبع أو ثمانى سنوات فى منزل بوميلى . وأثناء تلك الفترة كان كل مبلغ نقدى كبير يودع فى واحد من حساباته المصرفية الثلاثة ، كما كان يملك مبالغ كبيرة فى ثلاث خزائن للأمانات .

بعد ظهر يوم ١٩ من مارس ١٩٥١ بقليل ، زار اثنان من رجال الشرطة السرية هما المفتش ماهون والجاويش فوستر منزل مسينا

بهارودين رود بناء على موعد سابق ٠٠ كانا قد جاءا الى المنزل قبل ذلك بأربعه أيام ولكن مسينا كان بالخارج ، ولكنهما قابلا مسز هنـــدن التى كانا يعلمان انها بغى نظرا لأنهــــا قدمت للمحاكمة فى أكثر من ١٠٤ قضايا متهمة « بالتحريض على الفسق » وكان منزل هارودين رود الذى جاء اليه ضابطا الشرطة منزلا منفصلا يدل مظهره على انه مسكن محترم ، يتكون طابقه الأرضى من غرفة للمائدة وأخرى للجلوس ومطبخ ويوجد بالأخير خزانة نقود كبيرة ٠ أمــــا الطابق العلوى فكان مكونا من غرفة نوم كبيرة ، واثنتين صغيرتين ودورة مياه ، وبالاضافة الى ذلك كانت هناك حديقة أمام المنزل وخلفه أيضا ٠ وكانت الأسرة تستخدم خادمة « نهارية » شهدت فيما بعد أمام هيئة المحكمة بأنها كانت تعتبر الأسرة « محترمة جدا » ، وانها كانتتنادى مسز هندن بـ « سيدتى » وتعتبرها ربة البيت وانها ومسينا كانا يعيشان معا مثلما يعيش الزوج وزوجته ٠ وكان رجال الشرطة قد استجوبوا من قبل رجلا اسمه روبر يؤدى أعمالا تافهة فى المنزل كتنظيف السيارة حول طريقة حياة مسينا ٠

وعلى أثر وصـــول رجلى سكتلانديارد ، انسحبت مسز هندن الى المطبخ تاركة مسينا وحده مع الرجلين فى غرفة الجلوس ٠

وبدأ مفتش الشرطة الحديث قائلا :

ــ اعتقد انك تعرف اننا نتحرى ادعاءات تقول انك تعيش منذ سنوات على كسب احدى البغايا ٠

فأجاب مسينا بلا حذر : أعرف ذلك ٠

ــ من قال لك اننا قابلنا مستر روبر وتحدثنا اليه عنك ؟

ــ هذه مسائل يجب أن أعرفهـــا ، فاننى أعرف أشخاصا كثيرين جدا ، وهم يحدثونى بما يجرى ٠

ــ هل اخبرك مستر روبر اننا قابلناه ؟

ــ كلا ، ولكنى اعلم انه كان قلقا لأمر ما ٠

وشدد الضابط الضغط على مسينا فى هذا الموضوع بغية معرفة الشخص الذى افضى اليه بمعلومات كان ينبغى أن تظل معرفتها قاصرة على الشرطة ٠

وفجأة قال مسينا : لنكن أصدقاء ، فنحن رجال محنكون ولا يمكن أن نتخلف عن الركب • سأقدم لكما غداء شهيا به ديك رومى وشمبانيا•

ولم يجب رجلا الشرطة على هذه الدعوة السخية ، ومضى المفتش يسأل مسينا :

– من صاحب هذا المنزل ؟

– أنا .. اشتريته منذ حوالى عشرة أعوام واقيم فيه منذ ذلك الحين •

– هل تؤدى اى عمل ؟

– كلا .. لأننى مريض لا افعل شيئا •

– من يقيم معك هنا ؟

– مسز هندن . انها تعد طعام الغذاء لنا الآن .

– هل تعلم ان مسز هندن بغى وانهاعملت فى شوارع ويست اند سنوات كثيرة ؟

– يبدو انك تعرف كل شىء عنا .. اننى لا انكر ذلك على كل حال .

– اذن فانت تعلم انها ادينت فى قضايا دعارة كثيرة ؟

– أوه .. نعم .

واستمر المفتش يسأل مسينا عن بغى أخرى اسمهـــا جورجيت بوريج وسأله ان كانت تقيم فى عنوان ذكره ، وكان هذا العنوان شقة يستأجرها مسينا ولكنه لم يعد يستخدمها •

أجاب : ليس الآن •• كانت تقيم هناك ولكنها لا تفعل ذلك الآن ، ويمكنك تفتيش الشقة اذا أردت •

وعندما القى المفتش السؤال القانونى الصحيح على مسينا •

سأله : نظرا لانك تعيش مع بغى فان عليك ان تثبت انك لا تعيش من كسبها •

ولم يجب مسينا على هذه الملاحظة ، وانما قدم كأسين من الشراب لضابطى الشرطة ، فقبلاهما ، واستمر الحديث •

ـ اعتقد انك تذهب بمسز هندن بسيارتك كل مساء تقريبا الى « ماخورها » بشارع مادوكس بمايفير ، وانك تعيـدها الى هنـا فى ساعات الفجر بعد ان تنتهى من عملها كيفى .

ومرة أخرى أجاب مسينا : يبدو انك تعرف كل شيء عنا .

وعندئذ تحولت دفة الحديث نحـو زوجة مسينا وشئون أخرى .. وفجأة استدار مسينا الى ضابط الشرطة وقال له :

ـ أريد أن أتحدث اليك على انفراد .

فطلب الضابط ما هون من الجاويش مغـادرة الغرفة ، ففعل واغلق الباب خلفه .

قال مسينا : ها قد أصبحنا وحيدين وبذلك يمكننا أن نتحدث بصراحة . انى أملك مالا كثيرا وفى استطاعتى مساعدتك فهل يكفيك مائتا جنيه لتسوية الأمر ؟ .

واخذ الضابط على غرة ، وسأل : ماذا تعنى ؟

فقال مسينا : سأذهب لاحضار النقود .

وقرن القول بالعمل اذ غادر الغرفة ثم ما لبث ان عاد بعد لحظات ومعه رزمتان من أوراق النقد قدمهما للضابط .

وقال : اليك مائتى جنيه يا مستر ماهون . فخذها وسو الأمر بغير أن تتخذ اجراء ضدى .

فأخذ الضـابط النقود وتقدم من البـاب ففتحه وهو ينـادى الجاويش فوستر .

وقال له : لقد قدم الى هذه النقود وطلب منى عدم اتخاذ أى اجراء ضـده .

وعندما أقبل الجاويش قال مسينا بضعف : اننى لم أعطها له . لا ريب انه عثر عليها فى هذه الغرفة .

وبعد ان قدم له التحذير المعتاد بأنه ليس هناك ما يدعوه الى ذكر شيء لا يريد ان يقوله ، لأن كل ما يقوله يجوز ان يتخذ دليلا ضده ومضى الضابط ماهون يقول :

ـ سـأقبض عليك لانك تعيش من الكسب غير المشروع لاحدى البغايا وسأبلغ أيضا انك حاولت ارشائى .

واستدعيت مسز هندن من المطبخ ، وحينما أقبلت ألقى عليهـــا الضابط سؤالين اجابت عليهما بالايجاب .

– هل تقيمين هنا مع مستر مسينا ؟

– نعم

– فهمت انك تتاجرين بعرضك وانه صدرت ضدك احكام كثيرة لاحترافك البغاء ؟

– نعم

وعندئذ اجرى الضابطان تفتيش المنزل بمـــا فى ذلك الخـزانة الموجودة فى المطبخ التى عثر فيهـــا – الى جانب جوازى ســـفر باسم الفريدو مسينا وهرميون هندن – على مائتين وعشرين جنيهــــا من الاوراق فئة الجنيه وعشرة شلنات ، وحينما سئل ان كان يريد ان يقول شيئا عن مصدر هذه النقود أجاب مسينا :

– لست راغبا فى أن أقول شيئا الآن .

وذهب الجميـــــع بعد ذلك الى قسم شرطة ويمبلى تاركين الديك الرومى سليما وزجاجات الشمبانيا وهى غير مفتوحة فوق المائدة ، وفى الوقت المناسب وجه الى مسينا الاتهـــام وأطلق سراحه بكفالة على أن يقدم للمحاكمة امام محكمة اولد بيلى فى دورة انعقادها التالية . وحينما سئل ان كان لديه ما يعقب به على الاتهام أجاب :

– سأجيب امام قاضى التحقيق

– ٢ –

بدأت محاكمة الفريدو مسينا وشهرته الفريد مارتن باتهامه انه يعيش على الكسب غير المشروع لاحدى البغايا مع علمه بذلك ، ومحاولة رشوة ضابط شرطة ، امام القاضى كاسلز بمحكمة الجنايات المركزية بلندن يوم ٣ من مايو ١٩٥١ وتولى مستر كريستماس همفرى اعمال الاتهام ومستر ج . سكوت هندرسون أعمال الدفاع . وقال المتهم بصوت جهورى « لست مذنبا » بالنسبة للاتهامين ، وكان عدد المحلفين الذين استمعوا الى القضية احد عشر رجلا وامرأة واحدة ، واثناء اليوم الاول من المحاكمة اعتذرت المحلفة الوحيدة عن الاسهام فى المحـــاكمة بحجة المرض وان كان الارجح ان المخازى التى انحسر القناع عنها فى ذلك اليوم هى التى دفعتها للاعتذار ، واستمرت المحاكمة باحد عشر محلفا .

وادلى رجلا البوليس بشـهادتهما فى لهجتهما الجـافة النمطية العادية ، فذكرا كيف رؤيت مسز هندن كثيرا وهى تعمل فى «ماخورها» بمنطقة بوند ستريت » وكيف انها اتهمت فى مناسـبات لا حصر لهـا بالتحريض على الفسق ، وكيف ان السجين رؤى اما سائرا أو راكبا معها فى هذه المنطقة . وقد دل ترخيص المكان العام « رانبج هورس » بشارع دافيس على ان مسـينا ومسز هنـدن عميلان فى « البار » حيث كانا يتقابلان كل ليلة قبل ان تذهب مسز هندن « الى عملها » .. وادلى المفتش ماهون والجاويش فوستر بشـهادتهما فيما يتعلق بزيارتهمـا لمنزل شارع ويمبلى وهى الزيارة التى انتهت بالقبض على مسـينا ومحاولته تقديم الرشوة للضابط . وتمسك الضابطان بأقوالهما اثناء استجواب الدفاع لهما ، وان حاول مستر هندرسون استغلال قبـول الضابطين لكأسين من الويسكى ، مما اضطر احدهما الى الخروج الى ـ ما قال عنه قاض مشهور فى قضية أخرى « جزء هادىء من المنزل » .
وكان معظم الشهود الآخرين من رجال المصرف الذين اسـتدعاهم الاتهام لتقديم بيان للمحكمة عن الارصدة المختلفة للمتهم فقالوا انها كانت تزاد باستمرار فى فترات منظمة باوراق نقدية من فئة الجنيه والخمسة جنيهات .

وبعد أن ادلى مستر سكوت هندرسون بمرافعة قصيرة حاول ان يدلل فيها على جهل موكله بحقيقة مهنة مسز هندن ، طلب وقوف المتهم فى قفص الشهود . وكان سؤاله له يهدف أساسا الى شرح ثراء مسينا فقال انه حصل على ثروته البالغة ٣٠٫٠٠٠ جنيه من عمله الناجح فى تجارة الماس التى كان يزاولها فى بلجيكا قبل مجيئه الى انجلترا عـام ١٩٣٩ . أما تفسيره لزيادة ارصدة مسينا فى المصارف فلم يكن مقنعا .

ـ من اين جاءت تلك النقود التى كنت تودعها فى تلك المصارف ؟

ـ من خزائنى ياسيدى .

واجاب مسينا على اسئلة اخرى وجهها له محاميه فقال انه قدم لمسز هندى هدايا مختلفة من بينها معطف من الفراء ثمنه الف جنيه كما منحها حوالى الف وثلاثمائة جنيه لتضعها فى رصيدها بالمصرف .

ـ هل حصلت منها على اية نقود ؟

ـ كلا .

وبدا مستر كريستماس همفرى استجوابه بسـؤال المتهم عن

شقته بشارع لانكستر رقم ٣ التى كان يحتفظ بها بالاضافة الى منزله فى هارودين رود ، فأجاب المتهم بأن اباه كان يقيم فى هذه الشقة قبل وفاته ، وان احد اخوته يقيم حاليا فى هذه الشقة ،وان اخاه هذا ، واسمه يوجين ، يقيم فى هذه الشقة مع بغى اسمها سيسى كوهين وشهرتها فيرا جونسون أو « فيفين » ، ونفى المتهم بشدة أى معرفة بينه وبين هذه السيدة برغم انها رؤيت معه منذ شهور قليلة فى شارع ساكفيل حيث استلمت منه مظروفا متضخما .

وهنا سأل الاتهام المتهم عن مسز هندن :

ــ اليست مسز هرميون هندن بغيا ؟

ــ لا أعلم ، والى ان اقيمت الدعوى الحالية لم اكن اعلم ذلك .

ــ هل تستطيع ان تقسم على ذلك امام المحلفين ؟

ــ نعم ..

ــ سبقت ادانتها فى ١٠٤ قضايا .

ــ لا أعلم .

ــ الا تعلم ؟

ــ كلا ..

ــ اما كانت تذهب الى الويست اند بلندن كل ليلة ؟

ــ انها لم تغادر منزلى مساء كل ليلة .

فقال الاتهام باصرار : الا ترى ان قائمة الادانات السابقة خير دليل على ذلك ؟

فأجاب مسينا باعياء : انى لا أعلم شيئا عن الادانات السابقة .

ثم اردف وهو يشير الى المفتش ماهون :

ــ اننى لم أكن اعلم شيئا عن ذلك الى ان جاء هذا السيد والقى القبض على واصطحبنى الى مركز الشرطة .

ــ الم تكن تحاكم كل اسابيع قليلة عن «التحريض على الفسق» ؟

ــ لا علم لى بذلك .

ـ ماذا تظنها تفعل بعد الساعة الخامسة مساء ؟

ـ انها تلازم المنزل مرات كثيرة ، وتذهب الى السينما مرات كثيرة ، وتزور امها مرات كثيرة ايضا ، وهذا هو كل ما أعلمه عن ذلك.

ـ برغم الادلة التى قدمها ضباط الشرطة عن رؤيتهم لها فى الويست اند الليلة بعد الأخرى ، متسكعة فى شارع مادوكس ، تقول انك لا تعلم انها بغى ؟

ـ كلا ، لا اعلم انها بغى ـ فقط عرفت ذلك من المحكمة الآن .

ـ لا ريب انها كانت صدمة لك ؟

ـ نعم .

وبعد هذا الاعتراف المثير انتقل الاتهام للحديث عن ترتيبات مسينا المالية .. سأله :

لماذا تحتفظ بثلاثة حسابات مصرفية فى لندن ؟

ـ لاننى احب ان يكون لى ثلاثة حسابات مصرفية فى لندن ؟

ـ أم لأن ذلك يجعل من الصعب على من يريد فحص موقفك المالى معرفة ما لديك من مال ؟

ـ كلا . فى استطاعتهم ان يفحصوا ما يشاءون . يمكنهم ان يجروا هذا الفحص الآن مثلما فعلوا من قبل .

ـ لماذا تحتفظ بثلاث خزائن ودائع منفصلة بالاضافة الىحسابات البنوك الثلاثة المنفصلة ؟

ـ بعضها موجود قبل الحرب والبعض الآخر منذ عام ١٩٤١ عندما بدأ الالمان يضربون لندن بالقنابل ولذلك اخترتها منفصلة حتىاذا ضرب احد المصارف بالقنابل بقيت حساباتى وودائعى بالمصارف الاخرى سليمة .

ـ اذن لماذا استأجرت خزانتين منفصلتين فى سلفريدج ؟

ـ لأنه لم يكن هناك متسع فى الأولى .

ـ اكان ذلك لانها امتلأت بأوراق النقد من فئة الجنيه الواحد ؟

ـ كلا ، لم تكن من فئة الجنيه . سلوا هذا السيد عما وجده فيها .

هل تعنى انك لم تكن تعلم بأنها تذهب الى ويست اند بلندن كل ليلة ؟

ـ كلا

ـ الم تكن تذهب بها الى هناك ؟

ـ لا أعلم .. كلا . لا أحد يستطيع ان يثبت اننى كنت افعل ذلك .. ان هذا القول غير صحيح

وحينئذ تلى على السجين العبارة التى ادلى بها المفتش ماهون اثناء الحديث الذى دار بينهما قبل القبض عليه من انه يعتقد ان مسينا كان يذهب بالمرأة فى سيارته الى « ماخورها » بشارع مادوكس ويعيدها الى منزل ومبلدون عند الفجر ، كما تليت عليه الاجابة التى نسبت اليه « يبدو انك تعرف كل شيء عنا » ، ولكنه نفى بشـــدة صدور هذا القول عنه .

وهنا سئل مسينا عن جورجيت بورج التى اقرضها نقودا والتى اعتادت التردد على منزل شارع ومبلدون فى عطلات آخر الاســبوع ، فاعترف بأنه كان يعرف انها بغى ، ولكنه نفى علمه بسابقة محاكمتها ، وقال انها زارته مرة أو مرتين لاقتراض بعض النقود ولكن الوقائع دلت على انه كان يعرفها حق المعرفة لان صورا كثيرة التقطت لهما معا فى بلجيكا وعثر عليهــا فى خزانة ودائعه .. وقال مســينا انه وان كانت جورجيت قد ترددت عليــه لاقتراض بعض النقود فانه لم يكن يعرف عنوانها ، وحينما قيل له انها تقيم فى منزل بشارع كنجلى ، وهو العنوان الذى يقيم فيه احد اخوته ـ اتيليو ـ أبدى مسينا دهشته ونفى علمه بذلك نفيا قاطعــا (١) ، كما قال انه لا يعلم ان هرميون هندن اعطت عنوان شارع كنجلى بوصفه عنوانها فى عدة مناسبات اثناء محاكمتها فى قضايا التحريض .

وسئل المتهم بعد ذلك عن زوجته ماى مسينا المعروفة باســم « مارسيل » ، فاعترف بأنها كانت تقيم مع أبيه بعد مجيئها الى انجلترا وانه كان يبعث اليها بالنقود لتعيش بها ، ثم ابدى دهشته مرة اخرى حينما قيل له انها اتهمت فيما لا يقل عن ١٢٢ قضية دعارة ..

وعاد الاتهام يستأنف الحديث عن قضية مسز هندن ، مما ادى الى تبادل أعجب الاسئلة والاجابات فى هذه القضية الغريبة .

(١) في ابريل ١٩٥٩ اتهم اتيليوسينا بانه يعيش من الكسب غير المشروع لاحد البغايا وحكم عليه بالسجن أربعة اعوام واستطاع رجال الشرطة ان يثبتوا انه جمع من كسب بغى واحدة ٤٠,٠٠٠ جنيه في عشر سنوات .

واشار مسينا مرة اخرى الى المفتش ماهون واردف : أوراق من فئة الجنيهات الخمسة .

— من فئة الجنيهات الخمسة لا الجنيه الواحد ؟

— نعم .

— وهل هذا كله للاحتفاظ بالنقود التى اقتنيتها منذ عام ١٩٣٩؟

— نعم . انها نقودى وفى استطاعتى ان احتفظ بها حيثما اشاء .

واخيرا نفى مسينا انه عرض على المفتش ماهون اية نقود لوقف تحريات الشرطة وقال ان الحادث الذى قيل انه وقع فى المنزل كان اختلافا ، ولهذا فانه لم يدل بأية أقوال عنه فى مركز الشرطة وقال :

— اننى لا أجيب على اى شخص لا يلتزم الامانة معى .

فقال الاتهام : انتظر الى ان تصبح بين ايدى المحلفين ثم سلهم . اتظن انهم سيصدقونك ؟

— نعم .

- ٣ -

على اثر نزول المتهم من فوق منصة الشهود صعدت اليها المرأة التى قيل انه يعيش من كسبها غير الحلال . كانت هرمون هندن بغيا ذات سجل طويل من المحاكمات يوحى بأنها كانت تزاول مهنتها غير المشروعة فى الويست اند كل ليلة .. وكانت هرمون قد جاءت الى المحكمة بلا زينة أو بهرج محاولة ايهام من يراها بأنها تعيش عيشــة منزلية شريفة فى ويمبلى وانها منصرفة للعناية بامها العجوز وابنها الذى يبلغ من العمر ستة عشر عاما ، وقالت ان هذا هو سر زياراتها المسائية لمنطقة بوند ستريت .. واعترفت بانها تعيش مع مسينا منذ ثمانية اعوام وانه قدم لها هدايا ، من بينها معطف من الفراء وخواتم وأقراط ماسية . وقالت ان مسينا اعطاها أيضا حــوالى ١٤٠٠ جنيه وان هذا المبــلغ دفع فى حسابها بالمصرف .

فسألها محامى مسينا : الا تزال كل هذه النقود باســمك فى المصرف ؟

فاجابت متظاهرة بالسذاجة : نعم .

ـ وهل كان مسينا وحده هو الذي منحك هذه النقود ؟
ـ نعم .

وبعد ذلك تولى مستر كريستماس همفرى سؤال الشـــاهدة ، وكانت اسئلة محرجة بحيث جعلت قصـــة المرأة تبدو عرجاء .. وقد كشفت هذه الأسئلة ايضـــا عن تفصـــيلات مخزية فى حياة البغى وعن سلسلة طويلة من المحاكمات عن التحريض على الفســـق وكثرة تغيير العنوانات التى استلزمته هذه المحاكمات .

ـ هل توافقين على ان لك غرفة فى منزل رقم ٣ شارع بولم .

ـ نعم كانت لى غرفة هناك .

ـ الى متى ؟ .

ـ الى ان عرف مستر مسينا ما كنت افعله .

ـ عندما القى القبض عليه ؟ .

ـ نعم .

ـ الم يقـل لك انه يحســـن بك ان تتركى منطقتك بشـــارع مادوكس ؟ .

ـ كلا . انه لم يكن يعلم ان لى اية منطقة بشارع مادوكس .

ـ هل كنت تزاولين مهنتك بشـــارع مادوكس والمنطقة المجاورة لها كل ليلة تقريبا ؟ .

ـ كلا .

ـ كم مرة فى الأسبوع ؟ .

ـ أحيـــانا مرة وأحيـــانا أخـــرى مرتين وفى بعض الأحايين لا أزاولها اسابيع كثيرة .

فقال الاتهام باصرار : ولكنى أقول انك كنت تذهبين الى هناك كل ليلة .

فأجابت الشاهدة متظاهرة بالكبرياء :
ـ كلا . انى لا افعل ذلك .

ـ وأقول ايضا ان رجال الشرطة رأوك هناك كل ليلة .
ـ كلا .. هذا ليس صحيحا .

فأردف مستر همفرى : ١٠٦ محاكمات فى خمسة عشر عاما ٠٠ هل انت جادة فى أن الرجل الذى كنت تعيشين معه طوال السـنوات الثمانى الأخيرة لم يكن يعلم انك بغى ؟ ٠

ـ نعم ٠

ـ حتى وانت تغادرين المنزل ليلة بعد اخرى للذهاب الى الويست اند ؟ .

ـ كلا ٠ لم اكن اغادره ٠

ـ ومع هذا فقد رؤى معك فى (بار) رافنج هورس ؟ ٠

ـ لم أذهب معه الى هناك سوى مرة أو مرتين ٠

ـ هل صحيح ما يقال من ان الفتــاة كانت تستطيع كسب ٢٠٠ جنيه فى مناطق البغاء بشارع مادوكس فى الايام الخوالى ؟ وهل حصلت على مبلغ ٢٠٠ جنيه فى تلك الايام ؟

ـ لم يحدث هذا فى حياتى ٠

ـ ولا مائة جنيه ؟

ـ كلا

ـ ولا فى شارع مادوكس ؟

ـ كلا

ـ كم كنت تربحين ؟

ـ فى الأسبوع ؟

ـ نعم

وفكرت الشاهدة لحظة ثم أجابت : ربما خمسة عشر جنيها .

فسأل الاتهام : ١٥ جنيها ؟ اعتقد انك لم تكونى ناجحة ؟

فقاطعته مسز هندن : ليس دائما ٠

ـ ولكنك كنت تدفعين ايجارا قدره ١٨ جنيها فى الاسبوع ٠

ـ بل ثلاثة جنيهات ٠

فقال كريستماس همفرى : اعلم أن عقد الايجار بثلاثة جنيهات ، لكن الم تكونى تدفعين ١٥ جنيها اضافية ؟

فأجابت الشاهدة بين شهقات المحكمة : كلا .

ــ هل تقسمين على انك لم تربحى اكثر من ١٥ جنيها فى الاسبوع بشارع مادوكس ؟ .

ــ نعم

ــ وماذا كنت تفعلين بها ؟ .

ــ كنت أعول امى وابنى الصغير ، كما ان لى اخا مريضا كنت أمده بالنقود .

ــ هـذا صحيح .. ان ما كنت تربحينه ذهب كله فيما كنت تقدمينه من معونات .

ولم تكن الشاهدة تعلم ان المنزل رقم ٧ بشارع كنجلى الذى كانت تحتفظ فيه بشقة تؤدى فيه (عملها) فى احدى الفترات كانت شقة اتيلو مسينا أخ المتهم ، كما انها لم تكن تعلم أن «مارسيل» البغى التى كانت تمارس مهنتها ذات يوم فى شقة مجاورة لشقتها بشارع بولن كانت زوجة المتهم : واقسمت على انها لم ترهما معا .. اما عن قصة علاقاتها بالسجين فقد انكرتها على طول الخط .

ــ هل صحيح ان مستر مسينا يملك سيارة ؟

ــ نعم

ــ وانه كان يذهب بك الى الويست اند فى الامسيات التى كنت ترددين فيها على هذا الحى بسيارته ؟

ــ لم يحدث هذا مطلقا .

ورفع كريستماس همفرى حاجبيه دلالة على فرط الدهشة وسألها :

ــ الم يذهب بك مطلقا الى الويست اند بسيارته ؟

ــ فأجابت البغى فى اصرار : مطلقا .

ــ اذن كنت تذهبين وحدك الى الويست اند كلما اردت مزاولة مهنتك ؟

وبدا الالم على وجه مسز هندن امام هذا الاتهام ، واجابت :

ـ عندما كنت اذهب الى الويست اند مرة او مرتين في الاسبوع، كنت اقول لمستر مسينا انني ذاهبة لزيارة امي او لمشـــاهدة احـدى الافلام السينمائية .

ـ واين توجد دور السينما التيكنت ترددين عليها ؟ فيالويست اند ؟

ـ كلا

ـ هل كان يعود بك الى المنزل ليلا في بعض الاحايين ؟

ـ مطلقا ..

ـ الم يكن الاتفاق بينكما انيهيىء لك منزلا جميلا مريحا فيويمبلى على أن تؤدى عملك المعتاد في الليل وتعودى بما تحصلين عليه من نقود ؟

ـ كلا قطعا .

ـ ٤ ـ

عرض القاضى كاسلز الادلة التى تدين الفريدو مسينا وتلك التى تبرئه ملتزما منتهى العدل والانصاف .

وقال للمحلفين : اذا كنتم تظنون انه لم يكن يعلم ، او من الجائز انه لم يكن يعلم ان هرميون هندن بغى ، فلن يكون للاتهام الموجه اليه اساس ولذلك يتعين صدور الحكم ببراءته .. وانما السؤال الحقيقى هو : هل كان يعلم كل العلم ، أو حتى جزئيا ؟ فليس فى هذه البـــلاد قانون يعاقب الرجل لأنه يعيش مع احدى البغايا وما دام لا يعيش كليا او جزئيا على كسبها من مهنة الدعارة ، لطالما قلنا فى هذه المهمة عنـد نظر عشرات من القضايا الخلقية : ان هذه المحكمة ليست محكمة اخلاقية. انكم قد لا توافقون على سلوكه وقد لا يوافق عليه أيضا أى رجل محترم ، ولكنكم لم تجيئوا الى هنا لتقولوا هل كان سلوكه سلوك رجل محترم ام لا ، وانما جئتم لتقولوا هل هو مذنب من ناحية العيش على كسب هذه البغى ... فهذا هو السؤال الحقيقى هنا ..

ـ عليكم ان تتذكروا ان القانون الذى اقره البرلمان يقول :

« اذا ثبت ان رجلا يعيش مع بغى ، او يرافقها باستمرار ، او اذا ثبت انه يسيطر على اتجاهها أو يؤثر على حركتها كبغى على نحـــو

يثبت انه يساعدها او يحرضها ، أو يرغمها على الفسق ... وجب اعتباره رجلا يعيش من الكسب من الدعارة ما لم يثبت عكس ذلك » ٠

ـ فعليكم ان تتذكروا ان ثقل الأدلة يكون صحيحا اذا اثبت شيئا من ذلك او حتى مجرد الاحتمال . ولقد كان هذا هو السبب فيما لجا اليه الدفاع من التعرض بالتفصيل لحالة المدعى عليه المالية ..

واستطرد القاضي : لقد نفى المتهم انه كان يعيش كلية او جزئيا من كسب هذه البغى هرميون هندن .. لقد ذكرت لكم نص القانون وموقفه من الرجل الذى يعيش مع بغى ، فانه يعتبره شخصا يعيش على كسبها سواء كلية أم جزئيا ٠٠ هذا هو المفروض ٠٠ وقد وافق المدعى عليه على انه تردد معها على (بار) رننج هورس، ولكن هذه الزيارات كانت قليلة ٠ وهو ينكر انه كان يرافقها في الاماكن التى ذكرها ضابط الشرطة ، وينفى انه اصطحبها بسيارته فى أوائل الليل ، ويقول انه لم يكن يعلم انها بغى قبل ان تبدأ هذه المحاكمة .

وانتقل القاضى الى الادعاء الثانى، وقال عن قصة مسينا بمحاولته رشوة رجال الشرطة :

ـ ان من حقكم بل ومن سداد الراى ، ان تتأملوا شهادة اثنين من كبار رجال الشرطة ، وبالأخص بالنسبة للمفتش ماهون ، الذى يشغل منصب وكيل الشرطة وله خبرة بشئون الشرطة لا تقل عن خمسة وعشرين عاما ، وانه لمن سداد الرأى ان يطلب اليكم ان تفكروا فى انه من غير المحتمل ان ينحدر ضابط شرطة لا يهمه من هذه القضية شيء غير اداء واجبه الى الحضيض الخلقى بحيث ينتزع ٢٠٠ جنيه من خزانة المتهم ويقول له « والآن ، انى اتهمك بتقديم رشوة لى » ٠٠ ان من حقكم طبعا أن تفكروا فى هذا الموضوع ومن ثم فان عليكم أن تضعوا سمعة هذا الضابط المحترم فى كفة ، وان تضعوا فى الكفة الاخرى المدعى عليه بمنزله الفاخر واسمه المزيف ـ كلا ٠ لن أقول ان اسمه « زائف » ولكنى اكتفى بأن اقول ان له اسما آخر فى بطاقة تحقيق شخصيته وكيف انه ظل يعيش سبع او ثمانى سنوات مع امراة بغير ان يعلم انها تمارس الدعارة منذ ثلاث عشرة سنة ٠٠ وهكذا تجدو أمامكم عاملين متناقضين ينبغى ان تفكروا فيهما حينما تستعرضون الأدلة المعروضة عليكم حتى يمكنكم الوصول الى الحقيقة الكاملة .

وعندما انسحب المحلفون للتشاور فى حكمهم ، خيل انهم صادفوا

بعض الصـــعوبة فى الوصول الى قرار فى ادعاء الرشوة ، اذ انهم عادوا الى قاعة المحكمة بعد ثلاثة أرباع الساعة وقالوا انهم يرغبون فى الاستماع مرة اخرى الى شهادة ضابطى الشرطة . وعندئذ قرأها القاضى عليهم. وانسحب المحلفون مرة أخرى ، وبعد اثنتى عشرة دقيقة عادوا ثانية الى قاعة المحكمة .

وهنا نهض كاتب الجلسة وسأل كبير المحلفين :

ـ هل وجدتم المتهم الفريدو مسينا مذنبا أم غير مذنب فى الادعاء الأول :التعيش من الدعارة ؟

ـ مذنب ٠

ـ وهل وجدتموه مذنبا أم غير مذنب فى الادعاء الثانى : أى تقديم الرشوة ؟

ـ مذنب .

ـ هل وجدتموه مذنبا فى الحالين وهذا حكمكم جميعا ؟

فأجاب كبير المحلفين : نعم يا سيدى ٠

وعندئذ التفت القاضى كاسلز الى المتهم الواقف فى القفص واصدر حكمه بحبس الفريدو مسينا سنتين وغرامة قدرها ٥٠٠ جنيه اذا لم يدفعها قضى خمسة أشهر أخرى فى السجن ٠

وقال القاضى : لقـــد جال بخـــاطرك انه من حيث اتصـــال الامر بشرطة هذه البلاد فان النقود تستطيع أن تفعل أى شىء ٠ انك رجـــل شرير ، ولقد اصدر المحلفون حكما سديدا .

وبهذه الكلمات المدوية نزل الفريدو مسينا وشهرته الفريد مارتن درجات قفص الاتهام ليقضى فترة عقوبة استحقها من اعماله القبيحة .

الفصل العاشر

القواد والبغى

٢ ـ ميكى جلك فى نيويورك

ـ ١ ـ

بعد ان احتلت محاكمة مسينا العنوانات الكبرى فى صحف لندن بفترة وجيزة ، بدأ رجال شرطة نيويورك حملة تحريات واسعة النطاق لتطهير مدينتهم من الدعارة. وكانت نيويورك تختلف اختلافا كبيرا عن لندن فى هذا المضمار . اذ فى حين يستطيع العملاء المرتقبون «اصطياد» البغايا بسهولة فى المشارب العامة (البارات) والنوادى الليلية بالمدينتين ، نجد ان بغايا نيويورك يختلفن عن اخواتهن فى لندن من حيث انهن ندر ان يعرضن مهنتهن فى الطرقات .. صحيح انه كانت هنـاك ـ ولا تزال توجد ـ مواخير للطبقات العليا تبعثر فيها النقـود ، كالماخور الذى كان يديره الشرير بولى ادلر ، ولكن هـذه المواخير باهظة التكاليف ، كانت اثرا من آثار المـاضى . أما اذا أردنا ان نتحدث من الناحيـة العـامة ، فان السـواد الأعظم من بغايا مدينة نيويورك من الطراز المعـروف بالبغايا « تحت الطلب » فانهن يلتمسن الأسباب لنشر ارقام تليفوناتهن بحيث يستطيع الراغبون فيهن الاتصال بهن والاتفاق على مكان المقابلة ، وهو عادة شقة « الفتاة تحت الطلب » وفى بعض الأحايين يتـولى قوادون توجيه « الفتيات تحت الطلب » ويستغلونهن لربحهم الشخصى . ومن تجاوز الثانية والعشرين من العمر عندما قبضت الشرطة عليه . ولكن جلك كان يختلف عن مسينا من حيث انه ينتمى الى اسرة واسعة الثراء لها مكانتها الاجتماعية المرموقة ومع أن دخله المشروع من أملاك اسرته كان صغيرا فى ذلك الحين الا أن آماله كانت كبيرة ، اذ كان من المتوقع

ان يرث عند بلوغه الخامسة والعشرين ثروة قدرها ثلاثة ملايين دولار من صناعة السلى الصناعى .

وقد قبض على جلك اثناء حملات التفتيش الصباحية التى قام بها رجال الشرطة بمدينة نيويورك واستمرت عدة أيام . اما هو فقبض عليه يوم ١٥ من اغسطس ١٩٥٢ ، وكان يسكن حينذاك فى شقة بالمنزل رقم ١٥٥ بالشارع السابع والأربعين بايجار شهرى قدره ١٤٧ دولارا. ووجه اليه الاتهام — مع عدد من الاشخاص من بينهم وكيل صحفى عاطل لناد ليلى اسمه دافيونى — بأنه يعيش من كسب البغايا . وفى الوقت ذاته قدم رجال الشرطة اربع فتيات جميلات — ثلاث شقراوات وواحدة ذات شعر احمر — كشاهدات اثبات . وقالت هؤلاء الفتيات انهن عارضات أزياء ويعملن ممثلات فى التليفزيون فى بعض الأحايين . وكانت اصغرهن فى التاسعة عشرة من العمر واسمها بات وارد .

عندما سمع والد جلك بالقبض على ابنه صاح :

— هذا امر مضحك للغاية ، ان ابنى يحب الفتيات الجميلات لا اكثر ولا اقل .

وقال محامى جلك ان حقيقة الامر انه كان ضحية «انثى موتورة» تنكر لها .. وكانت هذه الأنثى بات وارد كما سنرى وكان لديها من الأسباب ما يحملها على الحنق من جلك بسبب معاملته لها . اما جلك نفسه فكان يسخر من الموضوع كله ، وحينما افرج عنه بكفالة قيمتها ٥٠٫٠٠٠ دولار قال :

— لا أشعر بأن هناك اى امل فى اثبات اى من هذه الاتهامات السخيفة .

ولكن هذا لم يكن رأى وكيل النائب العام مستر انتونى ج. ليبلر الذى تولى الاتهام فى هذه القضية ، فقد قال ان جلك والآخرين كانوا يقدمون « الفتيات تحت الطلب » للعملاء ومن بينهم اصدقاء المقاهى والثراة من رجال الأعمال ، وكانت اجور الليالى الغرامية تتراوح بين ٥٠ و ٥٠٠ دولار ، كما كان العملاء يدفعون ثمن الكوكتيل والعشاء ودخول السينما فى برودواى . ولم يكن جلك ودافيونى يعملان معا ، ولكنهما كانا يقدمان الفتيات احدهما للآخر اذا عانى من نقص الفتيات. وقال وكيل النائب العام ايضا ان جلك ربح مبلغا يتراوح بين ١٠٫٠٠٠ و ١٥٫٠٠٠ دولار فى ثلاثة أشهر من استغلال جسد بات وارد . ووصفه

بلا موارية بأنه « مورد نساء » كان يستخدم شقته التى امتلأت بصفوف من صور النساء العاريات « وكرا للرزيلة » .

وبعد ستة اشهر من دفع الكفالة قدم جلك للمحاكمة امام محكمة مانهاتان التى يرأسها القاضى فرنسيس ل . فالنت وتكونت هيئة محلفيها من الرجال فقط ، وعلى اثر افتتاح اول جلسة للمحاكمة امر القاضى بخروج رجال الصحف والجمهور من قاعة المحكمة بسبب طبيعة بعض الادلة ، ثم اعلن ان الجلسة ستكون سرية .

وفى يوم ٢٨ من فبراير ١٩٥٣ ، وبعد ان قضى المحلفون اربع ساعات ونصف وهم يتناقشون فى الحكم ، أدانو جلك فى ادعاءين أولهما « حث وتحريض ودفع » بات وارد وشهرتها ساندرا نستوسكى « على ان تحيا حياة البغى » ، وثانيهما محاولة تحريض عارضة الازياء مرجريت كوردوفا التى تبلغ الثالثة والعشرين من عمرها على ان تفعل ذلك بدورها .

ووصف القاضى فالنت ميكى جلك بأنه « معدوم الخلق منحل الشخصية » حينما حكم عليه بقضاء فترة تتراوح بين عامين وستة اعوام فى اصلاحية حكومية .

وحينما سمعت بات وارد بالحكم قالت معقبة : انه حكم مخفف، لأن عذابه سيقتصر على السنتين او السنوات الست التالية اما انا فسأتعذب بقية حياتى

- ٢ -

مهما يكن أمد فترة العذاب التى كابدها جلك ، فانه لم يقضها في السجن ، لان محاميه بادر من فوره بتقديم التماس بالنيابة عنه على اساس ان القاضى استبعد الصحافة والجمهور فى قاعة المحكمة . وقال قسم الرأى ان الالتماس صحيح باغلبية ثلاثة اعضاء الى اثنين ، وأمر باعادة المحاكمة نظرا لأن جلك حرم من حق المحاكمة العلنية نتيجة لتصرف القاضى ، فبادر وكيل النائب العام بدوره واستأنف هذا القرار امام محكمة النقض وهى اعلى سلطة قضائية فى الولاية ، ولكن محكمة النقض ايدت قرار قسم الرأى واعيدت القضية ليحققها القاضى فالنت للمرة الثانية .

ونظرا لبطء الاجراءات القضائية فى الولايات المتحدة فان محاكمة ميكى جلك للمرة الثـانية لم تبدأ الا بعد انقضاء عامين على محـاكمته الاولى . وكانت بات وارد البالغة من العمر واحدا وعشرين عاما هى شاهدة الاتهام الاولى .

وكطلب وكيل النائب العام ، رددت الآنسة وارد حديثا دار بينها وبين جلك عند أول لقاء بينهما .

قالت : قلت له اننى اشعر بالشقاء في المنزل ، وان علاقتى بأسرتى سيئة ، وشرحت له الظروف ، فقلت : ان أختى كانت ترتدى ثيابى دائما فتلطخها وتمزقها — وما أشـبه ذلك من الامور التـافهة .. فقال لى « حسنا .. لماذا لا تتركين المنزل ؟ » فأجبت « لا أعلم الى اين يمكننى الذهاب ، واين أستطيع الاقامة ، بل اننى لا عمل ثابتا لى الآن » فقال لى انه سيناقشنى فى هذا الموضوع فى اليوم التالى ..

وقابلت الفتاة جلك فىاليوم التالى ، وشربت معه خمرا حتىثملت، وقضت تلك الليلة فى شقته ، وقالت انها كانت مندعرة لانها لم يسبق لها ان قضت الليل خارج منزلها ، وقال لها جلك انها تستطيع الاقامة بمسكنه ، ففعلت . وعندئذ سألها الاتهام عما حدث بعد أن بدأت تقيم مع جلك .

قال : هل كان بينك وبين جلك علاقة زوجية أثناء هذه الفترة ؟

— نعم . بعد الليلة الاولى .. فقد مرت الليلة الاولى بدون حب .

ومضت الفتاة تقول ان جلك قال لها ذات ليلة « انك تعلمين اننى احبك حبا جما واننى سأتزوجك فى شهر مايو عندما احصل على ٢٠٫٠٠٠ دولار من اخى شارلس .

— قلت له انه يستطيع الحصول على عمـل ، واستطيع انا ايضا الحصول على عمل ، والانتقال الى شقة اصغر ، فقال انه لا يستطيع ان يعيش على هذا النمط .

وهنا قال لها ميكى انها اذا انشـأت علاقات بينها وبين الرجال مقابل النقود فانها بذلك تساعده فى الخروج من الورطة الى أن يحين موعد زواجهما . وقالت ان هذه الفكرة روعتها وأثارت فزعها .

— قلت له « كيف تقول انك تحبنى فى الوقت الذى سأخرج فيه

مع رجال آخرين وانشيء علاقات معهم ؟ كيف يمكنك ان تقول بعد ذلك انك تحبنى وتريد الزواج منى؟ » فقال : « انى اعلم انك تحبينى يابات، ولهذا فان هذه العلاقات لن تغير من الامر شيئا » .. ولكنى أصررت على الرفض .

واخيرا قال لى ميكى « ليس فى ذلك شيء مشين . فان لى بعض اصـدقاء سيقدمون الهدايا لك . وهـذا كل شيء . فهل تفعلين ذلك لأننى فى أشـد الحاجة الى النقود ؟ كلانا محتاج لها » . واخيرا قلت له : « حسنا .. سأفعل ذلك » .

وذكرت بعد ذلك كيف بدأت تنشيء العلاقات بينها وبين رجـال كانوا يدفعون لها اجرا يصل الى ١٠٠ دولار فى المرة . واردفت ان هذا سر ميكى وقال ان مبلغ مائة دولار « عظيم جدا » و « رائع » . وكانت كلما حصلت على نقود ذهبت الى ميكى واعطتها له ، وكان يقول لها : « انه يسدد الشيكات والفواتير بهذه المبالغ » . ومضت الفتـاة تقول انها قدمت لعدد آخر من الفتيات ، وكن يقابلن الرجال معا ويتصلن بهم اتصالا جنسيا .

وحينما سئلت كيف غيرت اسمها من ساندرا فيسوتسكى ــ وكان من الواضح انهـا بولندية الاصل ــ قالت انها تسمت باسم بات وارد حينما كانت تتردد على الوكالات المسرحية لتحقيق أملهـا فى ان تصبح ممثلة .

وحينما استجوبها محـامى جلك ، صموئيل سيجال ، اعترفت الآنسة وارد بأن اول علاقة جنسية لها مع الرجال كانت مع رجل وهى فى السادسة عشرة والنصف من عمرها . وبدأت هـذه العلاقة عندما أسقاها الرجل خمرا حتى دار رأسها ثم أخذها الى شـقة قال انهـا شـقة اخته وان « اخته ليست موجودة فى المنزل » . واضافت بأنها كانت تشعر بدوار كبير ، وعندما استيقظت فيما بعد وجدت نفسـها عارية فى فراش مع رجل اطلقت عليه لارى وتبين ان اسمه بالكامل لارى جرينبوم .. واردفت انها كانت تقابله من حين لآخر فى الفندق الذى كان يقيم فيه ، واخيرا حملت منه .

ــ عندما اكتشفت انك حامل ، هل ذهبت الى امك وقلت لهـا ان لارى جرينبوم هو السبب ؟

ـ لم اقل لهـا فى بادىء الأمر اننى حـامل ، واخيرا صارحتها بالحقيقة .

واستطردت ان لها ابنا غير شرعى ، ولكنها لم تتخذ اى اجـراء ضد لارى او تطلب القبض عليه .

وعندئذ قدم مستر سيجال صورا فوتوغرافية لبـات وارد وهى عارية وفى اوضاع مخلة بالآداب وعرضها على الشاهدة ، فقالت انهـا كانت ثملة جدا عندما التقطت لها هذه الصور ، ونفت بكل شدة انها قبلت التقاط هذه الصور لاغراض بهيمية ، الا انها اعترفت بأنها لم تكن تذكر ماذا كانت تفعله وهى مخمورة .

وكان معظم شاهدى الاثبـات اللائى قدمهن الاتهـام من البغـايا المعروفين ، ومنهم مرجريت كوردوفا التى شـهدت بأن المتهم حاول اقناعها « بانشاء علاقات جنسية مع الرجال مقابل نقود » .

ولم يصـعد جلك الى منصة الشهود ، وأدلى بالشـهادة لمصلحة نفسه ، وقنع محاموه بسؤال الشاهدات عن سلوكهن الخاص ، ولفتوا نظر المحلفين الى انه لا يجـوز لهم ادانة المتهم اسـتنادا الى شـهادة مجموعة من البغايا المحترفات .

ولكن قضية البغاء كانت وطيدة . وتمخضت عما يأتى « ان جلك كان ينفق نقودا كثيرة ، وبحاجة الى نقود كثيرة ، وقد اثبتت الادلة انه كان يحصل على النقود على نحو كان يعتقد انه وسيلة سهلة « العيش من عائد البغاء .. »

وفى يوم ٣١ من مارس ١٩٥٥ ، وبعد مشاورات طالت لأكثر من اثنتى عشرة ساعة غادر المحلفون غرفتهم الى قاعة المحكمة واعلنـوا آنه تبين لهم ان المتهم مذنب فى ادعاء « البغاء الالزامى » .

- ٣ -

قال القـاضى فالنت وهو يصـدر حكما على ميكى جلك للمرة الثانية « هذا الرجل الاشعبى ، الدنىء ، مستغل اعراض النسـاء ، المجرد من كل خلق ، المنحل ، الذى لا يقيم وزنا لأقل مستويات الأدب .. انه عدو المجتمع » .

وكان الحكم الذى اصدره القاضي فى هذه المرة هو قضاء سنتين الى ثلاث سنوات فى الاصلاحية . واستأنف جلك الحكم للمرة الثانية ولكن الحظ خذله ، لان محكمة الاستئناف ايدت حكم محكمة اول درجة، وبذلك زج ميكى جلك فى سجن سنج سنج لقضاء العقوبة التى حكم بها عليه .

وبعد محاولة واحدة غير ناجحة لاطلاق سراحه بكلمة الشرف ، اطلق سراح جلك من السجن بعد أن قضى فيه واحدا وعشرين شهرا . .

وعاش بعد ذلك حياة هادئة مع زوجته الشقراء ، سيلفيا ايدن، التى كانت معه وقت القبض عليه وتزوجته بين المحاكمتين . وظل الزوجان يقيمان فترة من الوقت فى شقة مكونة من اربع غرف فى حى برونكس بنيويورك .

لعل ميكى جلك كان سعيد الحظ فى لعب الميسر ، لأن من المحقق انه لم يكن سعيد الحظ فى الحب . . فبعد انقضاء عدة اعوام على زواجه تقدمت زوجته الى المحكمة تطلب الطلاق ، واصدرت المحكمة حكمها بالطلاق على أساس ان زوجها يستخدم معها « منتهى العنف » .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقـديم	٣
الفصل الاول	
تشيسمان .. كيف عاش ١٢ عاما بعـد ادانته ؟ ! !	٩
الفصل الثانى :	
جوردون لونسديل وجواسيس البحرية	٢٧
الفصل الثالث :	
بريان دونالد هيوم، بريطانى حوكم فىزيورخ	٥٧
الفصل الرابع :	
الدكتور ريتشـارد مولر طبيب الاسـتاذ الالمانى والسـيارة المشـتعلة	٨٣
الفصل الخامس :	
رودلف ايفانوفتش آبل أستاذ الجاسوسية السوفيتية	٩٥
الفصل السادس :	
محـاكمة فرانسيس جارى باورز قائد الطائرة ى-٢ فى موسكو	١٠٩

الفصل السابع :

الدومينكيون وأسرة داروموند ١٤٧

الفصل الثامن :

مازوركفتش ـ غلام كراكاو العابث ١٦٩

الفصل التاسع :

القواد والبغى الفريدوسينا فى لندن ١٧٩

الفصل العاشر :

القواد والبغى ميكى جلك فى نيويورك .. ١٩٧

الدار القومية للطباعة والنشر

يتضمن الكتاب عشر قضايا من أهم المحاكمات التى أحدثت ضجة عالمية فى السنوات الأخيرة ، وتمثل قطاعا شاملا لجميع أنواع الجرائم الدولية المعاصرة . وقد اكتسبت هذه القضايا صفة دولية واستحوذت على اهتمام الرأى العام العالمى لأسباب ودوافع متباينة . وأهم ما يستخلص من هذه القضايا حقيقة يجب أن يستوعبها المجتمع الانسانى وهى أن المجرمين على اختلاف ظروف المجتمع الذى يعيشون فيه يكونون غالبا ضحية المجتمع فى سنيهم المبكرة ، وأن على المجتمع أن يعمد الى علاجهم وهم فى سن الطفولة تلافيا لأسباب الانحراف .

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١١٥
ــ
الثمن ٢٥

١٩٦٤/٧/١٦